رواية

قصة حبٍ
في قلب معركة
(Amûdê)



محمد عبد الستار إبراهيم

قصة حب في قلب معركة

رواية

محمد عبد الستار إبراهيم

رواية : قصة حب في قلب معركة
المؤلف : محمد عبد الستار إبراهيم
الطبعة : الثانية 2019 مصر
الأولى 2018 الأردن
المراجعة اللغوية : محمد حلمي
التجهيزات الفنية : شريف الريس
رقم الإيداع : 16412
الترقيم الدولي : 978-977-797-147-8

مركز القاهرة للدراسات الكردية
Cairo Center For Kurdish Studies

إهداء ..

إلى الشهداء الذين ينبضون حياةً ..
إلى عامودا بلد المليون شاعر ..
إلى الشعب الكردي الأشم.

المقدمة

ليس من السهل أن يولد الإنسان كرديًا، ليكون منسيًا، تتكالب عليه الأمم من كل حدب وصوب لطمس هويته وحضارته وماضيه وحتى حاضره ومستقبله.

ليس من السهل أن يكتب الإنسان عن وطنه وقوميته ومأساته.. ليس من السهل أبدًا أن يشرح لطبيب عن مرضه وهو يئن وجعًا.

إن التاريخ الكردي منذ تكوينه.. تاريخ من الثورات والقتال والتضحيات الجسام، والسعي وراء الحرية.

ها أنا اليوم وبعد أربعة عشر عامًا أضع بين يدي القارىء العربي تاريخًا من تاريخ شعبي المضطهد، وإن كان الكثير من الفصول بُني على مشاهد خيالية؛ لكن ذلك يعكس شجاعة وبطولة ونخوة وطيبة وثقافة الشعب الكردي.

حاولت من خلال هذه الرواية أن أقدم للقارىء شيئًا بسيطًا مما عاناه الكردي، وبكل تأكيد مهما كانت بلاغة الكلام ووصف الآلام فذلك لا يمثل ١٪ من معاناة الكرد على مدار الزمن، وهذا غيض من فيض.

ظلمتنا دول .. وظلمنا الإعلام.. وظلمتنا أنظمة قمعية؛ وظلمنا من تخرّج وتربّى في ظل هذه الأنظمة حتى اعتدنا الظلم فظلمنا أنفسنا!

كثير من الأمور التي دفعتني إلى كتابة هذه الرواية، وربما كانت الصفعة التي تلقيتها السبب الأول، ففي تاريخ ٢١/ ٣/ ٢٠٠٤ يوم عبد النوروز، كنت ابن الرابعة عشر، تلقيت صفعة عنيفة من عنصر من الأمن فقط لأني كردي، صدقًا أني لا أحمل في قلبي أي ضغينة تجاه ذاك العنصر، فصفعته خلدت ذاكرتي، وله المنة والفضل بعد الله، فبصفعته تحول ذاك الفتى اليافع إلى رجل يعلم كل ما يجري من حوله.

الكرد شعب مثقف وله حضارته العريقة، وثقافته الجميلة، ومن حقه على شعوب العالم أن يتعرفوا عليه، ربما كان ذلك أكبر مني ومن قدراتي، ولكني أتمنى أن أكون قد زرعت بذرة صغيرة لتنبت شجرة السلام والمحبة بين الكرد وكل شعوب العالم وأولهم الشعب العربي والتركي والفارسي.

ها أنا أدخل العام الرابع عشر في غربتي عن وطني وبني قومي، ولكن الدم والألم الكردي لا يزالان يجريان في عروقي؛ فالظلم لا يُنسى.

رسالتي إلى العالم أجمع..

الكرد ليسوا بشعبٍ حاقدٍ أو معادٍ؛ هم شعب مسالم إلى أبعد حدود، ربما عصبيته القومية في بعض الأماكن متشنجة وذلك يعود للظلم الذي وقع عليه، فالكردي عاش منبوذًا على مدار عقود طويلة وهو يحاول أن يحصّن قوميته وثقافته من الاندثار على يد أنظمة استبدادية.

الكرد شعب محب للحياة، للناس، شعب يتقن الفرح ولا يريد سوى الحصول على حقوقه.

من هنا أدعو كافة السادة القراء إلى التقرب من الشعب الكردي والتعرف على ثقافته لاكتشاف ذلك.

وآخرًا أتوجه بالشكر إلى الشهداء الذين كانوا أبطال روايتي، وإلى المعتقلين الذين كانوا صوت أحرفي وصدى قضيتي، وإلى الانتفاضة التي كانت قصتي، وإلى كل من ساهم ودعم وقدم وحاول في سبيل نشر هذه الرواية.

والشكر لكل من يسعى إلى السلام ونشر المحبة والوئام بعيدًا عن الأحقاد، وعلى الأرض التي أنتمي كل السلام.

محمد عبد الستار إبراهيم

٢٠١٨/٣/٢٦

توضيح

أضع بين أيديكم اليوم يا سادتي، جانبًا من التاريخ المجهول للشعب الكردي الأبيّ، ليست مجرد صفحاتٍ دُونت بالحبر الأسود، إنما صفحات من التاريخ عُطّرت بدماء الشهداء.

في تاريخ ١٢/ ٣/ ٢٠٠٤، ثار الشعب الكردي بانتفاضة شعبية ضد نظام البعث في سورية، مطالبًا بالحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية، جُوبه الشعب بالرصاص والقتل والتنكيل والاعتقالات التي طالت حتى من هم دون الثامنة عشر ربيعًا.

تكالبوا على إرادة الشعب وأطفأوا وقود الغضب بمؤامراتهم، وسرعان ما انتهى كل شيء.

في هذه الرواية استخدمت الأسماء لحاجاتٍ روائية لا يمتون إلى الواقع بصلة، حاولت إحياء الشهداء الذين وقعوا ضحايا تلك الانتفاضة ومن تبعهم بسنوات، أحييت أسماءهم احترامًا مني للدماء التي قدموها قربانًا للوطن. ووجب التنويه، أن النظام في تلك الحقبة من الزمن لم يستخدم السلاح الثقيل، كالطيران أو المدفعية، ولم يستخدم الشعب الكردي العنف ولم يرفع السلاح؛ واكتفى بالمظاهرات السلمية، إنما كل ما سيرد في الرواية

وما تحمله المشاهد من محض الخيال ولضرورات روائية.

أسماء الأبطال، هم شهداء مجزرة مدينة عامودا في تاريخ ٢٧/ ٦/ ٢٠١٣، والأسماء الأخرى هم لشهداء انتفاضة ٢٠٠٤، وسيرد في آخر الرواية أسماء كافة الشهداء مع تاريخ استشهادهم.

أما بخصوص الطبيب الذي يرد اسمه في الرواية، دكتور هرانت قرنفليان، فهو لم يشارك بأي عمل لا من قريب ولا من بعيد، إنما احترامًا لما قدمه للإنسانية ورد اسمه كطبيب معالج.

وأخيرًا، أقدم لكم الشعب الكردي بأصالته وحبه وشجاعته وعنفوانه.

تركتُ في عامودا ..
ذكرياتي وأصدقائي وقبري وأحلامي
تركت في عامودا ..
عشقي ودمعتي وطبيبي الذي داواني.
تركتُ فيها كل شيء وسافرت ..
على أملٍ لقاءٍ ثانٍ.

البحر الميت آذار ٢٠١٧

- يا صاحبي أهذي فلسطين التي على مرمى أعيننا؟
- نعم.. إنها فلسطين، تخيّل أن هذا البحر الصغير وحده يمنعنا عنها؛ سيأتي صلاح الدين آخر من بني قومك ويحررها!
- وهل أنت مقتنع بما تقول؛ إن البحر وحده يمنعنا؟ وعن أي صلاح الدين تتكلم إذا لم نستطع تحرير مدينة من بضعة كيلومترات قليلة؟!
إن السماء لم تشأ بعد يا صاحبي، فحين يزول هذا الضباب الذي يحجب عنا الرؤية، ويصبح هذا البحر حلوًا بدلًا من ملوحته وقتها سنمر.
- ومتى ذلك؟ أنت تتكلم عن معجزة!
- حين يُحيى هذا البحر الميت، فسبحان من يُحيي العظام وهي رميم.
- وقع على مسامعي أنك كنتَ محاربًا صنديدًا، قاتلت ببسالة لا قبلها ولا بعدها.. حدثني يا صاحبي، فك قيود الكلمات من فمك، أطلق سراحها.
- لا تثقل عليَ المواجع يا صاحبي لا تثقل، فإن بحتُ عما بداخلي سأموت.. لا تنكش الذاكرة المؤلمة بسؤالاتك.

الفارس الذي تتكلم عنه وقع في الأسر منذ ثلاثة عشر عامًا؛ قاتل جيشًا جرارًا مع بعض صحبه، ولم يستطع أحدٌ أسره، إلا أن امرأةً واحدة فقط رمت عليه أغلال العشق ورمته في قاع البحر.. بحر القهر الذي لا ينشف، ملوحته أشد كثيرًا من ملوحة هذا البحر الذي نقف على شاطئه، مصيره أقسى من مصير بني لوط.. ذنبه أنه عشق، وهل كان العشقُ يومًا ذنبًا ؟

- من أنت؟

- أنا الذي يبكي كل ليلة.. ولا صديقٍ ولا مواسٍ غيرِ الوسادة، أنا الذي طُعِنت ذاكرته ولم يجد من يسعفه.. أنًا الذي دمه يُراق وينزف منذ ثلاثة عشر عامًا ولم يضمد، جرحه يكبر عند شروق كل فجرٍ جديد، ويزدادُ ألمًا كلما حلَّ الليل.. أنا الذي غدا بلا عشقٍ وبلا وطن.

* الليلة وكما باقي الليالي أعود إلى غرفتي القابعة فوق عمارة مؤلفة من خمسة طوابق، لا شيء جديد، فالجدران الرطبة هي هي .. والغرفة هي نفسها بحجمها، فقط تزداد رطوبةً وشيخوخة.. أضع رأسي على الوسادة كما سائر الليالي لأسافر إلى أرض الحنين.

مدينة الربيع.. أرض الحنين

القامشلي ١٢ آذار ٢٠٠٤

يسيران معًا إلى مدينة الحب؛ فواحدٌ يحمل الشر وآخرٌ يحمل الحب والجمال، سائران معًا بقايا من الرياح، ضيفان يقصدان أهل الكرم والجود، مدركان كل الإدراك أن الأبواب ستفتح بوجههما، مرحبين مهللين بهما.

فواحدٌ هو الربيع الآتي بجماله وزينته، بروائح من جنات الرب، والثاني هو الغدر القادم من الجنوب، من غرفٍ مظلمة إلى بلد النور، وما بين الجمال والقبح، قصة حبٍ في قلب معركة.

في يوم ١٢/ ٣/ ٢٠٠٤، اندلعت اشتباكات بين جماهير نادي الجهاد من مدينة القامشلي، ونادي الفتوة من مدينة دير الزور داخل الملعب البلدي، ليقوم الأمن باستخدام الرصاص الحي ضد الجماهير في حادثة مدبرة من قبل الدولة، تبينت ملابساتها فيما بعد، لم تكن المباراة إلا ساحة أعدتها الدولة للنيل من الكرد، وقع على أثرها قتلى وجرحى، وفي يوم ١٣/ ٣/ ٢٠٠٤، ثارت المدينة عن بكرة أبيها لتشييع الشهداء، ولتندلع انتفاضة امتدت حتى العاصمة دمشق.

عامودا ١٣ آذار ٢٠٠٤ الساعة ٩,٤٥ صباحًا

- يادي[١] بدك شي؟
- لا تنسى تجيب اللحمة من عند القصاب..

خرج سعد على بسكليته «بيجو» أزرق اللون إلى العراسا[٢]، كان المكان يبدو هادئًا، ولكن هناك حزن على الوجوه لا يعرف سببه، فهو لم يسمع بشيء، فالعراسا مكانٌ اعتاد سعد على ضجيجه الجميل، أصوات بائعي الخضار، والعتالين، والمتسوقين، وفجأة لاحظ سعد أن العديد من أصحاب المحلات يقفلون محلاتهم.

سأل ما الذي يجري؟ أجابوه أن مجزرةً وقعت في مدينة قامشلو - القامشلي، على يد قوات الأمن، وأن مظاهرةً ستنطلق الآن والكل سيشارك فيها، لم يكذّب سعد العشريني من عمره الخبر فخرج معهم، فالنخوة والشهامة ليست حكرًا على شخص بحد ذاته، إنما ميزة الشعب بأكمله.

تعالت الأصوات بالهتافات ضد الدولة «أزادي أزادي.. حرية حرية»، كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان على مسامع الطغيان، كلمتان كافيتان أن تبتل بهما عين أي شاب يتوق إلى الحرية، فالحرية من المحرمات على هذا الشعب.

بعد ساعة قرر الأهالي التوجه إلى مدينة قامشلو لمؤازرتها، إلا أن قوات الأمن السياسي والعسكري، بدأت بإطلاق الرصاص في الهواء لمنعهم

(١) يادي: أمي
(٢) عراسا: السوق

من مغادرة المدينة، ليعود المتظاهرون إلى المدينة وتصبح ساحاتها مسرح اشتباكات بين المتظاهرين والدولة حتى طفح الكيل، وبلغ السيل الزُبى، هاجم المتظاهرون أفرع الأمن العسكري، السياسي، أمن الدولة، شعبة التجنيد، المخفر، البلدية، وكل مؤسسة تابعة للدولة، وبدأوا شيئًا فشيئًا يحررون المدينة. قُتل على أثر ذلك رئيس المخفر بعد أيام متأثرًا بجراحه، ووقع جرحى من المتظاهرين بسبب إطلاق الرصاص الحي عليهم.

حرائقُ في كل مكان، سيارات الأمن تشتعل بنيران غضب الجماهير، وحرق مقر حزب البعث.. ولكن.. غضبٌ بل نارٌ سيصب على رأس الأهالي جزاء فعلتهم.. فنشوة الانتصار لم تقف عند فض بكارة الدولة بحرق المقرات الأمنية؛ إنما توجّه الناس إلى ساحة الرئيس وقاموا بتحطيم وتكسير تمثال الرئيس السابق حافظ الأسد، على وقع هتافاتٍ مزلزلة، وأهازيج من زغاريد النساء من أسطح المنازل.. وحشودٌ ضخمة في المحيط تبارك وتهلل، في حادثة هي الأولى من نوعها في تاريخ حكم البعث، هرب رئيس الناحية الذي كان يحمل رتبة العقيد، من المدينة مع كافة الضباط والعناصر.

دلبرين [1] في الصف السابع، كان على ناصية الطريق، يراقص جسده الهزيل على الهتافات التي حطمت صنم الجبروت.. شاهد بأم عينه رجال الأمن وهم يهرولون أمام غضب الأحرار.. عاد إلى منزله وهو يصيح بأعلى صوت: مه عامودي حررانت .. حررنا عامودا!

(١) دلبرين: اسم كردي وينقسم إلى قسمين أ: دل : أي القلب، ب: برين: جرح، ومعنى الاسم القلب المجروح أو مكلوم الفؤاد.

لم يكن هذا المراهق البريء يعلم ماذا سيجنون من هذا التحرير الذي يدعيه؟ عامودا ولمدة ثلاثة أيام خالية من الدولة، والأهالي يسيطرون على المدينة ويتظاهرون في الصباح والمساء.

حل المساء..

وعلى دكة[1] المنزل حيث يجلس العجائز ويتبادلون أطراف الحديث، ويختلفون ويتفقون ويتجادلون، ويشربون الشاي.. تلك هي حال أولئك العجائز في كل وقت وحين، عند السلم والحرب، وعند كل مساء. أما اليوم فهم يتذكرون شبابهم أثناء الثورات المتعاقبة على مدار الزمن على القضية الكردية، وهم يرون هؤلاء الشباب بتلك الحمية والشجاعة.

ارتفعت أصوات العجائز على بعضهم بعضًا بطريقة جنونية ليثبت كل واحد منهم أن نظريته السياسية هي الأصح، وقراءته للواقع أدق، لكنهم لا يتركون المطرح وهم متخاصمون، فهم يدركون أكثر من السياسيين والمثقفين، ومن يدعّون التحضر، أن الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية، فسرعان ما يصبّون لأنفسهم الشاي الأسود الخمير، فالشاي خمرة هذا الشعب الكردي، ويعودون إلى رنات مسابحهم الألمانية الملونة بالأصفر والبرتقالي ذات الحجارة الكبيرة.

* شعر سعد بضيق شديد فخرج إلى الحوش لعل النسمات التي تسبق الربيع تنعشه، صعد إلى السطح، وإذ بوالده يجلس وحده شاردًا في عتمة هذا المساء، لا شيء يعكر صفوه سوى المجهول المنتظر، فالربيع سيطل

(١) دكة: من عادة أهالي المنطقة عمومًا والمدن الريفية خصوصًا، وهي عبارة عن صبة طينية على شكل مستطيل أو مربع تستخدم للجلوس والنوم في الصيف.

بجماله ورونقه.

- يابو* .. شو تساوي لحالك؟

- شوف السما كيف صافية، والمدينة هادئة، اسمع ما أحلى صوت زقزقات» الزيز»[1] على الشجر.. هذا اللي بيسموه الهدوء القاتل، أو الهدوء الذي يسبق العاصفة.

- ول ول .. ليش هيك، طول عمر مدينتنا هادئة وهذا جونا وخصوصًا بجو الربيع!

- ابني .. الوضع مختلف، الحكومة ما راح تسكت.

تحمس سعد ليكسر جمود وهدوء والده ليشرح له ماذا فعلوا؟

- شفت شو عملنا فيهم؟

- الأب مقاطعًا ومستهجنًا: لساتك غرّ يا ابني.. ما بتعرف شو يعني كسر تمثال.. لك ابني حافظ الأسد بالنسبة إلهم هو الرب.. والله ليهدوا المدينة على راسنا متل ما عملوا بحماة!

سعد وعلامات الاستغراب بدت على وجهه، وأبدى اهتمامه ليتساءل.

- حماة! ليش شو صار فيها ومتى؟!!

الأب ممتعضًا

- ما قلتلك غرّ، لك ابني أنا خدمت بالجيش ٤ سنوات.. وكانوا أسوأ سنوات حياتي بحماة.

وروى الأب قصته..

---

(١) زيز: حشرة السيكاد من فصيلة المزيزات تصدر أصوات جشاء عند حلول الغسق في فصل الربيع ومنها الكثير في المدينة.

حماة ١٩٨٢

كانت خدمتي في دمشق، وكنا نسمع في قطعتنا العسكرية عن مشاكل بين الدولة وجماعة الإخوان المسلمين، وكانوا يقولون لنا إن هؤلاء خونة وجواسيس الأمبريالية والصهيونية العالمية، وفي أواخر شهر كانون الثاني، أتت الأوامر بنقلنا إلى حماة، لم نكن نعلم ما الذي يجري؟ وكما تعلم يا بني بلادنا تعيش على الإشاعة، ومن خلال الإشاعات وصل إلى مسامعنا أن جماعة الإخوان المسلمين، أعلنوا العصيان ضد حافظ الأسد، واستولوا على مدينة حماة، كنتُ أتبع إلى سرايا الدفاع التي كان يقودها آنذاك رفعت الأسد شقيق حافظ الأسد، وهي الآن تسمى بالفرقة الرابعة بقيادة ماهر الأسد أيضًا شقيق الرئيس ولكن بشار.. أبناء حافظ الأسد.

وبدأ الجيش بمحاصرة المدينة، وفي يوم ٢ شباط، بدأ الطيران والمدفعية بالقصف العنيف. بُني.. لم أكن أصدق ما أرى، شعرت أنني على جبهة الجولان نقصف الصهاينة لتحرير أرضنا، بُني.. ما شاهدته لا يمكن للعقل تصديقه.. وبعدها اقتحم الجيش المدينة وبدأ القتل الجماعي، نساء اغتصبن أمام أعين الرجال، وكان العناصر يتناوبون على المرأة الواحدة، وهناك عناصر قطعوا أيادي نساء مقتولة لسحب الذهب من أيديهن، وهناك عنصر لا أنساه، رفس امرأة حامل وشق بطنها، وهو يردد: أحسن ما يولد ويطلع إخونجي.

كنت من بين دوريات الاقتحام، نقتحم المنازل بحثًا عن المسلحين، وفي إحدى المرات، قام رئيس الدورية وهو من مدينة القرداحة، بجمع

كل رجال الحي عند الحائط وكان من بينهم عسكري برتبة مساعد أول، عرّف بنفسه، وإذ برئيس الدورية يرد عليه: شي بخري ما هنت من حماة يا كّر .. وقام بقتله. وبدأ يطلق النار على كل الرجال، منظر لا يمكن وصفه.

- أتعرف يا بُني لماذا بقيت أخدم في الجيش ٤ سنوات؟

لأن رئيس الدورية شاهدني أبكي، فاتهمني بالتعاطف، لا أدري لماذا لم يقتلني؟ ولكنه أمر بحبسي في السجن الانفرادي، وكنت أتبول وأقضي حاجتي بعلبة صغيرة لمدة شهرين، كنتُ سأفقد أعصابي، وكانوا يضعون طعامي بصحن يبزق عليه الضابط، ولكن كنت آكل حتى لا أموت جوعًا.. وبعدها قرر تمديد مدة خدمتي عقابًا لي.

تغيرت ملامح وجه سعد، وهو لا يصدق ما يسمعه، ليسأل متعجبًا:

- يا الله وليش ما سمعنا عن هي المجازر؟

- ما في إعلام .. وإذا عملوا شي بعامودا ما حدا راح يسمع فينا أبدًا.

المواجهة هي الحل للحفاظ على الشرف

٢٠٠٤/٣/١٨

كان شهر آذار متقلب المزاج؛ فإذا كانت الأجواء جيدة ومشمسة، خرج الأهالي يتمشون على الطريق الزراعي، ويتنزهون بين البساتين، وكان العشاق هم أكثر استغلالاً لهذا الوقت، فرؤية الأزهار المفترشة مغرية للغاية، وإذا أسدلت الشمس ستارها، جلست النسوة عند الأبواب يلهون بقرمشة البزر وشرب الشاي، الخمر المحلل، وحكايات لا تنتهي وغالبًا ما تكون حكاياتهم هي نميمة على الجارات الغائبات.

لا شيء يعكر صفوهن سوى انتشار الجيش والدوريات المارة في الشوارع، يوم الأمس دخل الجيش المدينة وعاد العناصر الذين هربوا والضباط، ونشر الجيش دورياته في الشوارع، وهدوءٌ حذر.

ضجرت في السوق ومن أحاديث غلاء الأسعار، انتهيت من أكل لحم العجين عند العم شكري في فرنه الحجري ذي الحجارة الحمراء، فهو فنانٌ ماهر بصناعة لحم العجين، لا أدري ما هي الخلطة التي يعتمدها، ولكن أنا متأكدٌ أن خلطته تتكون من طيبة قلبه وشهامته ونظافة عمله وخلقه

الحسن.

خرجت من عراسا متوجهًا للمنزل، يقع عراسا في قلب مدينة عامودا، عبارة عن مربع ينقسم إلى قسمين فقط وله ثلاثة مداخل، ومدخل صغير جدًا من عند محلات تجار الحبوب الزراعية. كان هناك دورية تمشي أمامي عبارة عن عنصرين، يرتديان البدلة الخضراء ويضعان على خصريهما جعبة فيها أسلحتهما ولا يحملها الجنود إلا أثناء الحروب، فهي عبارة عن جيوب فيها أمشاط من ذخيرة الرشاشات الروسية التي على كتفهم، وقنابل يدوية، وقع على مسامعي حديثهما.

- والله البنت حلوة .. خلينا نرجع!

أقلقني هذا الحديث، تراجعتُ قليلاً حتى لا يلاحظاني؛ وبدأت أسير خلفهما حتى أعرف مبتغاهما، توجها إلى الشارع القريب من الجامع الكبير، شارع سعد الله الجابري، وبدآ يتغامزان، شاهدتُ بعض النساء يجلسن عند الباب، فهمت أنهما يتحرشان بهن، بقيت على مقربة منهما، وإذ بعنصر يقترح على صديقه.. شو رأيك نجي بنص الليل؟

فهمت القصة، ارتبكت .. لم أعد أعرف ماذا عليّ فعله، وبدا إلى ذهني أنهما سيأتيان في الليل لاغتصاب الفتاة؛ ابتعدت وجلست في زاوية الشارع والحيرة ستقتلني، ماذا أفعل؟ لا أدري؛ كل الذي أعرفه، لا ديني ولا عاداتي ولا تقاليدي تسمح لي بتجاهل الموضوع، ولكن كيف؟

بل السؤال الذي يراود نفسه، كيف سيدخلان المنزل؟ ألا يخشيان من والدها وإخوتها، ألا يخشيان أن يستيقظ الجيران على أصوات النداء.. هل هؤلاء حمقى؟

بدأ الشك يتسرب إلى نفسي.

بدأت الشمس بالمغيب والشوارع تصبح أكثر هدوءًا، ولكن هناك ضجيج في داخلي، عدت إلى المنزل وأنا مشغول البال.. جلست في الغرفة الطينية الصغيرة حيث يجتمع الأهل جميعهم، كانوا يتحدثون ولكني لستُ معهم، كانت أمي تعد وجبة العشاء، لكني خرجت مسرعًا، آخر ما سمعته صوت أمي وهي تنادي علي.. وين رايح؟ الأكل صار جاهز!

وصلت إلى الحارة، وبدأت أسير من أولها حتى آخرها.. لا أعرف ماذا سأفعل تحديدًا؟ ولكن أدرك أمرًا واحدًا أن المواجهة هي الحل للحفاظ على الشرف، كنت أتوارى قليلاً عن الأنظار، فإذا رأتني دورية فسيتم اعتقالي بحجة الاشتباه في هذه الظروف الأمنية التي نعيشها، بدا الظلام دامسًا، وقفت بزاوية حيث لا يراني أحد، وعيناي مثل عيني ذئب تحدقان بحذر شديد نحو الباب، يقع المنزل أمام الجامع الكبير في زاوية شارعين، جداره الخلفي يقع بمواجهة الجامع، وبابه الرئيسي يطل على الشارع المؤدي إلى السوق، بابه حديدي من النوع الرديء، أحمر اللون. السؤال ذاته يراودني، كيف سيدخلان المنزل ويرتكبان تلك الجريمة الشنيعة، ولا يحسبان أي حساب للرجال، هل استجابتهما لنداء اللذات يفقدهما عقلهما، ألا يعرفان الكرد؟ إنهم سيواجهون دولة الأسد بأكملها حفاظًا على شرفهم! الوقت يمر وأزداد توترًا، أتساءل ماذا سأفعل إذا كانا مسلحين؟

سمعت صوتًا قادمًا من خلفي، ركضت إلى زاوية منزل مجاور لأحتمي بالدرج حتى لا ألفت النظر، لم ألاحظ من القادم، فالوقت متأخر جدًا والظلام حالك، فالحارة تفتقر إلى الإنارة، وغالبًا جميع شوارع المدينة هكذا

باستثناء الشارع العام الرئيسي، هناك بعض المنازل يضعون أحيانًا لمبة عند الباب موصولة بكهرباء المنزل. مر الطيف بسلام، عرفت أنه عابر سبيل، جلست على الأرض وبدأ النعاس ينال مني، بعد صولات وجولات لمقاومة النعاس، عدت إلى المنزل، كانت أمي بانتظاري، قلقة جدًا ومحمرة العينين.

- ابني وين كنت لحد هلا.. أبوك راح نام وهو خايف عليك؟

- شو بكي هي أول مرة بتأخر برات البيت؟ كنت عند نادر عم نلعب الشدة.

- هلا وقت الشدة بهي الظروف. وهي غاضبة من اللامبالاة

- حصل خير.. قديش الساعة؟

- الساعة ٣ يا أفندي بعد نص الليل.

لن يأتيا .. يستحيل، فالوقت تأخر جدًا، ذهبت إلى النوم بعد أن أنهكني التعب، فالانتظار يقتل.

في اليوم الثاني تأخرت بالصحو ليس كعادتي، فأنا أستيقظ منذ الفجر، وأذهب إلى الأرض مع نادر صديق طفولتي، كلنا نعمل عند ابن خالته منذ فترة، بعد الحصار الذي عشناه وارتفاع الأسعار، أضطررت إلى العمل في الحقل.

واليوم أيضًا غالبًا لن أذهب، سيقلق نادر من غيابي.

توجهت إلى ذاك الحي مجددًا، وكان لابد من البحث عن طريقة لأعرف القصة.. وجدتها.

طرقت باب الجيران، فتحت امرأة الباب، في الأربعين من العمر، هكذا

قدرت، كانت ترتدي فستانًا فضفاضًا، لونه سماوي فاتح يميل إلى الفضي، وترتدي الحجاب «هبري أبيض وأسود وأحمر» كما نسميه نحن الكرد، على رأسها، دائرية الرأس شديدة البياض، لها عينان زرقاوان كبيرتان. كانت علامات الاستغراب بادية على وجهها كونها لا تعرفني.. بادرتها بالسؤال:

- خالتي أنا طرقت هداك الباب (بإشارة إلى المنزل المقصود)، وما حدا فتح لي بتعرفي وين بكونوا؟!

- والله ما بعرف بس وين بدهم يروحوا، ما بيطلعوا من البيت، غريبة، بس شو بدك منهم ابني؟

شعرت أني أوقعت نفسي في ورطة، ففضول النساء سيفرض عليها أن تطرح عليّ مئة سؤال لتعرف ماذا أريد، حتى تستغلها وتجعل منها حديثًا لنساء الحارة، ليس هناك ما يسمى بالخصوصية عند النساء في بلدي. في عصفٍ ذهني وجدت حجتي.

- والله أجيت بدي زور صديقي وعم دق الباب وما فتحوا!

- صديق شو لاو[1] لتكون مخربط، هذا البيت ما فيو رجال!

- كيف؟ أنا صديقي دلني على هذا العنوان؟

- ابني أنت مخربط هذا البيت لجارتنا وبنتها وبس.

- أي شكرًا بلكي أنا مخربط.

بدأت الأمور تتضح لي، المنزل لامرأة وابنتها، وهؤلاء القذرون سيستغلون ذلك، ولكن لماذا لم يأتوا بالأمس؟ بينما أسير وأنا شارد الذهن، وجدت نفسي في منتصف السوق- عراسا، كان على يميني محل يبيع

(١) لاو : مصطلح كردي تستخدمه النساء.

أدوات حادة، دخلت واشتريت سكينًا «موس»، متجاهلاً ماذا سأفعل به.

الحل..

قررت الذهاب إلى ذاك المنزل؛ السبيل الوحيد لمساعدتهم، أن أضع الأم بالصورة، لن أستطيع أن أتصدى لهم وحدي وهم مسلحون وهذا غالب الظن. وقفت أمام الباب واستجمعت قواي وأخذت نفسًا عميقًا وطرقت الباب، خرجت فتاة لم تبلغ العشرين بعد، ذات قوام متوسط، رشيقة، بيضاء الوجه، رقيقة الشفتين، مرتدية غطاءً بسيطًا علّى رأسها، بينما أنا أنظر إليها مسائلاً نفسي أهذه البريئة التي يريدون اغتصابها؟ لم أكن أستطيع حتى أن أتصور، أيقظتني من شرود ذهني.

- مين أنت؟

- أمك بالبيت!

- شو بدك فيها ومين أحكيلها؟

- انت بس ناديها وهي بتعرفني.

نادت الفتاة من عند الباب على والدتها.. لتخبرها أن غريبًا يريد أن يراها، أتت الأم وحدقت بي، كانت صلبة البنيان، أربعينية الربيع، يداها تشهد على أمومتها المعذبة وعلى التضحيات في سبيل نيل عيش كريم، تلبس كما سائر نساء بلدي.. لباسًا فضفاضًا من الفلكلور الكردي، بني اللون مع خطوط سوداء مرسومة على شكل مثلثات، وتضع «هبري» على رأسها.

- تفضل ابني شو بدك؟

- خالتي أمي بعتتني لعندك حتى خبرك شغلة مهمة، بس لازم نكون

لوحدنا، وأكيد مو قدام البيت، ممكن نحكي بالحوش؟

- أي أهلاً وسهلاً تفضل ابني البيت بيتك.

دخلت المنزل، كان المنزل صغيرًا، عبارة عن غرفتين متلاصقتين، بينهما باب داخلي، ولكل غرفة باب يطل على الحوش، ولكل غرفة نافذة واحدة، هناك ممر ضيق من الباب الخارجي يؤدي إلى الحوش، وكان التواليت عند الباب الخارجي، وعلى اليمين مطبخ منعزل عن الغرف، وبجانبه درج يؤدي إلى سطح المنزل، وكان الحوش عبارة عن ٣ أمتار في ٤ أمتار حسب تقديري، وحائطه سهل التسلق. طلبت الأم من ابنتها أن تدخل إلى الغرفة، وبدأت بالحديث بصوت منخفض، لأني على يقين أن الفتاة خلف النافذة ترمي مسامعها إلينا، كما سائر نساء المدينة، فالفضول يكاد يقتلهن.

- خالتي بدي أحكيلك شغلة بس رجاءً خليكي هادية لحتى تساعديني وأساعدك.

- شو بك وطيت صوتك .. خير ابني

- لحتى بنتك ما تسمعنا.

رويت على مسامعها القصة.. قاطعتني الأم.

- هدول التنين مبارح ما خلونا نتهنى بالقعدة برات البيت.

- أي هدول هني.. وبعدين هني مسلحين وبيقدروا يطلقوا النار من غير ما حدا يحاسبهم.

- الله يرضى عليك ويخليك لأمك.. بس ابني لو هني زلام قليلين الشرف يجو لأمسح الأرض فيهم.

- خالتي أهم شي بنتك ما تعرف، وأنا عند المسا راح أجي لأطلع فوق

السطح، معي سكين، إذا أجو راح نصطادهم، وإذا ما أجو بكونوا كفو بلاهم عنا.. وهلا لازم أروح لحتى بنتك ما تحس بشي.

خرجت من منزلهم والأم تدعو لي.. لم تسألني عن اسمي ولم أسألها أنا عن اسمها، لا أدري لماذا؟ ربما أن الأمر جلل.

حل المساء والشارع بدأ يخلو من المارة، بدت الأجواء صافية والغيوم تلاشت، ونبضات قلبي وحدها تتسارع، والجبين يعرق في هذا الجو البارد نسبيًا.

كانت الأم قد شقت طرف الباب لي بعد صلاة العِشاء، دخلت بشكل سري وصعدت فوق السطح، كانت الأم تجلس عند الشباك في العتمة بقلق وحذر وهي تنظر نحو الباب، ولوّحت لي بقطعة حديد بيدها، ابتسمت وبدأت المراقبة. حتى ظهر العنصران.

سمعت صوت أحد العساكر يسأل صاحبه: أخوي كيف راح ندخل؟

- هلا بنط من فوق الحيط .. بدي أكلها أكل.

وبدآ يتضاحكان، على الفور تداركت الموقف ونزلت بشكل هادئ من فوق السطح وأعطيت إشارة للأم بيدي أنهما سينزلان من فوق الحائط، ولحسن الحظ كانت الفتاة نائمة، وهذا أمرٌ طبيعي، فحياة المدن الريفية خالية من الرفاهية، وحياتهم روتينية بشكل كبير جدًا، بعد صلاة العِشاء يلجأ الجميع إلى الفراش، فمعظم أبناء المدينة يعملون في الزراعة، والمزارع يستيقظ مع صيحة الديك الأولى.

اختبأت تحت الدرج، قفز العنصران إلى الحوش، وسارا في العتمة نحو الباب، أصبحت خلفهما تمامًا، مد العنصر الأمامي يده وفتح الباب،

خرجت الأم أمامه، وضربته على الفور بقطعة الحديد على رأسه، تراجع العنصر الثاني إلى الخلف، باغتّه ووضعت يدي على فمه وبدأت بطعنه في الكبد عدة طعنات، لدرجة أني نسيت كم عددها، كنت أشعر إذا أفلت العنصر من يدي سيلتف ويقتلني، وكانت الأم قد أجهزت على العنصر الآخر بضربات أخرى.

كانت امرأة بألف رجل، دافعت عن شرفها بكل بسالة.. أيقظتني من غفوتي بسؤالها.

- شو بدنا نعمل بها الأنجاس لك ابني؟

- والله ما بعرف.. انتي شلحيهم السلاح وهذا اللي على خصرهم - جعبة السلاح- ولازم ننظف المكان من الدم قبل ما تحس بنتك.

- أنا بنظف ما تاكل هم بس شو راح نعمل بالجثث؟

خطر ببالي فكرة.

- عندك عرباية؟ راح نرميهم بالچم. الچم يعني النهر، يوجد في مدينة عامودا مجرى نهر كان يسمى بنهر الخنزير، ومجراه اليوم يقسم المدينة إلى قسمين، ومؤخرًا تم بناء سد (سقف) فوق النهر، ويوجد جسر للسيارات يربط طرفي المدينة، تم وضع السد (السقف) لمنع تدفق المياه الناتجة عن الفيضانات في الشتاء، ولحسن حظي إن الچم كان على مسافة قريبة جدًا من المنزل. لكن سأحملهم فوق ظهري، لعدم توفر أي وسيلة لنقلهم.

- بدي أحملهم فوق ظهري واحد واحد يلعن شرفهم، انتِ اطلعي فوق السطح شوفي إذا في حدا بالشارع.

- ماشي، بس خليني جيب البطانيات لحتى نلفهم فيها.

أتت بالبطانيات وتم وضع الجثة الأولى فيها ولفها حتى لا يلاحظنا أحد، صعدت الأم فوق السطح لتستكشف الطريق، كان الشارع خاليًا كما العادة، كانت الساعة متجاوزة الثانية عشر، والظلام دامس، وضعت الجثة فوق كتفي، كان ثقيلاً، خرجت وكنت أخشى أن يراني أحد، لكن كان الجم قريبًا ولله الحمد بمسافة ١٥٠ مترًا، كنت أنظر يمينًا ويسارًا من الاحتياط، نزلت تحت الجسر وسرت بمسافة ١٠٠ متر بالعمق، كان المكان مظلمًا وموحشًا جدًا، كان قلبي ينبض خوفًا، كيف لا وقصص الجن من الأحاديث التي لا يتوقف الشعب الكردي عن مداولتها أبدًا.

خرجت من المكان على وجه السرعة وأخذت نفسًا عميقًا، عُدتُ لجلب الجثة الثانية بنفس الطريقة، وضعت الجثة الثانية وخرجت وسرت قليلاً، كنت ألهث من شدة التعب ونبضات قلبي تتسارع، تصببت عرقًا، جلست على الرصيف لألتقط أنفاسي ومسحت العرق عن جبيني، ونظرت من خلفي لأتفقد الشارع، ولاحظت الأم تقف على السطح تناظرني وتراقب الحي.. وأنا على يقين أنها كانت تصلي لأجلي.. أكملت مسيري، وصلت أخيرًا وقمت برمي الجثة الثانية عند صديقه ليلهوان بنيران لذاتهما في عقر جهنم، عدت إلى الأم وطلبت منها أن تضع الأسلحة في كيس من الخيش.. ودعتها، قبلتني من رأسي ودعت لي أجمل الدعوات.. وخرجت.

للوهلة الأولى وقفت في منتصف الشارع.. يا إلهي لقد قتلت! لم أستوعب ما حصل وكأني تصرفت بدون وعي، لم أكن يومًا أتخيل أني سأقتل، كأني الآن أفقت من غفوتي، ما هذا الذي بيدي؟.. سلاح.. يا الله ما هذه الليلة، كيف أمشي بالشارع ومعي أسلحة في هذا الوقت المتأخر من

الليل وفي هذه الظروف الأمنية؟ كنت في حيرة من أمري، إلى أين سآخذ السلاح؟ إلى المنزل؟ لا.... فأمي الآن بانتظاري أنا متأكد، ولن أنتهي من تحقيقاتها، فإن لم ينتبه أحد على كل الذي جرى، ستستيقظ عامودا كلها على صوت أمي، وحدها ستفضح أمري دون أن تدرك. هل أحفر حفرة في الأرض وأدفن السلاح.. أين أسير؟ لا أعرف.. يا الله ما العمل؟ كنت أتمشى على أطراف النهر- چم، وجدت نفسي على الجانب الخلفي من منزل دكتور هرانت، حديقة منزله مطله على النهر، هو دكتور أرمني من مدينة قامشلو- القامشلي، عيادته في عامودا منذ سنوات طويلة جدًا ويعيش وحده، لن يخطر ببال أحد أني سأخبئ السلاح في منزله، وهو نادرًا ما ينام في عامودا والجميع يعرف ذلك، قمت برمي السلاح إلى الحديقة، وذهبت إلى الطرف الآخر من الشارع حيث مدخل المنزل، وإذ بسيارته واقفة أمام المنزل، إذن هو هنا ولم يذهب إلى القامشلي، بدأت بطرق الباب، حتى لا يتفاجأ الدكتور بالسلاح عند الصباح ستكون كارثة، كان الدكتور من القلائل بل من النادرين في عامودا الذي يستخدمون جهاز الانترفون.. سمعت صوته يسأل من؟ خرج محمر العينين.

دكتور: سعد ! شو جابك بهالوقت؟

- دكتور خلينا ندخل جوا وبنحكي.

دخلت إلى المنزل، منزله كبير له طابق أرضي نسميه باللهجة المحلية «قبو»، وطابق علوي واسع، وحديقة خلفية مكونة من شجر الفواكه، يطل على النهر بشكل مباشر، ومدخل المنزل يقع في الشارع الآخر المؤدي إلى جنوب المدينة تجاه السوق والجامع الكبير. بيته من الطراز الحديث في

المدينة.

لم يكن الدكتور نائمًا، بل كان يسهر وحده كما عادته والعرق وحده كان يؤنسه، فله عادة قبل أن ينام يحتسي كأسًا واحدة فقط من العرق، ولكن إذا كان مزاجه سيئًا يحتسي أكثر.

- أنا آسف دكتور لأني أجيت بوقت متأخر وخربت عليك سهرتك.

- مو مشكلة بس ليش هيك لونك مخطوف؟

- دقيقة.

خرجت إلى الحديقة الخلفية، وجدت الكيس بين الشجر وأتيت به إلى الصالون حيث ينتظرني الدكتور، وفتحت الكيس وأخرجت السلاح أمامه، رشاشين و٤ قنابل يدوية و٦ مخازن رصاص.

تعجب الدكتور مما رأى، بل بان الاحمرار على وجهه، وكأن السُكر نال منه، ولكنه لم يحتسِ أكثر من كأس، ومنذ متى كانت الكأس تسكر!

- شو هاد؟!

- قتلت ٢ من عساكر الجيش.

نظر إليّ الدكتور وطأطأ رأسه قليلاً ونظر من خلف نظارته الطبية وأطلق ضحكته.

كان قصير القامة مليء الجسد، حليق اللحية لا شارب له، أبيض الشعر، وكان يمشط شعره إلى الخلف، كان وسيمًا، يمتلك ابتسامة ساحرة يعرفها كل من رآه، يسمونه طبيب الفقراء، فالمرضى في بلادي يموتون بسبب غلاء أجور الأطباء لا من المرض، لكنه كان عكس كل الأطباء، يعطي الفقير من عنده ويداويه، عرفته المدينة منذ السبعينيات من القرن

الماضي، وكل القرى المجاورة، كانوا يسمونه حفيد النبي عيسى لإنسانيته.

بعد أن انتهى من ضحكته، وأخذ نفسًا: أنا شربت وأنت سكرت!!

– والله بحكي جد .. بس ليش أجيت لعندك ما بعرف!

أدرك دكتور هرانت أن الموضوع بغاية الجدية، وأني لا أمزح.. ليش قتلت؟

جلست على الكرسي واسترخيت ورويت على مسامعه ما حصل معي.

– شو بدك تعمل هلا؟

– ما بعرف.. بس بعرف أنو عندك «قبو»، بدي حط السلاح بالقبو حتى نشوف بعدين شو بدنا نساوي.

نمت ليلتها في منزل الدكتور، استسلمت للنوم لعل الأحلام تكون أكثر راحة.

أنا سعد كنتُ أحلم أن أصبح محاميًا لأدافع عن المظلومين أمام عدالة القضاء، لكن الظروف المادية وقفت بيني وبين طموحي، لكنني اليوم قدمت مرافعةً عن امرأة وابنتها، وكللت القضية بالنصر، أنا سعد نذرتُ روحي للأرض المعذبة.

عمارة السوريين.. آهات المغتربين

عمان / آذار ٢٠١٧

استيقظت في الصباح، لا شيء جديدًا في روتين حياتي، وسادتي تشهد على آهاتي، تشهد على مأساتي، تشهد على قهري. يقولون كلام الليل يمحوه النهار، فلماذا دموع الليل تبلل وسادتي؟

أعيش في عمارة فيها مواساتي، وفيها كل ما ينكش ذاكرتي.. ذاكرة الوطن المعذب.

في الطابق الرابع، يعيش أبو شام مع عائلته، رجلٌ في الستين من عمره، من دمشق منطقة الميدان، طويل القامة، بدين الجسد، ثقيل الحركة والكلام، على وجهه مآسي الشعب السوري، أصلع الرأس، تقف بعض الشعيرات البيض على جانبي رأسه، شاهدٌ على ذاكرة الوطن.. على مرارة الزمن.

في الطابق الثالث، شابان تركا مدينتهما حمص بعد مجزرة الساعة في نيسان ٢٠١١، فمن أمعن النظر في عينيهما سيجد قهرًا، والكثير من الدماء، ولا شيء غير الدماء، وبعض صيحات الحرية التي بقيت عالقة في

حلوقهم، ربط لسانهم من شدة الخوف.

وهناك أيضًا عدة فتيات يعشن معًا، من دمشق، النرجس والجوري والياسمين والنارنج والفل في غرفة واحدة، عبق الشام بحله وترحاله، لكن قلبي لا يحتمل عشقًا آخر.. فأنا مازلتُ أسيرًا.

عند المساء نجتمع ونتسامر ونستمع إلى أحايث العم أبي شام.. ويومًا سألته كيف خسرنا الجولان؟

شد قبضته على عكازته، دمعت عيناه، وقال: لك عمي لو خسرنا الحرب لكنت قلت هذا قضاء الله وقدره، والحرب سجال، بس نحن بعنا أرضنا بيع. وروى على مسامعنا:

- كنتُ جنديًا في الجيش السوري، كانت خدمتي في القنيطرة، وعندما اندلعت الحرب عام ١٩٦٧، كنا على هضبة الجولان، لم يكن العدو يستطيع الوصول إلينا، فنحن كنا في منطقة عالية صعبة المنال، وكان العدو مكشوفًا لنا، بأسلحتنا الروسية المهترئة «رشاش» كنا نصد العدو ونجبره على التراجع، بل كنا نستطيع أن نتقدم، كان معنا ضابط برتبة ملازم أول قائد دوريتنا، تكلم أمامنا عبر اللاسلكي إلى السلطات، والحماس يدب بجسمه ويملأ روحه، سيدي. العدو لن يستطيع أن يصمد أمامنا، بانتظار أوامركم، فطريق القدس سالكٌ. يا الله كم كان لكلماته وقعٌ على معنوياتنا، هل تعرف ماذا يعني أن طريق القدس سالك؟

شد العجوز على يده وأغمض عينيه والدموع تخون عمره، واستطرد: كان العدو جبانًا، كان يخشى خياله، أتتنا الأوامر بالانسحاب.. تخيل نقول لهم طريق القدس سالك، وهم يقولون سقطت الجولان، انسحبوا!

لقد باع حافظ الأسد وزير الدفاع آنذاك إرث أجدادنا يا بني، باع الجولان ليربح رئاسة سورية.

رفض الملازم أول الأوامر، وبدأ يطلق النار على العدو حتى استشهد، سقى تراب الوطن بدمه، كان شجاعًا، أما نحن فكنا جبناء، خفنا من عصيان الأوامر العسكرية وتراجعنا، وبعنا الجولان مع حافظ الأسد.

وأنا يا عماه .. لا أدري إن كنتُ قد جبُنت أم أجبرت على بيع الوطن ؟ آه يا عماه آه.

الهدوء الذي سبق العاصفة

عامودا / آذار ٢٠٠٤

مرت الأيام الثلاثة بكل هدوء، وبدون أي ضجيج يذكر، سرعان ما انقلبت الآية، وصل إلى أهالي عامودا أن الفرقة الرابعة بقيادة ماهر الأسد شقيق الرئيس دخلت محافظة الحسكة ووجهتهم مدينتي القامشلي وعامودا. بدأ الأمن المنسحب من المدينة يعيد تجمعاته ليدخلوا مع الجيش، دخل الجيش إلى عامودا وقاموا بتطويقها بشكل كامل، والفرقة الرابعة التي يقودها العقيد ماهر الأسد أقسى وأقذر الفرق العسكرية في سورية.

خرج أهالي المدينة بمظاهرة متحدين الجيش، لكن وجهاء المدينة وشيوخها تدخلوا لتهدئة الشباب الثائر خشية من عواقب وخيمة، فالجميع يعرف قذارة وسوء هذه الفرقة، والصيت السيىء الذي يتحلى به ماهر الأسد، قيل لهم إن ماهر أتى شخصيًا قاصدًا مدينة عامودا بسبب كسر تمثال والده كظاهرة هي الأولى من نوعها، حقدٌ وأي حقد هو قادم.

اقتحم الجيش المدينة بعد تطويقها وفرض الحصار عليها، عاد الأمن المنسحب وعلى رأسهم مدير الناحية المهزوم ومعه كامل الصلاحيات

باستخدام القوة المفرطة بحق المتظاهرين، شن مدير الناحية حملة اعتقالات واسعة لتشمل كل ذكر ومن هو فوق السادسة عشر إلى ما شاء.

سورية ومنذ استلام الأسد الأب تُحكم تحت قانون الطوارئ، زاد الخناق على المدينة وحاصرها الجيش من الجهات الثلاث، للمدينة ثلاثة مداخل، يحيطها من الغرب مدينة الدرباسية بـ٢٦ كيلو متر، ومن الجنوب مدينة الحسكة ٨٠ كيلو متر مركز المحافظة، ومن الشرق مدينة قامشلو- القامشلي بـ ٣٠ كيلو متر وتتبعها عامودا إداريًا، ومن الشمال الحدود التركية وجبال طوروس والتي تبعد عن المدينة قرابة ٢ كيلو متر.

يبلغ عدد سكان المدينة خمسين ألف نسمة، يتبعها مئة وستون قرية وتعتبر عامودا مركز الناحية، وعدد سكانها مئة وخمسين ألف نسمة، يعمل أغلب السكان في الزراعة، وبعضهم يعمل بالحرف المهنية والتجارة وتربية المواشي.

تم منع الدخول والخروج من المدينة بأية طريقة، وتم وقف حركة التجارة وفرض حظر التجول بعد صلاة المغرب، وكان أغلب الشباب والرجال يتوارون عن الأنظار.

لسعد أصدقاء مقربون منه وأقربهم نادر، صديق الطفولة والدراسة. من فوق سطح المنزل سرح الصديقان بمجريات الأوضاع، وروى سعد على مسامع صديقه ما سمعه من والده عن مدينة حماة، والخوف من تصعيد الموقف، لكن البحث عن العمل في هذه الظروف أخذهم بعيدًا عن أحداث المدينة.

سعد: هلا المهم نلاقي الشغل!

- بشرفي معك حق.. اليوم نزلت على العراسا، أغلب المحلات مسكرة ياو [1]، القصاب، محلات الخضار، العتالة قاعدين بزاوية السوق ما عم يشتغلوا شي، وبس يسمعوا صوت دورية شرطة بيهربوا.

- شو بدنا بهالقصة هلا.. بدنا شي شغلة نشتغلها شو ما كانت المهم نطالع قرشين.

نادر: يول[2] صحيح ابن خالتي أحمد، عم يزرع الأرض وطلب مني أنزل معو .. من كم يوم ما نزلت!

- ليش يول .. أحمق شي؟

نادر: ياو بدي قوم من صلاة الصبح لعند المغرب، بعدين شغلنا نعبي كياس صغيرة بالتراب مشان نحط فيها بعدين بذرة الكوسا، وكل ١٠٠ حبة بعشر ليرات!!

- لك أي صحيح قليل بس أقلها الواحد بيشتغل وبنكون بين الأراضي طول النهار وبعيدين عن عيون الأمن والمخبرين.

* * *

كنا نجلس في المنزل نتابع مسلسل السهرة، هذا هو الطقس اليومي في حياة كل أبناء المنطقة، القليل من الأهالي من يمتلكون أجهزة الستالايت، ترفيهنا الوحيد القناة الأرضية، كان تلفازنا ذو الصندوق الأحمر، شاشته أبيض وأسود، ووسيلة نقل المحطات عبارة عن مؤشر يصدر أصواتًا «طق طق»، تبدأ السهرة من الساعة الثامنة والنصف مساءً، يجتمع جميع

(١) ياو: مصطلح كردي يتداوله الكرد وتحديداً أهالي مدينة قامشلو-القامشلي، معناها: يا زلمة.

(٢) يول: مصطلح متداول بمعنى ولكَ.

أفراد العائلة أمام التلفاز، يتكئ أبي على مخدته في زاويته المعهودة، ونحن نجلس القرفصاء أمام الشاشة، تبدأ نشرة الأخبار يتابعها أبي بكل شغف، لا شيء في الأخبار عن مدينته رغم تواجد الأمن والجيش والاعتقالات والحصار الذي نعيشه، فنشرتنا تنقل لنا عن فلسطين والعراق ومسيرة العطاء التي يديرها الرئيس، عند الساعة التاسعة تبدأ النشرة الاقتصادية، وهي النشرة الأكثر ثقلاً على قلوبنا، وبعدها النشرة الرياضية التي يذيعها إياد ناصر، والنشرة الأخيرة هي النشرة الجوية التي يذيعها عدنان حمدان، غيوم وأجواء مشمسة، ولكنهم لا يذكرون الرياح التي تعصف بنا أو التي ستعصفنا. والنشرات الثلاث خلال ربع الساعة، وقبل بدء المسلسل عند الساعة التاسعة والنصف، كانت القناة تبث الإعلانات، كم كنا نتذمر من هذه الإعلانات، ولكن قبل كل ذلك هناك مهمة روتينية علينا القيام بها حتى نحظى بمشاهدة المسلسل، تلفازنا من الطراز القديم، الصورة لا تكون صافية إلا إذا كان الأنتيل في الاتجاه الصحيح، وهذه المهمة أتولاها أنا رغمًا عني، يقف أبي عند الشباك، وأخرج أنا إلى الحوش لأدير الأنتيل حتى يصيحوا أن الصورة أتت وباتت واضحة.. عندما كنتُ صغيرًا كنت أكره هذه المهمة وبشدة، ولكن لم أكن أتجرأ على البوح أو أبين الاعتراض أمام والدي، كانت يداي الصغيرتان تتعبان لأني ببعض الأحيان كنت أبقى لمدة ربع ساعة، وأبي يصيح بي، وتحديدًا في الشتاء، كان حديد الأنتيل باردًا للغاية، كنت أدعو ربي أن يعيد الصورة بأسرع وقت ممكن، هذا هو روتين حياة مئات الآلاف من أبناء المنطقة، فقط يوم الخميس لا يتم عرض المسلسل، إنما كان يتم عرض برنامج ما يطلبه الجمهور، تقدمه أم عمار

المذيعة ماريا ديب، كان أيضًا يومًا جميلًا نستمع من خلاله إلى الأغاني.

اليوم خرجت كما العادة لضبط إرسال الأنتيل، أنادي: زبطت؟ وهم يردون: لسه!

وفجأة سمعت صوتًا من خلفي.. أفزعني، التفت إلى خلفي، رأيت رأسًا من على الحائط بين منزلنا ومنزل جارنا، أرعبتني عيناه وتسلقه للحائط، انتبه والدي أيضًا فخرج، جارنا كان عنصرًا في الأمن السياسي، لا يختلط مع الجيران وهو من مدينة دير الزور، ولكنه حفظ حق الجار، طلب أن نتقدم إليه.

أبي: خير جار شو في؟

- اوعى تشربوا من مي البلدية .. الأمن سمم المياه، خبروا الناس، بس أرجوك، لا تجيبون أني خبرتكم.

كانت المرة الأخيرة التي رأيت فيها وجهه، وبعد ذلك لم أسمع عنه شيئًا. كان تسميم المياه من بين العقوبات التي فرضت على أهالي المدينة، ولكن هيهات، فعامودا غالب منازلها تحوي على بئر من المياه وهي مياه عذبة جدًا.

وهذا لن يؤثر على أبناء المدينة، ولكن الأمر الذي كان يشغل الناس هم المخبرون«الجواسيس»، الذين يرافقون الدوريات لاعتقال الشباب وكل من شارك بالمظاهرات وتحديدًا من شارك بكسر تمثال الرئيس، وهذا كان وعيدًا من ماهر الأسد.

في الصباح استيقظت لكي أذهب مع نادر إلى الأرض، حيث أخبرني أن ابن خالته أحمد وافق على عملي معهم، تستيقظ أمي قبل الجميع، ثم

تنادي على الأبناء.. عند صيحة الديك يكون المنزل مستنفرًا، يذهب أحد الأبناء إلى الفرن لجلب الخبز، وعليه أن يقف على الدور.. خبز المدينة معروف ويسمونه «نان قالنت»، نان يعني خبز، وقالنت سميك، وهذا الخبز يتم إعداده حصرًا في الفرن الحجري.

يذهب الابن الآخر لجلب اللبن والقيمر، وهناك عوائل في عامودا تشتهر ببيع وصناعة اللبن والقيمر والحليب، وكل عائلة تمتاز بنوع السطل وذلك من عجائب المدينة.

تكون الشمس بعدها خفيفة الظل، ويكون الصباح هادئًا مع نسمات ربيعية تنعش الروح، ولا يعود الفلاح إلى منزله إلا بعد صلاة المغرب.

كانت الأرض التي أعمل فيها تقع في القسم الشمالي من المدينة قريبة جدًا من الحدود التركية، حيث النقاء والهدوء وأصوات العصافير، وطيور الحسون، تحيط بنا ألوان زاهية من شقائق النعمان بألوانها الحمراء، والأزهار الصفراء، أرضنا أرض خير، ومدينتنا تتقن التبرج على أصوله في الربيع، مدينة تفتن، فالقادمون اشتهوها ويريدون اغتصابها.

كان عملنا يمر على عدة مراحل.. المرحلة الأولى تعبئة الأكياس الصغيرة ذات اللون الأسود، وبعدها وضع البذور فيها، وبعدها إنشاء بيوت بلاستيكية، وتوزع الأكياس في تلك البيوت الكبيرة بطرق معينة، وفيها بعد يبدأ الاستسقاء، وكل مرحلة تحتاج إلى أيام، وعملية تعبئة الأكياس لم تكن بالعملية السهلة.

من الطرائف:

كان على كل عامل إذا انتهى من تعبئة ١٠٠ كيس يُحسب له ١٠ ليرات

فقط، و١٠٠٠ كيس بـ ١٠٠ ليرة، وكل عامل يجتهد لتعبئة أكبر عدد ممكن من الأكياس، وغالبًا ما كان يتم اختيار من هم دون ١٦ عامًا لهذا العمل، ولكن بسبب الظروف الحالية فُرض علينا القيام بهذا العمل وبهذا الأجر المتدني.

خدعنا إدريـس.. ذاك الطفل الشقي ١١ عامًا، لم يكن قادرًا على التحدي مع الآخرين لكثرة لهوه مع من هم في عمره وثانيًا لكسله، فكان يأخذ من أكياس الآخرين ويضعها فوق أكياسه دون أن نعرف.

كنت أعد كل مئة كيس وأضعها جانبًا على شكل دائري، وأثناء الإحصاء قبل ذهابنا إلى المنزل كنا نكتشف أن أكياسنا ناقصة!

نستغرب ونبرر لربما كنا مخطئين بالعد، أثناء الانتهاء من عملية تعبئة الأكياس وإحصاء عمل كل عامل، تصدر إدريس المشهد، دُهشنا .. كيف لهذا الشقي المشاكس أن يتقدم علينا؟ وهو الذي كان يلهو ونحن نجتهد، تبين أنه كان يسرق من أكياسنا.. اجتمع عليه الجميع لضربه ونكاد نموت غيظًا منه، لكنه كان كالكلب المسعور، أفلت من بين أيدينا وبدأ يركض، حاولنا الإمساك به والنيل منه لكنه كان أسرع منا.

يركض ويضحك.

آه لو أمسكت بذاك اللعين.

بعد الظهيرة.. جلسنا لتناول الغداء ولأخذ قسط من الراحة.. كان الجو لطيفًا جميلًا رائعًا.. كانت الشمس دافئة، كنت أناظر الطريق الدولي على الجانب التركي، سارقًا نظراتي لجبال طوروس الشاهقة الزرقاء، يحس من يراها أنها تعانق السماء، كانت سكة القطار تقع أيضًا على الطرف

التركي، وحين يمر القطار كنا نتوقف عن العمل ونسترق النظرات حتى يتوارى عن الأنظار، أتى نادر وجلس إلى جانبي قاطعًا خلوتي: شبك قاعد لحالك؟

- بتعرف طول عمري بجي بقعد بهالفلة وبتطلع لهي الجبال وهالسيارات وللقطار.. وبسأل حالي شو في ورا هي الجبال، ولوين بتروح هي السيارات وشو بيحمل القطار؟!

ابتسم نادر: هلا ورا الجبال تركيا بس لوين بتروح هي السيارات والقطار شو محمل، والله ما بعرف! قوم على الشغل يقطع عمرك.

قمنا إلى العمل وإذ بإدريس يركض نحونا ويلهث كالكلب.. تساءلت ما الذي أتى به ألا يخشى أن نضربه؟ لكنه هنا ليخبرنا أن عامودا كلها خرجت في مظاهرة كبيرة بعد اعتقال الأمن لامرأة أربعينية تهمتها أنها زغردت أثناء تكسير تمثال الرئيس، ركضنا جميعًا إلى المدينة.

كانت الحشود ضخمة تنادي بالإفراج عن المرأة.. بدأ الأمن بإطلاق الرصاص في الهواء لتفريقنا، وبعدها بدأوا بالتصويب المباشر علينا، تفرقنا في الأحياء والأسواق، ونكرر التجمع، وبعد صولات وعدنا الأمن بإطلاق سراح المرأة بعد التحقيق معها.

* * *

في أروقة الأفرع الأمنية، اجتمع مدراء الأفرع الأمنية لإدارة الأزمة في المدينة والقبض على من كسر تمثال الرئيس، تجاهلوا كل الأرواح التي أزهقت، والجرحى الذين وقعوا، وحتى مقتل رئيس المخفر، ليبحثوا عمن كسر تمثال من أصبح تحت التراب!.

اقترح أحد الضباط إعادة الحياة إلى المدينة وفتح الأسواق والطرقات ودس الجواسيس، فالناس في هذه المدينة يتباهون بأعمالهم والتفاخر بمشاركتهم في المظاهرات وحرق المؤسسات الأمنية، فكيف لو كان مشاركًا بكسر تمثال الرئيس؟ الأمر الذي يدعو للمفخرة.

كانت فكرة خبيثة للقبض على المطلوبين، وإن كان ذلك يتطلب القليل من الوقت، عادت الحركة إلى السوق نوعًا ما ليتفاجأ الناس بغلاء الأسعار بشكل ملحوظ.

يقولون إن الجان يخطفون الجنود ويأكلونهم!

أتى الصباح ولم يأتِ الجنود بعد من دوريتهم المسائية، أرسل المساعد أول جميل وراءهم دورية للبحث عنهم، وكان يستشيط غضبًا ويكثر من التدخين، كان دخانه من نوع الحمرا الطويلة، محلية الصنع، ذات الرائحة الشنيعة، وهو الدخان الذي يقتنيه كل الجنود والضباط الصغار.

أتى أحد العناصر.

جميل: شو قلي جبتوهين؟

العنصر وهو محمر الوجه: لا والله يا سيدي ما شفناهم وما عرفنا شي عنهم!

- روح.. انقلع من وجهي.

احمرّ وجه المساعد أول جميل، وزاد غضبًا، وحدَّث نفسه: «شو بدي قلو للمعلم» المعلم مصطلح يتم تداوله بشكل كبير في أروقة الأمن والجيش في سورية ـ وحتى رئيس الجمهورية يلقب بالمعلم! دخل المساعد أول جميل إلى غرفة القائد العسكري، الذي كان يحمل رتبة العقيد، وهو من مدينة القرداحة مسقط رأس رئيس الجمهورية، ويتبع إلى الفرقة الرابعة

التي يديرها ماهر الأسد، وعُين بأمر شخصي منه.

أدى المساعد أول جميل التحية العسكرية، لاحظ القائد العسكري عليه التوتر، فبادره بالسؤال: شو في شبك واقيف متل المسطول!

- سيدي عندي خبر مزعج لسيادتكن عند هالصبح.

- ما تخاف يلي بيشوف خلقتك عند هالصبح بيتعكر مزاجو تلقائيًا. شو في؟

المساعد أول وهو يلهث: سيدي في عنصرين من مبارح بالليل طلعوا دورية ولهلا ما رجعوا، وأنا بعتت وراهم عناصر للمحيط اللي بيخدموا فيه وما لاقوهم.

العقيد: ولك يا حيوان شو يعني عنصرين من الجيش العربي السوري مختفين! هنت عرفان شو متقول!

صمت المساعد أول وطأطأ رأسه. استشاط العقيد غضبًا، ورفع سماعة الهاتف وطلب حضور رئيس القسم والضباط على الفور، وخلال دقائق حضر الجميع، وغالبيتهم من رتب عسكرية كبيرة.

العقيد: طلبتكن لحتى قلكن أنو حضرة المساعد أول جميل ميقلي أنو في عنصرين مو مبينين من مبارح! معكين ٢٤ ساعة بدي كون كريم معكين، وما بدي قول ساعة لا .. لا، معكين ٢٤ ساعة ليكونوا العنصرين واقفين قدامي، بتفتحوا تحقيق مع كل العناصر اللي بيعرفوهن، وبتبعتوا دوريات على المنطقة أو الحي، وإذا ما بتلاقولي ياهن لأمسح بكرامتكن الأرض، انقلعوا لشوف، سمعوا سمعوا اوعى حدا يعرف بالخبر.. يلا انقلعوا.

حصل استنفار كبير داخل القطعة العسكرية، وتم فتح تحقيق، وتم

استدعاء كافة الضباط من أفرع المنطقة والضباط الذين يخدمون المدينة من قبل وأصحاب الخبرة لإطلاعهم على الأمر.

* * *

وصلت إلى المنزل، وكانت والدتي تغلي كالبركان من خوفها عليّ، شاحبة الوجه، محمرة العينين، متلهفة عليّ، ركضت إليّ وبدأت تلمس وجهي ويدي لتتأكد أني بخير، انحنيت إلى يدها وقبّلتها، واعتذرت لها على نومي خارج المنزل يوم أمس. لم أكن أستطيع أن أقول لأمي ما حدث معي ليلة الأمس، لا أستطيع أن أشرح لها كيف قتلت اثنين من الجند، ولأجل ذلك نمت خارج المنزل، حتى لا أعود بذاك المنظر إليها.

بعد قليل رن جرس المنزل، وإذ به نادر، طلبت منه الذهاب إلى الأرض لألحق به فيها بعد، اندهش نادر من تصرفي لكنه ذهب، لم أكن أريد من أمي أن تراه، حتى لا تسأله إذا كنت عنده ليلة الأمس أم لا؟ كما قلت لها، أو كذبت عليها. جلست مع أمي قليلاً وشربت معها القهوة، وأنا على يقين أن نادر ينتظرني بفارغ الصبر، استأذنت أمي وخرجت.

عندما رآني نادر، تهجم عليّ بالسؤال فورًا: «ليش هيك عملت يول، ووينك صرلك يومين مو مبين».

- اسكت، بشرفي صارت معي شغلة ما بتتصدق، وقلتلك استناني بالأرض لحتى ما حدا يسمعنا.

جلسنا وأثناء الحديث، انتبهنا إلى دورية عسكرية تجوب بين الأراضي، انحنيت أنا ونادر حتى لا يلاحظوننا، تداركت الموقف وعرفت سبب هذه الدورية هنا، وبعد أن ابتعدت الدورية، أخبرت نادر بكل شيء. بعد وهلة

قليلة من الصمت والذهول، نطق نادر:

- والله شي ما بيتصدق.. بس لو يعرفوا لسمح الله، والله أنت وعيلتك وعشيرتك راح تنبادوا! شو راح تعمل هلا؟

- ما بعرف محتار.

سأحاول النسيان.. لا شيء غير النسيان سينقذني من الذي أنا فيه. عدنا إلى عملنا في الأرض، بدأت الرياح تهب وتقلع كل شيء في طريقها، أثناء غيابي كان العمال قد بنوا البيوت البلاستيكية، اشتدت الرياح حتى أفلت الحديد الذي يسند البيوت البلاستيكية، وبعد قليل بدأت الأمطار الغزيرة، أصبحنا نركض لنصلح ما خلفته الرياح والأمطار، فكلما أصلحنا واحدة انتزعت أخرى.. وبقينا هكذا حتى المغيب. ذهب عملنا سدى، فالرياح لم تتوقف، والأمطار أصبحت أكثر غزارة، والأضرار المادية كانت كبيرة جدًا، فأغلب ما تم زرعه أُتلف.

كان البؤس واضحًا على وجوهنا، عدنا إلى المنازل وحالنا يرثى له، ممتلئين بالطين، أيدينا ووجوهنا وملابسنا، اغتسلت وتناولت العشاء وأنا منزعج على الخسائر الكبيرة. ولكن والدي فاجأني بحديثه: «الدوريات كترانة ما بعرف شو القصة»، تجاهلت الحديث كليًا وكأني لم أسمع، ويا ليتني لم أسمع، فأنا أحاول النسيان لا شيء غير النسيان.

* * *

أصدر القائد العسكري قرارًا باعتقال المساعد أول جميل لمدة ثلاثة أيام حتى يخيف باقي الضباط، وأمر بحملة اعتقالات في المدينة، ولكن الأمر لم يتوقف عند الاعتقالات، بدأ المعتقلون بالعودة إلى منازلهم، ولكنهم جثث

هامدة، قتُلوا تحت التعذيب الشديد، أثار ذلك سخط الناس، وكل من كان يحتج يُعتقل، ومن تظاهر عاد قتيلًا أو جريحًا برصاص الأمن، ومنع الجيش الأهالي من تشييع جثامين الشهداء حتى لا تتحول إلى مظاهرة ضد الدولة. حالة من الاحتقان الشديد بين الناس، فإذا هدأت الرياح الربانية، هبّت رياحٌ من صنع البشر.

استيقظ أهالي المدينة على خبر مقتل المرأة التي زغردت عند تحطيم تمثال الرئيس، هاج الناس فليس بالأمر المقبول تعذيبُ امرأة حتى الموت، كثُر القتل ولا شيء يوقف الدم إلا الدم، ولا يفل الحديد إلا الحديد.

الدماء في الشوارع، الحجارة في كل ركن، الحزن لا يفارق الوجوه، الأزقة فارغة، الموتى والجرحى وحدهم يئنون ويتكلمون في هذه المدينة.

كنت بين الأراضي التي تطل على الحدود مع تركيا، أناظر تلك البقاع البعيدة وفي قلبي أحسدهم على الهدوء والأمن والاستقرار الذي ينعمون به، كان معي نادر، وقلت له هم الذين دفعوني إلى هذا الخيار.. «بدي استخدم السلاح اللي معي ضد الدولة»

نادر: بتمزح؟

- اطلّع بوجهي شايفني عم أمزح!
- كيف بدك نواجههم برشاشتين وكم قنبلة؟
- ما بعرف بس لازم يعرفوا أنو ما راح نسكت لو شو ما صار.
- بس احكيلي كيف؟ ما معنا غير رشاشتين؟
- ما معنا؟ يعني أنت معي؟
- لا تفكر لحالك المقهور.. وقت اللي بدك في جيش مستعد يقاتل

هالمجرمين.. بس هات السلاح !

سعد: وأنا راح أجيب السلاح.

اتفقنا على المواجهة، كنت أحاول النسيان، لكنهم أصروا ألا ننسى، لم أكن أعرف كيف سأواجه دولة بأكملها؟ ولكن كل الذي أعرفه أننا لن نصمت على الضيم.

مهمتنا الأولى أتت عندنا.. كثُرت دوريات المشاة في الأحياء وتحديدًا عند المساء، كانت فرصة سانحة لخطف الجنود، كنت أنا ونادر نراقب عن كثب حتى لا نتفاجأ بأي أمر طارئ.

كنت اتفقت مع نادر أن جلب السلاح عليّ، وأن امرأة متقدمة في العمر ساعدتني على التخلص من الجنديين، كيف لو كنا نحن الشابين اليافعين، وما كان أمامنا من رد سوى خطف الجنود وقتلهم وأخذ سلاحهم إلى ما شاء.

وقعت عيناي على عنصرين كانا يمشيان في أحد الشوارع الضيقة لمراقبة سريان حظر التجول الذي فرضه القائد العسكري من جديد، بعد الساعة الثامنة بدت الشوارع خالية لا يجوب فيها سوى كلاب الجيش. تقدمنا بشكل بطيء خلف العنصرين وباغتناهم بالضرب من الخلف بقطعة حديد حادة على الرأس، وبدأنا بسحبهم تحت الجسر، كنا نراقب الشارع بأكمله قبل أن نكمل المسير حتى وصلنا إلى الجسر، أخذنا الأسلحة، ورمينا الجثتين عند رفاقهما، وتوجهنا بالسلاح إلى منزل الدكتور، دخلنا مثل المرة الماضية، كنت قد رميت السلاح في الحديقة الخلفية، وعندما دخلنا كررت الأمر وجلبت السلاح ووضعته أمام الدكتور وكان نادر

معي، وبدأ الدكتور هرانت بالضحك.

- وها المرة شو صار؟

سعد: ها المرة ما صار شي، بس أنا اللي ساويت شي، وخلاص، بدي أعلنها انتفاضة مسلحة ضدهم، العين بالعين، والسن بالسن، والبادي أظلم.

وزاد الدكتور من ضحكه، وأنا ونادر نتفرج عليه، وباغتنا بالسؤال: «بدكم تواجهوهم بـأربعة رشاشات» وأكمل ضحكه..

نادر: بدنا نضل نشلحهم السلاح لحتى نجمع أكبر عدد ممكن.

لم يكُف الدكتور عن الضحك: أي بدكم عشر سنوات على هي الحالة!

سعد: الله بيسرها دكتور.. بس في شغلة مهمة، احتمال مع الأيام الجاي يكبر عددنا، لأنو بدنا نشلحهم السلاح لنعمل مجموعة، والسلاح راح يكتر، وحتى ما نورطك معنا ونعرضك للخطر، بدنا نحط السلاح بمكان تاني.

جلس الدكتور بشكل مستقيم وبلع ريقه: كل اللي بقدر أقدملكم ياه هو إني أخليكم تستخدموا البيت والقبو للسلاح، ولما تصيروا مجموعة كبيرة بظن بدكم مكان لتجتمعوا، وهون بعيد عن الأنظار والشبهات، بس تعالوا من الحديقة ونطوا من السور الخلفي مو من الباب الرئيسي. مع إني مو مقتنع باللي عم تساووه.

بدأنا بعمليات الخطف كل يوم حتى استولينا على عشرة رشاشات وقنابل يدوية ومخازن للسلاح، ولكن تفاجأنا فيها بعد أن دوريات المشاة توقفت، وبدأ الجيش يسيّر دوريات بالسيارات، كانت مفاجأة كبيرة لنا،

وليس من السهل اعتراض سيارة عسكرية.. وبعدما تهامسنا وتلامسنا الواقع، قررنا توسيع المجموعة بمن نثق بهم من الأصدقاء لمواجهة التغيرات الحاصلة، وكان الهدف هو وضع حد لممارسات الجيش وأنصار حزب البعث فيما يقترفونه بحق أهالي المدينة، وبدأنا بعملية البحث عمن هم أهلٌ للثقة. وقع اختيارنا على أربعة أصدقاء، آراس.. يعني مرفوع الرأس، صاحب الابتسامة الدائمة، ينقسم اسمه إلى قسمين«آر» وهذه صفة عرقية «العرق الآري» السلالة التي ينتمي إليها الكرد، أما «راس» يعني مرفوع الرأس، واخترنا شيخموس، ومعناه هو«شيخ موسى» وكلمة شيخ هنا لا تدل على الدين إنما على العمر، والمقصود هو نبي الله موسى، ويقال أيضًا إن شيخموس يعني نزيف الكبد، وتم اختيار برزان وعلي.

سعد: بس بتعرف علي شوي كبير بالعمر، بعدين هو كل وقته بالزراعة وبيحب الشعر!

نادر مبتسمًا: وشيخموس بدق على البزق شو يعني؟ بعدين يول نحن بلد المليون شاعر، ضلت على علي!

عامودا ورغم صغر مساحتها وعدد سكانها، فلقبها بين المدن بلد المليون شاعر، لكثرة الأدباء والمثقفين فيها، ويمتاز أهل عامودا والكرد بشكل عام بالعزف على آلة الطنبور«البزق»، ويمتاز هذا الشعب بروح الفكاهة والنكتة.

اجتمعنا مع باقي الأصدقاء وطرحنا عليهم الفكرة، وكان برزان أكثرنا حماسةً. علي أكبرنا عمرًا، طويل القامة، له شاربٌ أبيض، يمتاز

بنية صلبة وقامة ضخمة، آراس الأرق قلبًا، شيخموس أصلع الرأس متوسط القامة، برزان كان أيضًا يمتاز ببنية صلبة وقامة ضخمة، والكل يمتاز بالروح الوطنية وشهامة المدينة. فاجأنا علي بنقطة كانت تائهة.

علي: قتلتو لحد هلا عشرة وما نشرتوا الخبر!!

آراس: بشرفي لو الناس تعرف ليلعنوا أبو البعث.

شيخموس: والله يا شباب أنا معكم، بس شو راح نعمل بالروسيات اللي معنا قدام ها الأوباش ياو؟

برزاني: شو شو نعمل، يازلمة بالحجارة حررنا عامودا ٣ أيام، هلا معنا سلاح والله لناكلهم أكل يادي «يا أمي».

سعد: هلا أهم شي الكتمان على مجموعتنا، وراح ننشر خبر اختفاء الجنود العشرة على طريقتنا، تاني شي اللي راح نساويه هو ننصب كمائن ونخوض حرب الشوارع بس بالأماكن اللي نحن بنختارها.

تناقشنا كثيرًا حول إدارة المعركة والخطط التي يجب أن توضع بأدق التفاصيل حتى لا نقع في شرك حماسنا واندفاعنا، نحمل السلاح لخلق رادع ضد من لا يردعون، خيارٌ أُجْبِرنا عليه، ولكننا فخورون به.

اتفقنا على التدريب على السلاح في الأراضي الزراعية، نُعد لمعركة تبدو غير متكافئة، خطان متوازيان لا يلتقيان، الحق والباطل، الخير والشر، الظالم والمظلوم.

أيها الربيع هل ستكون عنوان نصر، كما كنت طِوال الدهر عنوانًا للجمال، أيها الربيع الشجي الساحر، أثملت القلوب ببهائك، أيها الربيع المغرر بشذى عطرك، بالألوان التي تفترش الأرض كمرأة عارية، يا شقائق

النعمان ألا لطفًا فقلوبنا رقت، ونحن بأمس الحاجة إلى الثبات والصلابة، ألا يا فراشات الربيع لو تميلين قليلًا علينا، علمينا الحب في الحرب، يا أيتها العصافير في هذه البقاع غردي بالأزادي. يا أيها الربيعُ ستكون في هذا العام خليطًا من دم الأحرار وشقائق النعمان، لتمزج لوحةً من البطولة والعزة، لوحة من الفسيفساء.

الحب والعنصرية أمران لا يجتمعان .. الحب أنقى

عمان/ آذار ٢٠١٧

- يا بني قل لي .. أنت تعيش هنا منذ ثلاثة عشر عامًا، وقطعت الثلاثين من العمر، لِمَ لم تتزوج إلى الآن؟ هل صحيح أن الكرد لا يتزوجون إلا منهم؟

- عماه.. نحن قوم نسلم قلوبنا للجنية إذا أقبلت عاشقةً تريدنا.. ولا نقول لا، نسلم أنفسنا للعشق دون أن ننظر إلى الهوية أو اللون.. في العشق نحن أطفال، نحمل سماتهم وبراءتهم، فالأطفال لا يميزون الأعراق، يبحثون فقط عن لهوهم وسعادتهم، وهكذا نحن يا عماه..

أما قلبي.. فآهٍ وألف آه من قلبي المستعصي، مساحته صغيرة، لا يتسع لامرأتين معًا، امرأة واحدة فقط أخذت حق الملكية وسجلتها في سجل العشق، عشق كاثوليكي، لم يعد هذا القلب ملكي، لم يعد من حقي التصرف به، هو الله وحده سيأخذ القلب عنده دونما استئذان، عماه.

ما حدُّ من سرق الفؤاد وهاجر[1] ؟!.

* * *

(١) آخر شطر لبيت شعر للشاعر محمد المقرن.

مركز الأخبار

عامودا/ آذار ٢٠٠٤

تلك المقاهي، مجالس أهالي مدينة عامودا، فالمقاهي طينية المنشأ، صغيرة المساحة، خشبية الأبواب والنوافذ، عتيقة المقاعد، كراسيها من الخشب وحبال كراسيها من حبل القنب، عمال المقاهي في المدينة لا يختلفون عن بعضهم كثيرًا، وتلك من الطرافة، متوسطو القامة، يرتدون نظارة طبية كبيرة، طيبو القلب والخُلق.

رائحة الشاي الخمير تفوح من كل ركن من أركان المقهى، دخان السماور كضباب الخريف يملأ المكان، أصوات الزبائن تملأ الدنيا، واحد يصيح على شريكه في لعبة «تريكس» أو «الطرنيب ٤١»، وذلك العجوز يضرب بيده على الطاولة المهترئة في لعبة الطاولة، وآخران يضحكان في لعبة النرد، وغالبًا لاعبو الشدة هم الأكثر صخبًا في المقاهي، ومقعد آخر عليه مجموعة يتهامسون في أوضاع المدينة، ومن هذه الطاولة استفاقت المدينة على خبر اختفاء عشرة جنود من الجيش، إن الجن خطفهم في البراري المنتشرة حول المدينة.. وهناك من يقول إن عصبة من الأحرار خطفوهم لمبادلتهم

بالمعتقلين، وهذا هو المطلوب، انتشار الخبر واختلاف الروايات لتتصدع الغرف العسكرية القيادية من الخوف والهلع، فدائمًا الخصم المجهول أخطر أنواع الخصوم وأكثرهم رعبًا واستعصاءً لأنه المنتصر دومًا.

كانت القيادة العسكرية تتعمد الإفراج عن عدد قليل جدًا من المعتقلين، وذلك لنشر أخبار المعتقلات لدب الرعب في النفوس، كان الأهالي يتوافدون على ذوي المعتقلين لتهنئتهم، فمنهم من يذهب للمباركة، ومنهم من يذهب للاستفسار عن أمور سياسية، ومنهم من يذهب ليسأل عن ذويه.

عندما يخرج المعتقل، يكون عبارة عن عظام متحركة، لحية كثة، غائر العينين، نحيل الجسد، مهزول القوام، مكسور الوجدان كأنه شبحٌ قادم من كوكب آخر، يخاف أن يحدّث الناس خوفًا من العودة إلى المعتقل، يحاول قدر المستطاع النسيان، يستيقظ ليلًا من نومه صارخًا بصوت عالٍ « لاااااا»، فالجلاد لا يفارقه، حتى في نومه يشعر به عند رأسه والسوط في يده.

عندما كنا صغارًا، كنا نخشى من سوط الأب، إذا غضب منا بسبب مشاكسات في الشارع ومع أطفال الجيران، حينما تكون علامتنا المدرسية سيئة، لكن ما أجمل سوط والدي أمام سوط الجلاد.

عند خروج فرهاد من المعتقل توافد عليه الناس لتهنئته، فيرد السلام ويتجنب الكلام، أقامت عائلته وليمة للضيوف فرحًا بخروجه، خرج من المعتقل الليلة الماضية، وكان هذا يومه الأول خارج المعتقل، عندما وُضعت أمامه مائدة الطعام، بدأ يضحك والجميع يناظره باستغراب وهو يزداد ضحكًا حتى قال: لعمى لحد مبارح كنا بنشتهي شقفة خبزة كاملة، أو أكتر من كاسة مي، لك كان وجبتي طول اليوم نص خبزة وحبة فلافل وشقفة

خسة صغيرة وكاسة مي، وهلا كل ها الأكل قدامي ولإلي!

بقي فرهاد فترة وجيزة يعاني من اضطرابات نفسية استغرق وقتًا حتى تعافى، وفرهاد يعني المهيب، وحقًا كان له من اسمه نصيب.

* * *

قام المخبرون المنتشرون بكثافة في المدينة، بنقل الأخبار إلى الأمن العسكري عن انتشار خبر اختفاء الجنود في المدينة، جُن جنون القائد العسكري، وأدرك أن اختفاءهم من فعل فاعل؛ وإلا كيف انتشر الخبر بين عامة الناس، اقترب من نافذة مكتبه المطلة على الشارع العام، ينظر إلى المارة من الطابق الثالث ولسان حاله يقول: إن كان هناك عدو فها قد بدأ يلمّح عن نفسه، وها أنا أسمع ذاك الأسد يزأر بعد أن التهم عشرة عناصر ويريد المزيد، ها أنا أرى حركاته تقترب بحركات هؤلاء المارة، هؤلاء هم الأعداء.. هؤلاء مثل الذئاب بانتظار الفريسة، يترقب، يفكر، يحدق، يتحرك لينقض علينا في الوقت المناسب.

أعطى القائد العسكري أوامره بأخذ كل الاحتياطات الأمنية اللازمة، والتشديد على حظر التجول بعد صلاة المغرب وعدم نشر دوريات المشاة أبدًا، ونشر دوريات في السيارات.

الجنود ليسوا أقل خوفًا من قائدهم، فهم الفريسة السهلة والشهية، والخطر يحدق بهم بالدرجة الأولى، وجد الخوف مكانه في قلوبهم، وهم يتصورون أسوأ المشاهد من نهاية زملائهم، يتذكرون قصص جداتهم لهم عندما كانوا صغارًا عن ليلى والذئب، وعن الجان وعن الغول الذي يأكل البشر، وتكاثرت في أدمغتهم الأوهام.

كذبة نيسان
«وللحرية الحمراء بابٌ بكل يدٍ مضرجةً يدقُ»

بدأت المجموعة بالتردد على بقعة أرض بعيدة عن المدينة، بقعة محاذية للحدود غربًا باتجاه الدرباسية، تبعد عن عامودا حوالي ١ كيلو متر، قريبة من قرية الجوهرية، كانوا يتجنبون دخول القرية بسبب السلاح الذي معهم، كانوا يفكون السلاح ويركبون ويتعلمون استخدامه، كانوا يتدربون جميعًا على قطعة واحدة، وعند حلول الظلام يعودون حتى لا يلاحظ أحد السلاح الذي بيدهم، وكانوا يتوارون عن الدوريات التي تجوب المدينة، وهذا بحد ذاته كان امتحانًا لهم حول كيفية الظهور والاختباء والتنقل.

* * *

كانت الحسناء تجلس عند نافذتها متأملة بالنجوم والسماء والقمر، كانت تعشق الربيع وتتقن الهوى. تملك آراء ثورية، لا تخاف ولا تهاب في طرح رأيها، ثائرة كردية.. ترسم ملامح فتى أحلامها، وهي المتأثرة بقصص التاريخ وبالأمجاد الغابرة، رفضت الزواج من الكثير من الشبان، فهي كانت تقول لا يستحقني إلا الفرسان، وكانت محل سخرية شقيقاتها، وسرعان ما تصحو من أحلامها إلى الواقع الذي يفرض نفسه، لتخرج من

صفحات الروايات وأمجاد الأجداد وخرافاتهم وأساطيرهم، لكنها كانت تدرك في الوقت نفسه أنها تعيش في مدينة الشجعان التي لا تخلو من مثل هذه القصص، ولابد من فارس فيها يأتي رغم اختلاف الزمان.. «الحبيبة».

*****

قررت المجموعة القيام بأول عملية، بنصب كمين لدورية واستهدافها، اجتمع الثوار في القبو عند الدكتور هرانت الذي لم يكن يحضر الاجتماعات، فهو لا شأن له بما ينوون عمله، إنه يصلي لأجلهم ويوقد شمعة راجيًا من الرب أن يحميهم، كان الجميع متحمسين، وكان سعد قد أعد الخطة وتلاها على أسماع رفاقه.

- أولًا من خلال مراقبتي من فوق السطح عند كل مسا، دائمًا بلاحظ دورية بتمر من عند الجامع الكبير، وهذا موقع ممتاز لتنفيذ أول عملية.

برزان مستغربًا: كيف هيك ياو، الشارع ضيق شلون راح نعمل كمين؟

- السيارة بتكون جاي من الجنوب من العراسا بتجاه الشمال، بشارع سعد الله الجابري، الشارع من أربع منافذ، منفذ اللي راح تجي منو السيارة هدفنا. بضل منفذ الشمالي والشرقي والجنوبي، المنفذ الشمالي والشرقي بين الحارات، أما المنفذ الجنوبي بودي على الچم «النهر»، نحن بنكون بزاوية الجامع بنعمل مثلث، ٤ منا بيطلعوا فوق السطوح المجاورة وراح نرشهم «نطلق النار»، من أربع جهات، واحد بركز على الشوفير وواحد على الدواليب والتانيين برشو فوق السيارة ليقتلوا اللي جوا، أما التنين التانيين اللي راح يكونوا برزان والخال علي، هني راح يكونوا قاعدين بالزاوية القريبة بالعتمة بس نخلص رش السيارة، هني بيهجموا ليشلحوا

العناصر السلاح بشكل سريع جدًا، ونحن بنكون فوق لنغطيهم من الجهات الأربعة إذا أجت مؤازرة من شي دورية تانية. لما الخال علي وبرزان يشلحوهم السلاح من الرشاش والجعب، بيروحوا فورًا بيرموهم بحوش الدكتور مع الأسلحة اللي معهم، وبيروحوا على بيوتهم، وبعد ما ياخد السلاح نحن بننسحب شوي شوي من فوق الأساطيح حتى ما يلحقنا حدا ونختفي بسرعة البرق من سطح لسطح، وأي شخص بس يحس حالو تحاصر بمكان ما، يحاول يلجأ لتحت الجسر لأنو عتمة والممر طويل، وراح نضيعهم. تمام هيك؟

نادر مداعبًا: صايرعم تفكر منيح.

علي: أي والله.. وأنا بقترح نلبس كلنا أسود بأسود ونحط قناع أسود.

شيخموس ضاحكًا: والله ليفكرونا عن جد من الجن !

آراس راوده القلق: يول شلون نتخبى تحت الجسر مع عشر موتى ياو؟

ابتسمو وأقسموا .. ولتكن كذبة نيسان حقيقة.

* * *

كولي وشفين، فتاتان.. أيضًا من المتأثرات بالقصص والحكاية والأساطير، كولي وتعني الوردة بالكردي، قصيرة القامة، تمتلك عينين سوداوين، بدينة الجسد، سمراء البشرة. شفين وتعني حارسة الليل، زرقاء العينين، قصيرة الشعر والجسم، رشيقة. تجلسان عند كل مساء فوق سطح المنزل وتحتسيان القهوة كما هي عادة كل نساء المدينة، فهما الجارتان منذ الصغر، وفي العادة النميمة على الجارات حديثهما الوحيد، لكن اليوم ومن مفارقات الزمن أن حديثهما أصبح عسكريًا!

كولي: قولتك بكون الجن أكلهم؟

- بيستاهلوا هدول العساكر اللي أجو من آخر الدنيا ليقتلونا .. مو حرام؟

- يبيي بكون هلا الجن حرقهم!

- خلاص لي[1] والله خوفتيني هلا بيطلعلنا جني!

- لا لاو[2] الجن بيطلع للأشرار بس!

شفين: والله ستي «جدتي» كانت بتحكي أنو الجن موجودين بكل مكان.

عندما سمعت كولي ذلك هرعت مذكرةً خليلتها أن الظلام قد حلّ، وهذا وقت الجن، فسارعتا بالنزول من فوق السطح بشكلٍ جنوني إلى الغرفة، وذاك المساء لم يستطيعا النوم من الخوف، وعيونهما تناظر النوافذ والأبواب من تحت البطانية وجسميهما يرتجفان.

* * *

أبى الثوار إلا أن يكونوا ثوارًا أحرارًا، ويبقى هذا الشعب كما كان حرًا لا يرضى بالخنوع، كانوا مدركين أن العدو لن يهدأ أو يعود إلى رشده إلا بقوة مشابهة تردعه وصفعة قوية ترشده، حملوا السلاح على الأكتاف ولبسوا اللباس الأسود، وعيونهم تلهب كالنيران، قلوبهم عامرة بالإيمان، عزيمتهم كالجبال الرواسي، ربطوا الأحزمة، وبدأوا المسير نحو الهدف، مستغلين الظلام الدامس، يتنقلون كالخفافيش، وصلوا عند النقطة

(١) لي: مصطلح نسائي يتردد في كل الأحاديث.

(٢) لاو: أيضًا مصطلح متداول في الأحاديث.

المرسومة لهم، وصعد كل واحد منهم على السطح والمكان المخصص له حسب الخطة، كان عند الشارع الغربي الآتي من الچم «النهر» درج لأحد البيوت، تواري علي وبرزان خلف الدرج، كانت جهة سعد عند الجانب الشرقي ومهمته استهداف الدواليب (الإطارات) بقدر الإمكان، وكانت مهمة علي وبرزان أيضًا كونهما يتواجدان على الأرض ويستطيعان التصويب، أما الجانب الأيمن من الحي الغربي كان آراس الذي وُكّل إليه مهمة استهداف السائق، ونادر وشيخموس كانا معًا من الجانب الشمالي وُكّل إليهما إطلاق الرصاص على سقف السيارة لقتل الجنود، وكان الهدف الأسمى هو أخذ أسلحة الجنود حتى يستطيعوا إكمال المعارك فيما بعد، وإلا فعمليتهم هذه ستكون ناقصة الانتصار حيث لا غنائم، لم يكن الثوار يمتلكون أكثر من رشاش ومخزنين فقط من الرصاص، ولم يأخذوا أكثر، تحسبًا لأي فشل في هذه المعركة من جني السلاح، وكان كل شخص يحمل قنبلة يدوية واحدة فقط كي يحمي نفسه ويرميها على العدو إذا ما حُصر في مكان ما بعدما تنفذ ذخيرته.

المدينة هادئة جدًا، غيوم متفرقة في السماء، رياح خفيفة جدًا تلهو مع أوراق الشجر، تترنج يمينًا ويسارًا، نسمات خفيفة كخفة شراب الورد في أوج الصيف، الناس غالبهم نائمون، أما الأشقياء وحدهم من الأبناء يسهرون، الفتيات تتفرجن على التلفاز يكاد النعاس يغلبهن في معركة جَّر إلى الفراش، رؤوسهن تتمايل ورموشهن ترف حتى يصطدم الرأس بالحائط، الشباب يلعبون التريكس والطرنيب ٤١، وهاتان اللعبتان يمتاز بهما رجال المدينة، لا شيء يعكر الصفو إلا الواقع العسكري الذي يعيشونه.

ربض الثوار كلٌ في مكانه يترقب أية دورية قادمة، متوترون من أية مفاجآت ليست بالحسبان، أصابعهم على الزناد، أعينهم على الطريق كالذئاب التي تحدق بفريستها، وها هي الفريسة قد لاحت من بعيد، ضوء سيارة قادمة من عند السوق، أخذ كلٌ منهم مكانه بشكل أكثر دقة، بدأت نبضات القلب تتسارع بجنون نحو الهدف، لسان الحال يقول: اقتربوا .. اقتربوا. وصلت السيارة إلى قلب المربع، لينادي سعد بأعلى صوته «هربجي» عشتم، بدأ الرصاص يلهو في الجو، رصاصة من اليمين وأخرى من اليسار، وواحدة من الشمال وأخرى من الشرق، يركضون يتسابقون نحو الهدف، طبقت الدواليب (الإطارات) بعد أقل من دقيقة، لتقف في مسرح الكمين كلقمة سائغة الهضم، لاحظ علي أن رأس السائق نزل إلى الأمام، فسارع هو وبرزان إلى السيارة لتخليص السلاح منهم، والأربعة الآخرون توقفوا عن الضرب ليغطوا أصدقاءهم من أية مؤازرة قد تأتي.

ركضت الفتيات اللواتي استسلمن للنوم، وعاد الصحو إليهن، وقفن عند النوافذ، ماذا يجري؟

ترك الشباب اللعبة واللهو، وركضوا إلى الحوش ينظرون إلى السماء ليعرفوا جهة إطلاق الرصاص.

قام علي وبرزان بأخذ الأسلحة، وتم توكيل هذه المهمة لهم لأن بنيتهما الجسدية قوية على حمل السلاح، وخفيفان على الكر والفر، أخذا الأسلحة وركضا نحو «الچم» باتجاه منزل الدكتور الذي لا يبعد عنهم سوى دقيقتين فقط من الركض ليرميا السلاح من فوق الحائط ويختفيا، أما الأربعة الآخرون فانسحبوا بشكل خفي من فوق الأساطيح حتى لا يلحظهم أي

صاحب منزل ولا يتعرف عليهم، ليبقوا خصومًا مجهولين.

لم تدم المعركة سوى دقائق قصيرة، كان الهدف سائغًا، عندما وصلت المؤازرة كان الثوار قد اختفوا وتم الاتصال باللاسلكي على جميع الدوريات بالانتشار بشكل فوري والبحث عن الفاعلين.

لم يعرف الناس ما الذي حصل، سوى من يقيمون في الحي نفسه، ليجدوا سيارة للجيش في قلب الشارع مغربلة بالرصاص وفيها قتلى من الجنود، وكان من بين القتلى ملازم أول رئيس الدورية، كانت عيون الناس مليئة بالشماتة، وأهل عامودا أشطر من في الأرض على تأليف الروايات، ليس لشيء إنما لتداوله فيما بعد، فربما بعد زمن تصبح حكاية أسطورية للأحفاد كما هي العادة تجري، أما من هم خارج الحي فاعتقدوا أن ما حصل ربما إطلاق نار على شخص اخترق حظر التجول.

يصيح الديك صباح هذا اليوم ليس مثل باقي الأيام، فصيحة اليوم صيحة النصر، يصيح بالنائمين، قوموا فشمس الحرية أشرقت، قوموا فأنف الظالم تمرغ، وشوكته انكسرت بسواعد الأحرار، مع ساعة الصباح الأولى كان كلام السوق عما حصل في الأمس، الكل يتهامس ويتلامس، وكلما ارتفعت الشمس لتزيد بريقًا من النور، نور الحقيقة، كلما مرت دقيقة، اقتربت الحقيقة إلى مسامع الناس، انتشر الخبر في كل أرجاء المدينة عما حصل، إن ثوارًا أحرارًا استهدفوا دورية في الأمس، وبدأوا يحللون، وما أدراكم عن أهالي عامودا عندما يحللون في السياسة، ووصلوا إلى نتيجة أن الجنود المختفين أسرى لدى الثوار وسيطالبون فدية فيهم أو يطالبون بدلًا منهم بالمعتقلين المكتظين خلف الأسوار الصماء، كل من في المدينة

يضحك، إن لم يكن علنًا فيضحك في سره، ولم يخف عن أحد البهجة التي سكنت القلوب، الكل يُحيي هؤلاء المجهولين، أما تلك المرأة التي أنقذ سعد ابنتها من مخالب الجنود، أدركت أن من فعل ذلك هو ذاك الشاب مع بعض عصبته، فتضرعت إلى ربها بالدعاء لهم.

شيوخ المدينة المسنون تراكضوا إلى المقاهي ليجلسوا مع رفاق العمر، ليتحدثوا عن هؤلاء الأبطال، وما فعلوه في الأمس، والشباب يبحثون عنهم لينضموا إليهم، أما النسوة فتضرعن بالدعاء، والفتيات قد سُرق منهن الفؤاد، فها هي أحلامهن تتحقق والأساطير أصبحت حقيقة، يقفن في سرب الروايات ويقفن عند تلك الشجرة الكبيرة الخضراء المثمرة بانتظار الفارس الذي سيأتي على الحصان الأبيض، حديث المدينة كلها، هؤلاء الشباب المجهولين، لينتقل الحديث عنهم إلى القرى المجاورة، وإلى المدن القريبة .. معكم قلوب الناس.. لو طارت قذائف في الجبال

معكم عيون الناس.. فوق الشمس التي لا تبالي

معكم عبير الأرض.. من خصر المحيط إلى الشمال

معكم أنا ..أمي.. وزيتوني وعطر البرتقال

معكم عواطفنا.. قصائدنا.. جنودٌ في القتال[1].

* * *

(١) قصيدة كردستان للشاعر الفلسطيني محمود درويش.

كان القائد العسكري في مدينة الحسكة يحضر اجتماعًا في المحافظة، ويقدم تقارير عن أوضاع المدن، سرعان ما قطع زيارته وعاد إلى عامودا بعدما وصل إليه الخبر، ليترأس اجتماعًا مع ضباطه.

القائد العسكري: في واحد منكين بيقدر يقلي شو ميصير؟!

- سيدي في شوية مخربين نصبوا كمين لدورية وقوّصوا عليهن

- بالله متقول الحق!! قلي غير هالكلام، مالكّر بيعريف يلي متقولوا ولاا[1].

- سيدي تحليلي ميقول أنو الجنود المختفين مختطفين وأخذوا سلاحهم هدولي وراح يبلشوا حملات عسكرية! حتى بعملية مبارح عملوا كمين لياخدوا السلاح ومو مخلين شي.

القائد العسكري: لك عيني بدي أعرف مين هني، اسمعوا تقلكين شغلة، كمان شوي الاتصالات من القيادة راح تنزل علينا وراح يطلبوا مني تقرير وخصوصًا إني هلا بموقيف حرج قدام القيادة بعدما قطعت زيارتي

ورجعت، ما معكين كتير من الوقت، أولًا بتحاصروا المدينة من كل المنافذ، ممنوع الدخول والخروج منعًا باتًا، تاني شي بتكثفوا الدوريات بشكل كبير بكل الشوارع، حظر التجوال يبلش من الساعة ٥، تالت شي بتعتقلوا كل شي عمرو فوق ١٦ سنة، فاهمين، بدي هالمجرمين بأسرع وقت.

* * *

(١) ولاا: مصطلح لدى أهل الساحل السوري.

وما زالت الفتيات يجتمعن ليتحدثن عن الفارس الملثم.

كولي: ليكي الرئيس تبعهم اللي ها .. اوعى تحطي عينيك عليه.. بقلعلك ياهن..

- يقطع عمرك خديه للعينتين، أكيد كلهم فرسان، وأي واحد منون بس يشوفني راح ينجن فيني.

- دخيلك أنا .. اللي بيسمعك بفكرك ملكة جمال العالم ولا «زين»[1].

- أحلى حبيبتي. لك دخيل قلبو أنا .. قديش بكون بطل، وبكون قتل كتير.

- اسكتي اسكتي عم يحكو صاروا قاتلين كتير.. بس شفين كيف بكون شكلو هلا؟

شفين: امشي نساوي قهوة وشوفيلنا الفنجان.

* * *

اجتمع الثوار في منزل الدكتور هرانت بعد نوم عميق، دخلوا عليه واحدًا تلو الآخر حتى لا يلفتوا الأنظار، جلس الدكتور وهو ينظر إليهم ويضحك تلك الضحكة الساحرة: لك والله اليوم كل العالم بتحكي عنكم وعن اللي ساويتوه.. دخل السرور إلى قلب الثوار، ودخلت النشوة قلب سعد ليسأل: شو عم يحكوا دكتور؟

- إنكم أبطال وأساطير وهيك.

نادر: دكتور يعني الناس مو خايفة من العواقب!

(١) زين: هي تلك الفتاة المشهورة بعشقها وطهارتها في جزيرة بوطان التي ذهلت الدنيا بجمالها، ذكرت بالرواية المشهورة «ممو زين».

- الناس ما على لسانهم غير الشماتة وبس.

نظر الثوار إلى بعضهم بعضًا وشعروا بعظمة الأمر الذي فعلوه، ممرغين أنوف الطغاة بالوحل.

برزاني: ياو متى العملية التانية؟ قلبي عم يغلي غلي.

سعد: طول بالك برا[1] إذا بدنا نتحمس فبيومين راح ننكمش، شوي شوي.

علي: باعتبار كلنا مشغولين والخطة الأولى نجحت.. برأي نترك التخطيط وتدبير الكمائن لسعد ونادر.

شيخموس: تمام .. بس بظن هلا راح يبلشوا اعتقالات ولازم نبتعد عن العين شوي، يعني لو متل علي يضل بالأرض وما يرجع بكون أفضل والبقية نفس الشي.

* * *

أما في عالم الحب والهوى، فتلك الحبيبة الحسناء، مسرورة اليوم وكأنها العروس في ليلة عرسها، تجدد عندها الأمل، وأصبح حلم فارس الأحلام بالحدث القريب، بدأت تسأل الغيوم والنجوم الوحيدين المطلعين على هوية الفارس، ما اسمه.. وما شكله ما لونه ما طوله، هل لديه حبيبة أم لا؟ أسئلة تراودها، خائفة أن تسبقها امرأة إلى قلبه، وهي التي لم تصدق متى بدأ هذا القلب يدق؛ وحتى ينقلب الخيال إلى الواقع، ترنحت وأخذت نفسًا عميقًا وجلست في نافذتها المعهودة، ووضعت يدها على ركبتيها، وعادت برأسها إلى الحائط، وغاصت في الخيال مجددًا، والنبضات أسرع من الفهد

(١) برا: أخي.

خلف الفريسة ..الحبيبة.

هدأت الأساطير البطولة في لياليك الملاح

والذكريات البيض والمهر الذي ركب الرماح

والحب والأمجاد والسيف الذي حلَّ الكفاح[١]

* * *

لاحظ أهل المدينة حركة غير اعتيادية من قبل الأمن والجيش، وعند المساء وبعد حلول الليل، دخلت المدينة عشرة أرتال عسكرية وناقلات جند كمؤازرة من إحدى القطع العسكرية في مدينة القامشلي-قامشلو، واتخذوا من مدرسة مهجورة ثكنة عسكرية لهم، وهذه المدرسة في قلب مدينة عامودا وفي قلب الأحياء السكنية.

وفي الصباح استيقظ الأهالي على إغلاق جميع منافذ المدينة ومخارجها، وعلى القرارات الجديدة التي صدرت من قبل القيادة العسكرية، وبدأوا بحملة مداهمات على البيوت وحملة اعتقالات واسعة، لمن تجاوز ١٦ عامًا وما فوق، ومنع التجول بعد الساعة الخامسة ليتم حبس الناس في البيوت.

أثار ذلك غضب الناس، وخرجت مظاهرة ضد هذه القرارات، يهتفون ضد العسكر وضد البعث، وحدث تماس بين الأمن والمتظاهرين، وتحول إلى شجار ثم إلى اشتباكات واسعة، فالمتظاهرون اتخذوا من الأزقة جبهة لهم يرشقون الأمن بالحجارة، والأمن اتخذ من الأسوار المحصنة جبهة لهم، وأطلقوا الرصاص الحي على المتظاهرين.

(١) قصيدة كردستان للشاعر الفلسطيني محمود درويش.

الكمين المحكم

كان أغلب الشباب يتوارون عن الأنظار ولا ينامون في البيوت تجنبًا لأية مداهمة، وصل خبر إلى سعد أن آراس تم اعتقاله أثناء مداهمة منزله، سرعان ما اجتمع مع زملائه في منزل الدكتور، وأول خطوة تم القيام بها إفراغ القبو من السلاح خشيةً من اعترافات قد يدلي بها آراس، فهم يدرون علم الدراية تلك الأساليب القذرة والوحشية التي تمارسها السلطة من التعذيب بحق المعتقلين، وبدأوا البحث عن مكان آمن ولم يجدوا، وما كان أمامهم سوى دفن السلاح تحت الأرض في أحد البساتين أو المزارع، وضعوا السلاح في أكياس من الخشخاش، وحملوها على الأكتاف، وبعد المغيب اتخذوا طرقًا زراعية للتنقل، وعند كل خطوة كانوا يجدون دورية فيختبئون وأيديهم على الزناد، حتى وصلوا إلى إحدى الأراضي، تذكر نادر أنه يعرف بئرًا ناشفًا قريبًا من الحدود التركية، كمكان آمن، ذهبوا إلى هناك وكان البئر مهجورًا ناشفًا مليئًا بالتراب حتى ربعه، نزل ثلاثة منهم إلى قاع البئر وحفروا حفرة صغيرة ووضعوا السلاح فيه، وكان الاختيار جيدًا وبعيدًا عن الحركة وعن أية شبهات، وقرروا التوجه إلى أرض علي

باتجاه الجنوب ليبقوا هناك عدة ليالٍ حتى تهدأ الأمور.

كان القيام بأية عملية في هذه الظروف أشبه بالانتحار، فالدوريات تتحرك بشكل واسع النطاق، وأية حركة أو رصاصة تُطلق سيتم تطويق المكان خلال دقائق، كان عقل الثوار عند زميلهم آراس الذي يتعرض هذه الأثناء للتعذيب وهم مكتوفو الأيدي، ظلوا في أرض علي بعيدًا عن المدينة، وكان من حولهم أراض زراعية، كانوا يتناوبون على الحراسة حتى لا تغافلهم أية دورية، عند الليلة الثانية، وعند المساء وهم مستلقون على الفراش، رفع سعد رأسه عن الوسادة، وبدأ يفكر.. انتبه عليه صحبه، فسأله برزان الذي كان أقربهم مسافة منه.. شبك؟

سعد وهو مرتبك: لك إذا نحن ما قمنا بأي عملية خلال هاليومين راح يفكروا أنهم اعتقلوا المجموعة«يعني نحن»، وهيك راح يزيدوا من تعذيب المعتقلين أشد أنواع التعذيب حتى يعترفوا!!

رفع شيخموس رأسه ونظر إليه.. «والله مزبوط يعني نحن هلا عم نزيد من تعذيب المعتقلين».

سعد: يعني لو نقوم بعملية وحدة بس، لنثبت أنو نحن لساتنا برات السجن حتى ما يعذبوهم.

أمرٌ لم يكن بالحسبان، حتى غادرهم النوم وتركهم في حيرة من أمرهم. نظروا إلى بعضهم بعضًا، فليس من الممكن الدخول بأي اشتباك مع الأمن، فهي معركة خاسرة بكل تأكيد، إذن عليهم البحث عن أية ثغرة.

كانوا يقطنون في غرفة طينية، لها نافذة واحدة فقط بمساحة متر في متر، مغطاة بقطعة قماش، والمكان كله عبارة عن هذه الغرفة، وهذه طبيعة كل

الأراضي الزراعية في المنطقة، لأن الغرفة تستخدم لاستراحة الفلاحين ولوضع الأدوات الزراعية لا أكثر.

هرع برزان من مكانه لينادي «لقيتها»، قام الجميع وجلس بوضعية القرفصاء على ركبتيه بانتظار أن تخرج الكلمات من فمه.

- هلا نحن بنقدر نعمل كمين عند «الچم» تحت الجسر، بنبعت خبر أنو الجنود المختفين مرمين تحت الجسر وراح تجي دورية كبيرة لتدخل تحت الجسر ليتأكدوا، نحن بنكون بالداخل تحت الجسر بالعتمة، وأول ما نشوفهم عمقوا بنرشهم رش.

شيخموس: فكرة حلوة بس فورًا راح يطوقوا المكان ويسكروا المدخل الخلفي ويرموا القنابل من الفتحات الصغيرة من فوق الجسر، بس بنقدر ننفذ الخطة بطريقة تانية.

أعار الجميع انتباهه إلى شيخموس، وكأنهم وجدوا دليلهم إلى الهدف، فهم يبحثون عن أية قشة ليتعلقوا بها.

- بنبعتلهم عن طريق الجواسيس تبعهم، هني راح يجو ليتأكدوا، نحن بنكون حاطين داخل الجسر قنينة غاز «أسطوانة غاز» وبنكون فاتحينها على الأخير، بس يدخلوا بنرمي قنبلة يدوية بطريقة ما.

نادر: هي أقرب للتنفيذ، بس شلون راح نرمي القنبلة والمكان راح يكون معبا بالأمن والجيش؟

علي: من الطريق الثاني.. هلأ الجسر طويل من عند شارع الجامع لحتى بعد كراجات قامشلو، والمخفر، واحد منا بيدخل تحت الجسر ومعو قنبلة وبيمشي المسافة المطلوبة وبس يسمع صوت الدورية إنهم اقتربوا.. بيرمي

القنبلة وبيهرب، وبكون في تنين واقفين عند مدخل الجسر ليغطوه لما يدخل ويطلع، وطبعًا لما يصير الانفجار، الناس كلها راح تركض للمدخل إلى من الطرف الثاني ونحن بنركض تجاه المقبرة وبنكون بلبسنا وملثمين.

بدأت الخطة تنضج وشارك الجميع في الإعداد لها، كانوا يدركون خطورة الأمر، وتجنبًا لأية كارثة، اختاروا توقيت تنفيذ العملية بين الساعة الرابعة والخامسة عند المساء، تكون الشمس في ذلك الوقت تتجه للمغيب، ويكون وقت حظر التجول قد اقترب، وكانت الخطة اللجوء إلى المقبرة القريبة من المكان والخروج من الطرف الثاني للمقبرة باتجاه الأراضي الزراعية حتى يصلوا إلى بستان علي، ووقع الاختيار على نادر ليدخل تحت الجسر كون جسمه خفيف ويستطيع الركض بشكل سريع، واختير علي على أن يقوم بإيصال الخبر إلى أحد الجواسيس، فعلي كان يشك بأحد جيرانه وهو صاحب بقالة صغيرة على أنه مخبر للأمن السياسي، وقد لمحه أكثر من مرة يخرج من فرع الأمن السياسي، كانت مخاطرة كبيرة. استقر الرأي على ذلك، واستسلموا للنوم، وعند الصباح الباكر استيقظوا وبدأوا يعدون العدة، سلكوا طريقًا زراعيًا خارجيًا مبتعدين عن الشوارع الرئيسية والعامة، واتجهوا نحو الشمال إلى البئر، أخذ كل شخص منهم رشاشًا ومخزنين وبيد كل واحد منهم قنبلة يدوية من باب الاحتياط، ذهب علي إلى الحارة، وكان الآخرون قد سبقوه إلى الموقع ليعدوا العدة، وأخذوا معهم أسطوانة غاز، وعند الساعة الثالثة والنصف توجه علي من منزله إلى البقالة.

صاحب البقالة: أهلاً وسهلاً جار وينك صرلك كم يوم مو مبين؟

- هون بس شغل متل ما بتعرف.. اعطيني كيلو سكر.
- اي تكرم.

علي: دريت بالإشاعة الطالعة؟ قال في ريحة فطيسة من «الچم» تحت الجسر من عند الجامع، وما بعرف سمعت بالسوق عم يحكوا هدول غالبًا هني العساكر المخطوفين قاتلينهم ورامينهم بالچم، وريحتون طالعة.. بس والله يا جار ما عاد عرفنا شي.

سرح صاحب البقالة قليلاً وأردف: معك حق والله كلو حكي.

خرج علي من عنده ووقف على مقربة من البقالة مترقبًا ماذا سيفعل جاره؟ فكر صاحب البقالة مع نفسه ووجد أن الأمر قد يكون صحيحًا وأقرب إلى الواقع، قام بإقفال الباب وخرج على بسكليته، أكثر وسائل التنقل في المدينة، اتجه نحو فرع الأمن السياسي، كان علي يراقبه من بعيد وتأكد من أمره، سارع على الفور إلى أصدقائه وأكد أن الدورية قادمة.

دخلوا تحت الجسر وكلما كانوا يقتربون، كانوا يشمون رائحة كريهة، وجدوا الجثث على ما هي، كان المكان موحشًا ومقززًا، وضعوا عند الجثث أسطوانة الغاز وقاموا بفتحها، تراجع الجميع إلى المدخل الخلفي وبقي نادر في الداخل، كانت المجموعة عند المدخل ولسان حالهم يقول: كان الله في عون نادر على تلك الرائحة، بعد ربع ساعة سمع نادر حركة في الخارج، كان برزان قد أوكل إليه أن يكون في الجانب الرئيسي وعلى مقربة من المنطقة حتى يتأكد من قدوم الدورية لأن الطرف الخلفي بعيد، سارع برزان إليهم عن طريق البسكليت وأخبرهم بقدوم الدورية، ركض سعد إلى الداخل ليخبر نادر وخرج مسرعًا، كان العساكر يقفون عند المدخل

بانتظار قدوم مديرهم والطبيب الشرعي، تم تطويق المكان مع وصول عدة ضباط، دخلوا تحت الجسر وبدأوا يسيرون ببطء، سمع نادر صوتهم وهم يتأففون من الرائحة، وسرعان ما استعد، وعندما اقتربوا تراجع إلى الخلف ونزع مسمار الأمان عن القنبلة ودحرجها إلى الأمام وركض بشكل سريع، وسرعان ما حدث انفجار ضخم، عرف الأصدقاء بنجاح العملية وعندما وصل إليهم نادر هرعوا من المكان فورًا متجهين نحو القبور القريبة منهم.

قُتل الضباط والعناصر والطبيب الشرعي تحت الجسر، ومن كان في الخارج لم يُصب، لأن الانفجار حدث في العمق بعيدًا عنهم، كانت ضربة قوية جدًا للقائد العسكري.

اتخذ الثوار طريقًا نحو القبور للانسحاب، ولكن هل سيراهم أحد والشمس لم تغب بعد؟

* * *

ما هي إلا لحظات حتى تم تطويق المنطقة ولم يبق أحد في كافة أرجاء عامودا لم يسمع صوت الانفجار، تجمع الناس على الأسطح ووقفوا على الطريق وهم يتفرجون على إجلاء جثث الجنود تحت الجسر، وحال القلب يرقص فرحًا بهذه العملية المزلزلة، كان القائد العسكري قد أصابته حالة من الهستيريا وبدأ يكفر بالذات الإلهية ويشتم ويقذف بأبذأ العبارات، ويريد الوصول إلى رقاب الثوار بأي ثمن وكيف ما كان، استدعى إلى مكتبه وجهاء المدينة وهددهم بأن من يتسترون على من سماهم بالمجرمين والإقطاعيين سيعاقبهم، وطالب الوجهاء بالمساعدة بالكشف عن هويات هؤلاء المجرمين، إلا أن الوجهاء وبكل تأكيد نفوا أي علاقة لهم بهؤلاء

الشباب ولا يعرفون عنهم أي شيء، أصدر القائد العسكري قرارًا بالحكم بالإعدام شنقًا على كل من استخدم السلاح «الثوار» وكل من يتستر عليهم وكل من يعرف عنهم معلومة ولا يدلي بها!

* * *

وصل الثوار إلى بستان علي وهم يضحكون ويلهثون من الركض والتعب، كان هذا اليوم احتفالاً لهم، قرروا إبقاء السلاح معهم وعدم أخذه إلى المخبأ، لكن هناك معضلة يجب إيجاد حل لها، وإلا حياة علي بخطر؛ سيتم فتح تحقيق مع المخبر حول كيفية حصوله على تلك المعلومة وبالآخر سيصلون إلى علي، تناقش الثوار حول هذه النقطة، انقسموا إلى فريقين، قسم يريد قتله بعد إثباتهم بالدليل القاطع أنه جاسوس وخائن، ولكن القسم الثاني وجدوا موضوع قتله ليس بالأمر السهل، ولا يريدون الوقوع في الظلم كونه أب وله أبناء وزوجة ولا علاقة لهم بفعلة الأب الشنيعة، ولا يريدون أن يكبر الأبناء وهم حاقدون على أبناء جلدتهم وشعبهم، لكنهم قرروا نفيه خارج عامودا ولكن على طريقتهم.

هجار، يقطن قرب المقبرة، عندما سمع صوت الانفجار هرع راكضًا فوق السطح ليعرف مصدر الانفجار، وعندما وجد الدخان يتصاعد من عند الجامع الكبير، بدأ ينظر بذلك الاتجاه، لفت نظره خمسة أشخاص يرتدون الأسـود، ملثمين، يركضون بشكل سريع وكأن هناك من يلاحقهم، ولاحظ بيدهم السلاح، وسرعان ما اختفوا بين المقابر.

المدينة رغم كل ما حل بها من قرارات وعقاب جماعي، إلا أنهم يتفاخرون بهؤلاء الثوار المجهولين، والفرحة كبيرة في قلوبهم، ومع كل

عملية يزداد سرورهم، في اليوم التالي نزل هجار ومعنى اسمه«زاهد»، إلى السوق وجلس مع أصدقائه وأقسم لهم أنه شاهد الثوار بأم عينه، ولكنهم لم يصدقوه بدايةً، فيما بعد لامسوا الصدق في كلامه؛ جلس في المقهى وبدأ يسرد لهم رؤيته واجتمع من حوله الناس مُسلمين مسامعهم بكل صدق وشغف، وعيونهم تترقب الحروف تخرج من أفواه هجار، قلوبهم تدق حماسًا، وكل من في المقهى حملوا كراسيهم الصغيرة وتوجهوا نحو طاولة هجار ليسمعوه، وحتى عامل القهوة بدأ ينصت.

بدا المشهد مثل قصص الأولين، عندما كان الناس في ليلة كل خميس يجتمعون في المقهى بعد صلاة العشاء يسمعون «الحكواتي» وهو يسرد لهم قصص الأبطال والثوار، وحكايات الجبال، لم يختلف هذا المشهد عن ذاك.

هجار مستأنسًا بهذا الاهتمام: ياو.. لما سمعت صوت الانفجار ركضت فوق السطح لأعرف شو في، لو فقمتوا اتطلع يمين شمال، وما شفتلكن غير خمسة بأيدهن السلاح عم يركضوا ويركضوا لابسين أسود بأسود ومقنعين، يول بشرفي متل الجن.

أحد الجالسين: عرفت حدا منون يول هجار؟!

هجار متعجرفًا، يلوّح بيده ويرد بعصبية: يا أخي لا تقاطعني، خلي الواحد يعرف يحكي، بعدين كيف بدي أعرفهم وعم قلك ملثمين!! ودخلوا المقبرة واختفوا، وأنا عم براقب أنو بلكي يطلعوا أو ألمحهم مرة تانية.. ما شفتهن ياو .. كأنو المقبرة بلعتهن يول.

بدأت الأصـوات من الجالسين ترتفع قائلة: الله يحميهم.. ليرد الآخرون: أمين.

وانتشر الخبر أن عينًا لمحت الثوار ورأتهم دون أن تعرفهم.

* * *

توجه علي في عتمة الليل ومعه «كفن» فيه حجارة ورسالة، ورماها في منزل المخبر، استيقظ المخبر من نومه بعد رشق نافذته بالحجارة، خرج إلى الحوش، وجد كفنًا وبداخله حجارة ورسالة مفادها، أمامك خياران: الأول أن تبقى في عامودا ونحن نقتلك بعد أن تأكدنا من خيانتك، والثاني أن ترحل من عامودا وتهرب مع أبنائك إلى تركيا، وتهرب من المصير الذي ينتظرك، حتى الأمن لن يتركك، مفرزة الأمن السياسي ستتهمك بالتواطؤ معنا في إعداد ونجاح الكمين، لا وقت لديك.. وقد أعذر من أنذر.

أراد الثوار من ذلك أن يخلقوا في ذهنه هاجس أن الأمن سيتهمه بالمشاركة في نجاح الكمين، والهدف من ذلك أن يخرج من سورية فارًا بأبنائه، لم يستطع المخبر النوم من شدة التفكير، عجز عقله. ومن حُسن حظ الثوار أن المخبر عندما قدم المعلومة لم يذكر اسم علي، وقدمها على أنها إشاعة منتشرة في المدينة، عند الصباح كان المخبر قد غادر المدينة باتجاه مدينة قامشلو-القامشلي مع أبنائه ليعبر إلى تركيا بعد أن وصل إلى يقين أن في بقائه حتفه عاجلًا أم آجلًا، أدرك أن الثوار أعطوه فرصة ليكّفر عن ذنبه. أرسل مدير مفرزة الأمن السياسي خلفه للتحقيق معه، فعاد العناصر إليه ليخبروه أن المخبر مفقود.

اقتحام السجن ومعركة المقبرة

في اليوم الذي اختفى فيه هذا المخبر من المدينة ارتاح الثوار من ذلك التوتر الذي واكبهم من أن يعاند المخبر ويبقى في المدينة ويفشي عن علي، بدا عليهم الارتياح بشكل كبير وبدأوا يشعرون بالنصر، عرف الثوار عن الأحكام التي صدرت بحقهم، استهزأوا بذلك، وما زادهم ذلك إلا إصرارًا وقوة، ففكروا باقتحام سجن عامودا!!.

سجن عامودا ليس كأي سجن، حيث البنيان العالي والمحصن، والسجن الصلب، والأسوار الصماء، والإجراءات المعقدة، على العكس، كان السجن والمخفر معًا، يقع السجن خلف البريد عند«الچم» على يساره كراجات قامشلو-عامودا، في منتصف المدينة، وعلى يساره بأمتار سوق عامودا«عراسا»، أسوار السجن بسيطة، بناؤها من الطين! وعبارة عن ثلاث غرف مساحاتها صغيرة جدًا، أبوابها حديدية مهترئة، إن تعمد رجل خلع الباب بكل قوته لفعله، كان ذلك كله نتيجة الإهمال بحق كل ما يخص هذه المدينة والمدن الكردية في سورية كسياسة متبعة من قبل حزب البعث، وإن وضع السجين في الظروف العادية بباله الهرب من

السجن لهرب إذا أراد، أحب الثوار الفكرة، وكان الهدف خلق فكرة عند السلطات إن عدد الثوار كبير ولديهم قوة عسكرية كبيرة تخوّلهم اقتحام السجن وتحرير المعتقلين. الفكرة خطيرة، كون السجن هو نفسه المخفر ويقع إلى جانب السجل المدني ومبنى مديرية الناحية وفي قلب المدينة، وقريب من كافة المؤسسات الحكومة تقريبًا، غير أن عدد الثوار خمسة أشخاص فقط، وذخيرتهم شحيحة وإذا ما خاضوا معركة ستنفذ الذخيرة بعد فترة قصيرة.

كان سعد من المدافعين عن الفكرة مبررًا: «الدوريات راح تكون بعيدة بالأحياء وما راح يتوقعوا للحظة فكرة الهجوم على السجن باعتبارها منطقة أمنية»، لكن نادر كان يجد في ذلك خطورة شديدة: «ومع إطلاق أول رصاصة والثانية فورًا راح تجي مؤازرة».

لكن علي اقترح فكرة التسلل إلى السجن: «نحن بنقدر نتسلل للسجن من الخلف، بندخل مبنى البريد بنص الليل وندخل السجن من فوق السطح»، وأيّد شيخموس الفكرة : «صحيح أنها فكرة خطيرة بس نسبة النجاح فيها أكبر». استرخى سعد بعد تجاوب زملائه للفكرة وبدأ بشرح فكرة التسلل إلى السجن.

- واحد بكون قدام البريد متخبي بالسيارة لحتى يكون على أتم الاستعداد، ولما بنخلص بنرجع بنفس الطريقة ويهرب فينا من المكان.. الأربعة التانيين بيدخلوا البريد وبنطلع فوق السطح ومن سطح لسطح بنصل لسطح السجن، بننزل بكل هدوء عند باب المخفر، بالعادة بكون في عنصر واحد على الباب بنحط السكين على رقبتو وبندخل جوا وبنفتح

باب السجن.. بكون كل العناصر أصلًا نايمين، معروفين جماعة المخفر، وما في غير ٣ بيسهروا للمناوبة، بنحطهم كلهم بغرفة ونسكر عليهم بعدما نشلحهم السلاح، ونفتح الباب للمعتقلين ونحن فورًا بننسحب بنفس الطريقة من خلال السطح.

علي: بكل هي البساطة؟

- والله يا خال مو بكل هي البساطة لأنو في مخاطرة وما بنعرف المفاجآت شو هي، بس بنفس الوقت بهي البساطة، لأنو كلنا بنعرف كيف هو السجن وشو طبيعة العناصر وبنعرف عاداتهم.

لا أحد يعرف أين وضعوا آراس؟ ولكن إذا لم يجدوا آراس فسيخرج غيره، وبالمقابل ستكون ضربة قاسية للجيش. خلد الثوار إلى نومهم ليعطوا للبدن حقه في الراحة حتى يستيقظوا في اليوم التالي نشيطين لتنفيذ عمليتهم.

في صباح اليوم التالي، دخل علي إلى البستان ليقطف الثمار ويأتي بالحليب الطازج والعسل الصافي، تناولوا فطورًا شهيًا، توجهوا إلى مخبأ السلاح، عليهم إخراج كافة الأسلحة لهذه المهمة التي في ظاهرها لا تحتاج إلى اشتباك، ولكن لا أحد يدري باطنها، وما تخبئه هذه المهمة من مفاجآت، فمهمتهم في المستنقع الأمني.

ساروا من الطرف الجنوبي إلى أقصى الطرف الشمالي من المدينة حتى وصلوا إلى المخبأ، وكان عليهم أن يسلكوا الطرق الزراعية كونهم يحملون أسلحة، سلكوا الدرب حتى وصلوا إلى الشارع العام الذي يفصل بين طرفي المدينة، وهنا يتحتم عليهم دخول المدينة والأحياء السكنية، فاقترح

عليهم برزان أن يتخذوا طريقًا من خلف الصوامع باتجاه قرية«حسين رومي» التي تبعد عن المدينة حوالي ٥٠٠ متر، ويلتفوا من الخلف من الجنوب إلى الشرق حتى يصلوا إلى أقصى الشمال، ويتطلب ذلك سيرًا طويلًا على الأقدام، فعلوا ذلك فهذا احتراز وحذر من كل شيء، وتجنبًا للدوريات وعيون الجواسيس، كانوا يسيرون بين البساتين والمروج الخضراء، وهم يتذكرون ثوار الجبال، وكيف كانوا يقطعون المسافات الطويلة سيرًا على الأقدام، تحت أرجلهم يتبخر الغبار فالذين يدوسون هم الثوار، وإن لم يكن هناك رياح فيكفي لهيبتهم أن تهز الأزهار، يمشون بين أرق الكائنات، بين الفراشات بين الأزهار، رق القلب ليزداد الحماس حتى يحرروا أسر المأسورين، هيهات هيهات الخنوع.

وصل الثوار إلى الموقع وبدأوا بالتجهيزات، ذهب شيخموس إلى المدينة قبل الساعة الخامسة ليدبر سيارة ومعه نادر لجلب بعض الزاد بعد هذا المسير، وما زال الوقت طويلًا أمامهم حتى منتصف الليل، اجتمعوا جميعًا الساعة الثالثة عصرًا ومعهم سيارة، وكان عليهم دخول المدينة قبل الساعة الخامسة حتى لا يدخلوا حظر التجول ويشتبكوا مع الدوريات، تناولوا ما توفر من الطعام وبعد أخذ قسطٍ من الراحة، تحركوا ولكن كان من الصعوبة دخول المدينة بالسيارة أو حتى مشيًا على الأقدام ومعهم السلاح، وصلوا إلى أقرب نقطة من المدينة وجلسوا في منزل طيني مهجور، دخل شيخموس قبل الساعة الخامسة إلى قلب المدينة وركن السيارة أمام البريد وغادر عائدًا إلى صحبه، بدأت الشمس تغيب وحل بدلًا منها الظلام، ينتظرون الساعة الثانية بعد منتصف الليل بفارغ الصبر،

كانوا جالسين، بعضهم يشغل نفسه بالتراب، والآخر نزل ساجدًا يدعو، وآخر يداعب سلاحه.

حان الوقت لدخول المدينة والذهاب إلى الموقع عند البريد لينتظروا هناك ساعة الاقتحام، تحركوا بعد أن أقبلوا على صلاة ركعتين لوجه الله، دخلوا المدينة بكل حذر، مرتدين لباسهم المعتاد الأسود، يمشون بجانب الحائط وأكثر الزوايا ظلامًا، ويتنقلون من حي إلى آخر ويتجنبون الدوريات التي تمر والمغريات التي قاوموها، كانت الدوريات سهلة المنال، إلا أنهم تمالكوا أنفسهم، وصلوا إلى الشارع العام الفاصل بين أطراف المدينة، وبدأوا يقطعون الشارع واحدًا واحدًا لكثرة الدوريات التي تدور هناك، الشارع الرئيسي يضم الأفرع الأمنية: أمن الدولة، الأمن السياسي، الأمن العسكري. وصل الثوار إلى البريد وقفزوا من فوق بابه الحديدي إلى الباحة، صعدوا فوق البريد، وأخذ وقت التنقل للوصول إلى البريد أكثر من ساعة، جلسوا فوق مبنى البريد، ونصف المهمة أُنجزت، ارتاحوا قليلًا وتنفسوا، وهنا فاجأهم برزان قائلًا: يا أخي بالعقل.. كيف كل هالمساجين راح نطالعهم ونطلب منهم يروحوا على بيوتهم وكل هالدوريات بالشوارع!!.

نظروا إلى بعضهم بعضًا ولسان حالهم يقول، نحن خمسة وجدنا صعوبة في التنقل، فكيف لكل هؤلاء المعتقلين أن يتحركوا دون أن تلمحهم دورية، وليقول الآخر لنفسه، وكأن خطتنا ناقصة. كان شيخموس يجلس معهم حتى يتحركوا ليعود إلى الأسفل ويجلس في السيارة، وسيتسلل إلى السجن: علي وبرزان ونادر وسعد.

علي: ما في غير إنه بعدما نركب السيارة نمر قدام الناحية«المديرية» ونطلق الرصاص على الحرس وهيك هني فورًا راح يطلبوا دوريات عبر اللاسلكي، وحتى ما نتحاصر برأيي ننسحب للمقبرة وهني راح يلاحقونا!

سعد: مزبوط وقبل ما تصل كل الدوريات على المقبرة بنكون نحن اشتبكنا شوي مع الدورية اللي لاحقتنا وفورًا بننسحب.

برزان مستغربًا: وين ننسحب .. حول المقبرة كلها أراضي، إذا هربنا باتجاه الأراضي راح ننكشف إلهم.

علي: عندي فكرة ونحن عم نشتبك معهم، بيقوم واحد منا وبيكسر قفل غرفة الولي[1] وبنتخبى فيها لغاية الصبح.

نادر: بتمزح.. نضل بغرفة الولي للصبح!!

علي: مافي غير هيك أو نلغي العملية وننسحب.

سعد: شو ننسحب.. برأيي هذا أفضل حل، مع أنو صعب نتخبى بالمقبرة للصبح.

فرضت الخطة الجديدة نفسها، لأنهم لم يحسبوا الأمور من البداية ويبدو أن هذه الليلة لا نهاية لها، أو بداية جديدة لهم، فالخلاص من المهمة الأولى لا يعني الهروب من المهمة الثانية.

دق ناقوس الوقت، نزل شيخموس إلى باحة البريد، وبقي خلف

(١) الولي: ظاهرة منتشرة في كل أرجاء المحافظة والمنطقة، كمزار «قبر» حيث يتوافد الناس عليه لطلب البركات والشفاعة لكونه من الرجال الصالحين، وغالبًا ما يتم وضع قبورهم في غرف كبيرة ولا يدخل عليها أحد، ويكون المزار من الشباك للزوار.

الباب ولم يذهب إلى السيارة، بقي في مكانه حتى تمضي عشر دقائق على ذهاب رفاقه، خوفًا من أن تمر دورية وتلمحه داخل السيارة، كان قلب شيخموس يضرب قلقًا على أصحابه، فمهمتهم خطرة جدًا، كان الثوار الأربعة يتنقلون من سطح إلى آخر بكل حذر حتى وصلوا إلى سطح السجن، وقلوبهم تخفق وتغلي فالمجازفة كبيرة، نظروا إلى بعضهم بعضًا وبدأت المهمة، تولى برزان مهمة النزول أولاً إلى الأرض ليباغت الحارس الذي يقف على الباب، نزل برزان بكل تروٍ ووضع سكينته على رقبة الحارس وطلب منه عدم إصدار أي صوت حتى يبقى على قيد الحياة، نزل باقي زملائه، ودخلوا المخفر، كان المخفر صغير المساحة جدًا، عبارة عن ثلاث غرف، واحدة منهم لرئيس المخفر وتكون غرفته على يمين الباب الخارجي، وغرفتان للتحقيقات، وبنفس الوقت مهاجع للعناصر المناوبين، وكان هناك ممر صغير وضيق لا سقف له يؤدي إلى باحة السجن الممتلئة بالمعتقلين، كان عددهم يفوق ٣٥٠ جلهم من الشباب، كانت الغرفة الأولى«غرفة رئيس المخفر» فارغة، دخلوا إلى المهجع الأول فوجدوا عنصرين يشربان«المتة» مشروبهم المفضل، وضعوا السلاح على رأسهم وطلبوا منهم الهدوء حتى لا يستيقظ العناصر النائمون، تم تكبيلهم وربط أيديهم وأفواههم، فتح نادر وسعد باب السجن، غرف السجن طينية لها سور طيني وفوقها أسلاك شائكة تفصل بين ممر المخفر وباحة السجن، وعلى الشكل الدائري توجد ثلاث زنزانات، وسور آخر يؤدي إلى الجانب الخلفي لمديرية الناحية، كان برزان وعلي يتوليان ربط العناصر النائمين بالسرير، وأخذوا الأسلحة المتواجدة في المكان، ركض

السجناء عند الأبواب، طلب منهم نادر الهدوء التام بحركات بيده، ومثلها بفمه«هس»، تم إغلاق أبواب المهاجع على العناصر المكبلين في مناظر مذلة لهم، طلب سعد من المعتقلين عدم إصدار أي صوت والانتظار لخمس دقائق، حتى يسمعوا صوت أول رصاصة، وبعدها الخروج والمشي إلى جانب الحائط في العتمة بشكل منحنٍ، وطلب من الجميع التوجه نحو الأحياء الشمالية، لأنهم سيلهون الدورياتٍ ويسحبونهم نحو المقبرة جنوبًا، لم يجدوا صديقهم آراس وكان ذلك مؤسفًا، لكن الإفراج عن هذا العدد الهائل يبث السرور في القلب، صعد الثوار فوق السطح وعادوا بشكل سريع، كان المعتقلون يلوحون بأيديهم لهم بالشكر والدعاء، كان مبنى الناحية بجانب المخفر على الطرف الأيمن.

كان شيخموس الذي أصبح داخل السيارة منحنيًا، ومتوتر الذهن، وما هي إلا دقائق حتى وقعت عيناه على باب البريد وهو يهتز، رأى رأس نادر يتفقد الشارع يمينًا ويسارًا، حتى دخلت الطمأنينة إلى قلبه وسارع إلى تشغيل السيارة، كانت السيارة من نوع بيكاب، وذهب إليهم، ركبوا السيارة وطلبوا منه التحرك وأن العملية نجحت، جلس علي بجانب شيخموس في المقعد الأمامي، وصعد برزان وسعد ونادر خلف السيارة في الهواء الطلق، صوبوا أسلحتهم وتوجهوا إلى آخر الشارع وانعطفوا يمينًا باتجاه الناحية وبدأوا يرشقون المبنى والحرس، وقُتل الحارس على الفور، وتحركوا يسارًا تجاه القبور، تم طلب المؤازرة ولاحقتهم سيارتان لتقصي أثر الهدف حتى لا يضيعهم ويهربوا، وطلبوا عبر اللاسلكي من باقي الدوريات التوجه نحو الجنوب حيث الهدف يحاول الفرار، كان المعتقلون

ينفذون الخطة وما طلب منهم بكل حذر ولم يلفتوا الأنظار، وما ساعد هذا العدد الكبير من الفرار إلا انشغال الدوريات عنهم، انقطع صوت الرصاص قليلًا حتى وصل الثوار إلى المقبرة وأخذوا مواقعهم وأماكنهم، وتوجه نادر لكسر قفل غرفة الولي، وبدأ الآخرون يطلقون النار على السيارات التي وصلت إلى المكان لمنعهم من التقدم، سرعان ما وصلت الدوريات الأخرى لتبدأ معركة مفتوحة، العسكر هدف واضح للثوار كونهم في نقطة مكشوفة، بدأوا يختبئون خلف السيارات، أما الثوار فهم غير مكشوفين، ويختبئون خلف القبور، وتعد المقبرة بقعة مرتفعة قليلًا ويقع موقع العسكر في الأسفل. رصاصة العسكر تصيب في كل الأحوال الذين هم موتى بالأساس، والثوار يرون الهدف ويرون كم يصيبون، وبقي عدد الثوار مجهولًا للعسكر.

بدأت حفلة شرسة من تبادل إطلاق النار الكثيف من كلا الطرفين، تفرق الثوار بين القبور لتمويه العدو بعددهم، لم يبق أحد في عامودا ولم يخرج فوق الأساطيح كما هي العادة لمعرفة مصدر النيران، القلوب تتوسل للباري أن يمد الثوار بالنصر المؤزر ويثبت أقدامهم، سعد يؤشر للجميع برمي قنابل يدوية على سيارات الأمن بشكل تدريجي والانسحاب إلى الغرفة لأن المؤازرة الكبيرة ستصل بعد دقائق وسيتم تطويق المقبرة من كافة الاتجاهات وتصبح النجاة مستحيلة، قام علي كأول شخص ورمى قنبلته وانسحب وتلاه شيخموس وانسحب، ولحقه نادر وبعده برزان، وبدأت الانفجارات وتطايرت الجثث، والدخان يصعد من السيارات وبعض العناصر ينسحبون هربًا، رمى سعد قنبلتين وانسحب الآخر إلى

الغرفة وأغلقوا الباب بالحديد «الجنزير» وأفواه البنادق مصوّبة نحو الباب خشيةً من كشف أمرهم، وكانوا يلهثون تعبًا، فهذا هو الاشتباك الأول من نوعه مع الأمن وجهًا لوجه وحتى اللحظة نجحوا، توقف هدير الرصاص بعد سلسلة انفجارات وقتلى الأمن في كل مكان، وانسحب بقية العناصر إلى نقاط متأخرة خوفًا من المزيد من القنابل، ولم يتجرأوا على التقدم حتى وصلت المؤازرة الكبيرة، وقاموا على الفور بتطويق المقبرة بشكل دائري واقتحموها، قلوب العناصر تدق رعبًا، للمكان هيبته ورهبته وخوفًا من خروج شبح خلف أي قبر ويفتح عليهم النيران، تجاوزت الساعة الثالثة فجرًا، سرعان ما عاد الجنود إلى الضابط الذي لم يتجرأ على دخول المقبرة وبقي عند الرتل، وأخبروه أن المقبرة خالية من الأحياء، ليجاوب نفسه وهل كان الأشباح يطلقون النار!

طلب القائد العسكري على الجهاز اللاسلكي من الضابط الميداني إعادة تفتيش المقبرة بشكل أدق وتفتيش المنطقة والأراضي المجاورة بشكل كبير، وبدأ يصرخ عليهم ليعاود الجنود الكرة عدة مرات دون جدوى، كان الثوار يسمعون أصوات أقدام العساكر وهم يحومون حول الغرفة ظنًا أن أمرهم قد اكتشف، وكان أهالي المدينة يدعون أن ينجي الله هؤلاء الأحرار من براثن العسكر.

بدأت الأبواب تدق في هذه الساعة المتأخرة، ظن الأهالي أن الأمن من يدق الأبواب، تقدموا نحو الباب بكل هدوء وحذر .. لينادي رب المنزل بصوت خافت من الطارق؟ ليجاوب المعتقل المفرج عنه.

دخلوا إلى بيوتهم معانقين ذويهم، وبدأوا يروون ما حصل معهم،

وكانوا يخشون من اقتحام الأمن للمنازل وأخذهم مجددًا إلى المعتقل.

حتى الخامسة صباحًا بقيت المنطقة مكتظة بالجنود، كان كل خوف الثوار أن يبقى الجنود في المنطقة حتى إشراقة الشمس ويُكشف أمرهم، ويصبحوا واضحين للعيان، كل ما يساعدهم في هذه الغرفة هو هذا الظلام، فهناك نافذة يستطيع أي شخص رؤيتهم منها، وكانت الأوامر العسكرية للعساكر أن يبقوا في المنطقة حتى الصباح لكي يتمكنوا من الرؤية، لكن الجنود كانوا أسفل المقبرة وانتشروا كالجراد في الأراضي المجاورة، وابتعدوا قليلًا عن الغرفة، وعند الساعة السابعة صباحًا كانت المنطقة كلها ممشطة ولا وجود أو أثر لأي بشر هناك، وكانت المقبرة خالية، والثوار والعساكر أنهكهم التعب، وكان الثوار في الداخل يجهلون ما يحصل بالخارج!

عند الساعة الثامنة أتى رئيس المخفر إلى دوامه فلم يجد الحارس الذي عند الباب، صاح بعالي صوته على الحارس: وينك يا حيوان؟ ليش تارك الخدمة؟ لا مجيب .. وجد الأبواب مفتوحة، هرع إلى المهجع وإذ بالباب مقفل، وباب السجن مفتوح على مصراعيه، دخل إلى باحة السجن ولم يجد أي معتقل! وصل عناصر الدوام الصباحي، كسروا باب المهجع وإذ بعناصره مكبلين، فأصبح ينادي فيهم بأبذأ الشتائم، اتصل على مدير الناحية ليوبخه المدير الذي سيتوبخ من القائد العسكري حتمًا، طلبهم القائد العسكري إلى مكتبه، صفع القائد العسكري رئيس المخفر على وجهه ورماه أرضًا، وكان رئيس المخفر يحمل رتبة النقيب، وصاح فيه.. ولك يلعن... شو بدي قول للقيادة هلق!.. ولك انتو حيوانات شوية

عرصات مانكن قدرانين عليهن.. تفي عليكن حيوانات.

مدير الناحية: سيدي!!

القائد العسكري: خرااس.. جلس القائد العسكري ووضع يده على رأسه ولا يدري ماذا يفعل؟ قبل عدة أيام كمين أدى إلى مقتل عناصر وضباط وطبيب عسكري، واليوم مقتل عشرة جنود وتفجير سيارات وهروب معتقلين، وجرح العشرات من الجنود وتشليح أسلحة.

تجرأ مدير الناحية مرة أخرى وتكلم: سيدي.. أعطي أوامري باعتقال اللي هربوا؟

نظر إليه القائد العسكري بنظرة سخرية: انقلع هنت وياه من قدامي لشوف وما تاكل خ... إلا إذا أنا قلتلك.

كانت لتلك الإهانات والكلمات أثر كبير على نفس مدير الناحية الذي يمتلك نفس الرتبة العسكرية«عقيد» التي يمتلكها القائد العسكري، إلا أن هذا يتبع للشرطة وذاك للجيش ومن مدينة القرداحة حيث لا يعلو أحد عليهم، فهم أبناء مسقط رأس رئيس الجمهورية، وتلك الصفعة التي تلقاها النقيب كانت أكبر مذلة في حياته.

انسحبت القوات من المنطقة الجنوبية وعادوا إلى ثكناتهم، وهدوءٌ حذر يخيم على المدينة، لكن كل من في المدينة يضحك ويتغامز، ٣٥٠ معتقل حُر، وقتلى وجرحى في صفوف الجيش وسياراتهم أصبحت رمادًا.

هيبتهم أصبحت في الأرض، الشباب في المدينة يسألون عن هؤلاء الثوار لينضموا إليهم، لكن ما السبيل إليهم لا أحد يعرف.

حلت الظهيرة، وصل الثوار إلى قرار بالخروج، خرجوا بحذر من

المكان واتجهوا نحو الأراضي حتى وصلوا إلى مكانهم، وخلدوا إلى النوم تاركين الدنيا كلها خلف ظهورهم، تاركين الأهالي يتحدثون عنهم، خلدوا إلى النوم وهم لا يدرون ما إذا كان المعتقلون نجوا حسب الخطة المرسومة أم لا؟

أروقة الدولة بدأت تغلي سياسيًا وعسكريًا، لدرجة الفوران، تلقى القائد العسكري اتصالًا من القيادة أن قائد الفرقة الرابعة العقيد الركن ماهر الأسد في طريقه إلى عامودا!

شكل ذلك صدمة عند القائد العسكري، فمعنى ذلك أن غضبًا قادمًا إما عليه أو على المدينة.

الحنين إلى الماضي

عمان/ نيسان ٢٠١٧

في كل صباح أقوم لأحتسي قهوتي بعد ليلة دامية من البكاء، في معركة خاسرة أخوضها مع النوم، عبثًا أحاول أن أنام الليل من أوله كما سائر البشر، حياتي كلها كذبة وكذبة كبيرة، لا أحد في هذه المدينة يعرفني، من أنا وكيف أتيت ولماذا أتيت؟ ولماذا خرجت من وطني منذ ثلاثة عشر عامًا ؟ كل ما رويته من قصص عبارة عن كذبة ألّفتها، كذبة تؤلمني كل يوم وكل ساعة.. ليتني أستطيع أن أتكلم؛ وإذا تكلمت ما الذي سيتغير.. هل سأرى طبيبي وحبيبتي وأصدقائي، ولمسة حنان من أمي؟ لا. فكلهم أصبحوا من الماضي، وأنا وحدي اليوم أقاوم الحاضر.

الأغاني.. الطعام.. الطقس، كل شيء يذكرني بالماضي، يجرني جرًا هذا الحنين اللعين، أنا متعلقٌ بالمكان والأشخاص والتراب.

قبل عام عندما عرفت أن أحد أقرباء صديقي قادم من سورية، طلبت منه أن يأتي لي بحفنة تراب من تراب وطني.. سخر مني واعتبرها رومانسية زائفة. يا صديقي هل شققت صدري وعرفت أني أتزيف؟ من

نصبك قاضيًا تحكم بلا رحمة؟ هل مشاعر البشر محل للسخرية ؟

حصلت أخيرًا على ما أريد بعد طول انتظار، تمنيت يومًا من الأيام الغابرة أن أسقي هذا التراب بدمي، ولكن لم أنل ذاك الشرف السامي.. واليوم وكل يوم أضع هذا التراب أمامي وأبكي بحرقة لا يعلم بها سوى الله، وأسقي التراب من دمعي.

ما في صدري يبقى في صدري، سرٌ بين العبد وربه، الرب الذي يشهد على عذابي كل يوم وفي كل ساعة، أناجيه بسري وعلني أن يريح فؤادي من هذا العذاب.. لا أخشى شيئًا فكنت دائمًا أواجه الموت دون خوف أو رادع، لكني اليوم أخاف الموت، أخاف أن أدفن في غربتي، فكرة تراودني كل يوم، فهل يُعقل أن وطنًا بكل مساحته ليس لي فيه قبر صغير، وطنٌ حملت يومًا لأجله روحي على كفي، وأدفع الثمن حتى هذه اللحظة من الآهات والويلات، لا يكافئني بشبرٍ طاهر من أرضه لدفني! هنيئًا لمن وجد قبرًا له في الوطن.. وتعسًا لمن يعيش في قصور الغربة.

إن مِتُ فلن يكفيني عذاب الموت، فالموت في الغربة قهرٌ، المصلون عليّ سيكونون غرباء، والذين سأسكن بجوارهم في المقبرة غرباء، فأي بؤس وأي مصير ينتظرني.

أعيش غريبًا، وأكلم الغرباء، وسأدفن بجوار الغرباء.. لا حبيبة تقف على شاهد قبري وتبكي، ولا أم ستزورني كل خميس وتقرأ على روحي الفاتحة، ولا صديق يأتي ليؤنسني بقصص عشقه، المقبرة.. آهٌ من ذلك اليوم الذي كنت بجوار الولي.. كان يومًا عصيبًا منهكًا.. كان يومًا حماسيًا اندفاعيًا خطرًا، كم لهثنا من التعب وكم ارتجفنا من الخوف، ونحن نسمع

أصوات الجنود وهم يحومون حول الغرفة، كم كان يومًا استثنائيًا مجنونًا..
هل يا ترى سأجد في الغربة ولي؟ّ.

أحن إلى خبز أمي..

وقهوة أمي..

ولمسة أمي..

وتكبر فيَّ الطفولة يومًا على صدر يوم .. وأعشق عمري لأني إذا مِتُ أخجل من دمع أمي[1].

(1) (محمود درويش).

حفلة تليق بسيادة العقيد

عامودا / نيسان ٢٠٠٤

كانت شفين وكولي، العاشقتين لهؤلاء الثائرين، تمثلان كل عذارى المدينة.

كولي: بتعرفي شو.. شو رأيك نروح نقاتل معون وندافع عن أرضنا!

شفين وهي تضحك ساخرة: قلتيلي لتدافعي عن أرضنا!

- حبيبتي بطلي بدو وحدة معاه ليصير عندو جيش كبير وكون أنا الملكة.

- والله اللي بيسمعك بصدق ترى ها!!

- تضربي أي.. لك نفسي أشوفو بس لو لحظة!

شفين: شكلك جنيتي.. يعني راح يتركني .. بعيوني اللي متل عيون الغزال، وشفايفي اللي متل الفستق، وشعري اللي متل الحرير ووجهي اللي متل ضو القمر وجسمي اللي متل غصن الريحان، ويطلع فيكي!

كولي ومن غيرتها مسكت كأس الماء ودلت على صديقتها وبدأتا بالشجار.

* * *

تلك الحبيبة الهائمة، ملتهبة الفؤاد، تعانق آهات روحها عنان السماء.. ألا يا أيها الفارس ترجّل في حينا، وتواضع قليلًا وارفع اللثام عن وجهك، ألا يا أيها المغرر ترفق بحق السماء ترفق بحالي، أذوب عشقًا .. أذوب شوقًا لرؤياك، ألا يا من قلبت كياني، وجعلت الخيال واقعًا جميلًا، تعبت الروح سئم الفؤاد، كل نساء المدينة منافساتي والغيرة تكاد تلتهم أحشائي، أيا من تسري في الألحاظ بم أغريك؟ ماذا يعجبك يا مولاي؟

جلست وأرخت بدنها وعادت تنظر إلى السماء وقالت: يااا رب. الحبيبة.

* * *

عاد الثوار إلى المدينة وذهبوا إلى الدكتور، وتجولوا في المدينة وجالسوا الناس ليسمعوا الأخبار، والكل يهلل لهؤلاء الثوار من دون أن يعرفوا أنهم يجالسون الثوار أنفسهم، سرعان ما سمعوا عن أقاويل تتحدث عن قدوم ماهر الأسد إلى المدينة، أثار ذلك خشيةً في قلوب الناس وقلقًا لدى الثوار، فأرادوا استقباله على طريقتهم بحفلة تليق بسيادة العقيد، عدلوا على برنامجهم، اجتمعوا عند الدكتور في القبو، وبدأوا التخطيط على عدة عمليات حتى يتركوا في ذهن ماهر، أنه سيواجه أسودًا حقيقيين إذا ما استخدم القوة.

عند منتصف الليل كتبوا عبارات على الحيطان، مطالبين بإطلاق سراح المعتقلين، ورفع الحصار عن المدينة، وتركوا عبارات تهديد ووعيد.

عند ساحة التمثال أو ساحة الرئيس، كانت تقف دورية بشكل

دائم، كانت الدورية تقف كل يوم عند هذه الزاوية ويتبادلون على شكل مناوبات، لم يكن من الحكمة الهجوم على الدورية كونها قريبة جدًا من فرع أمن الدولة، وعلى بعد أمتار من حواجز عسكرية في المنطقة المجاورة، وكانت الخطة أن ينقضوا على الدورية مثل ما فعلوا في السجن، عند منتصف الليل، توجه الثوار إلى المنطقة، كانت الدورية عند الساحة عند مدخل المدينة من الجانب الشرقي، وخلفهم أحياء سكنية وأمام الساحة من الطرف الثاني أيضًا أحياء سكنية تجاه الشمال وبعض محلات الميكانيك، استغل الثوار الأحياء السكنية في ظهرهم وتقدموا بشكل منحنٍ نحو السيارة من كلا الطرفين وبشكل مفاجئ فتحوا الأبواب ووجهوا أفواه بنادقهم على رؤوس العناصر وطلبوا منهم الهدوء التام.

كان برزان يمسك بيده قنبلة يدوية: بشرفي أي كلب فيكم يغدر راح أرمي القنبلة بحضنو ليصير مية شقفة. دبَّ الرعب في قلوبهم، فهاهم الأشباح وأخيرًا ظهروا أمامهم، قاموا بأخذ أسلحتهم، كان عدد عناصر الدورية ستة عناصر واحد منهم برتبة مساعد أول، تم تقييد أياديهم وأعينهم ووضعوهم في مؤخرة السيارة، وقام شيخموس بقيادة السيارة وأخذوهم إلى بستان علي، وأكدوا للعناصر أنهم لن يتأذوا بشرط أن يحافظوا على الهدوء، وضعوهم في الغرفة، بدأوا يفكرون بمصير هؤلاء الأسرى، وكان لابد بالبت بأمرهم بأسرع وقت وإلا سيكونون عبئًا ثقيلًا عليهم وسيعرضون أنفسهم للخطر.

ذهبت دورية أخرى لاستلام المناوبة، وإذ بالسيارة غير موجودة في المكان، حاولوا الاتصال معهم عبر اللاسلكي وإذ بصوت قريب، نظروا

حولهم وإذ بجهاز اللاسلكي مرمي على الأرض.

اتصل رئيس الدورية بقيادته وأخبرهم بذلك، جُن القائد العسكري، كيف يحدث ذلك مع وصول ماهر الأسد إلى المدينة؟ كارثة.. كيف لدورية كاملة تُخطف مع سيارة عسكرية؟

عند الصباح وصل الأسد إلى المدينة، وكان الضباط يقفون صفًا واحدًا على بُعد خطوات منه خشيةً من صفعة مفاجئة، فالشر كان يقدح من بين عينيه.

دخل الأسد إلى المكتب ونظر إلى القائد العسكري، والآخر يرتجف خوفًا: أول قرار بتقلن هو ممنوع التجول نهائيًا يعني ممنوع حدا يطلع من بيتو واللي بيخالف الأمر بتقوّصوه متل الكلاب، خليهم يموتوا من الجوع ببيوتهم هالحيوانات.

القائد العسكري وبصوت هادئ: حاضر سيدي.. فورًا راح بلغ.

جلس ماهر واسترخى على الكرسي ووضع يديه متشابكتين على الطاولة وتساءل: هلا قلي وا حبيبي شو الوضع عندكين؟

تغير لون وجه القائد العسكري والضباط الآخرين، وأصبحت وجوههم شاحبة، وكانت مهمة الجواب للقائد العسكري الذي كان يرتعد خوفًا من الجواب الذي سيقوله: الوضع سيء سيدي.. مباريح خطفوا دورية كاملة.

ماهر مقاطعًا ووقف على طوله: شو متقول هنت! وهنتو شو متعملو ها؟ لك يا الله كل المدينة ميقاتلو معن وأنتو نايمين متل البهايم.

القائد العسكري: بالله يا سيدي هدولي ميقاتلو وبيختفوا متل الجن!

- متقلي متل الجن يا كَّر.. بالله لألعن... بسيطة، جهزلي تقرير كامل عن الوضع وبدي ياه على مكتبي فورًا.

كان الثوار يعدون مفاجأة كبيرة للأسد، «عملية اغتيال» لتكتمل حفلة الاستقبال، في اليوم الثاني كانت الشوارع خالية تمامًا من المارة، الدكاكين والأسواق كانت مقفلة، الجميع خلف الأسوار، هدوءٌ مخيف في كافة أرجاء المدينة، وعلى رأس كل حارة توجد دورية، منتشرين كالوباء.

قرر الثوار إرسال مطالبهم إلى القيادة العسكرية كنوع من التفاوض عن طريق أحد الأسرى لديهم، أخرجوا السائق مغمض العينين، وصلوا به إلى أرض قريبة جدًا من المقبرة، وأخبروه أن السيارة على الطرف الغربي من المقبرة، كان ذلك عند الساعة الرابعة فجرًا، أعطوه المفاتيح وطلبوا منه السير بشكل مستقيم وتبقى العصبة على عينيه ولا يرفعها إلا بعد ٥ دقائق، وخلال هذه الدقائق اختفى الثوار من المنطقة.

رفع الجندي العصبة عن عينيه، نظر حوله وإذ به أمام المقبرة مباشرةً، لم يتجرأ أن يقترب من المقبرة أكثر، توجه إلى الجانب الغربي ووجد سيارته مركونة، أدارها وقادها إلى المدينة قاصدًا فرع الأمن العسكري، الكائن في الشارع العام القريب جدًا من سوق المدينة، وعند الباب أبرز هويته للحرس وعرّف بنفسه أنه كان من المخطوفين، ويحمل رسالة للقيادة العسكرية من الثوار، أدخلوه واقتادوه إلى مهجع العناصر ووضعوا عليه عنصرًا لمراقبته!! وتم وضع السيارة في المرآب حتى يجئ الصباح بكل حلته، عند الساعة الثامنة أتى القائد العسكري وأخبروه بالأمر، وبكل شغف طلب منهم إحضاره إلى مكتبه، واتصل على مكتب ماهر الأسد

وأخبرهم بذلك. حصل نقاش بين الجندي والقائد العسكري، وشرح الجندي كيف تم اختطافهم وتم اقتيادهم إلى الأسر.

القائد العسكري: بتعرف وين المكان وين هني؟

- لا والله يا سيدي ..طول الوقت كانوا مسكرين عيوننا وحتى لما تركوني كنت بالمقبرة!!

- لك شو قصتهن مع المقابر!

أعطى العسكري الورقة التي معه إلى قائده، وطلب منه القائد العسكري أن يذهب إلى مهجعه وأن لا يبارح مكانه ليكون موجودًا عند الطلب، وسيتم فتح تحقيق رسمي معه.

تلقى القائد العسكري اتصالًا أن ماهر الأسد بانتظاره مع العسكري في مكتبه.

جازف سعد بحياته وتسلل إلى المدينة قبل بزوغ الشمس، وصعد أحد المباني السكنية المقابلة لمبنى الأمن العسكري من الجهة الثانية.

كان القائد العسكري والعنصر في مكتب ماهر الأسد في مبنى الأمن العسكري في الطابق العلوي، يحدق ماهر بالعسكري من الأسفل إلى الأعلى، والعنصر يكاد يموت رعبًا من كثرة الأقاويل التي وقعت على مسامعه عن هذا اللعين، وكان ماهر يريد من هذا العنصر معلومات لا يمتلكها، ولم تمر دقائق حتى وقع صوت انفجار ضخم هز المبنى وتصدعت النوافذ وكسر الزجاج ونزل على الأرض مطرًا، ارتمى ماهر والقائد العسكري والجندي أرضًا، وصوت الانفجار يرنُ بقوة في آذانهم، ولا أحد يعرف ما الذي حصل وأين موقع الانفجار؟

عندما قرر الثوار البت في أمر الأسرى الذين بين أيديهم ربطوا ذلك مع قدوم الأسد، كان شيخموس قد أخذ السيارة إلى إحدى الورش الميكانيكية، وسهر عليها طوال الليل، كانت الورشة لابن عمه في منطقة معزولة نوعًا ما عن المدينة، ولها باحة يستطيع المرء إغلاق الباب الخارجي والعمل في الداخل، ولأن الورشة معزولة أتت فكرة إلى شيخموس بوضع قنبلة في أسفل السيارة يتحكم بها من خلال جهاز كونترول عن بعد. وكانوا على يقين أن ماهر الأسد لن يصاب بأي أذى لأن السيارة ستركن في المرآب، وهذا أمر معروف للجميع، ولكنها رسالة ضغط وترهيب.

ركض الضباط على الفور إلى غرفة ماهر الأسد الزائر الجديد! وهو ينظر إليهم وعيناه تكادان تخرجان من مقلتيه.. شو في؟

- سيدي انفجار سيارة بالمرآب!

- وكيف انفجريت؟

- ما بنعرف سيدي بس عملية مدبرة!

- بتفتحوا تحقيق فوري بالموضوع فاهمين؟ في إصابات؟

الضابط طأطأ رأسه وبصوت خافت: القتلى في كل مكان.

بدأ ماهر يسب ويشتم ويكفر فيهم ويتلفظ بأبذأ الكلمات، تبين معهم فيما بعد أن السيارة التي عاد بها العنصر كانت ملغومة، انهال ماهر بالضرب على العنصر واصفًا إياه بالغبي، ورفض ماهر مطالب الثوار بشكل قاطع.

أهالي المدينة في بيوتهم لا يعرفون ما الذي يحصل في الخارج، في إقامة جبرية فرضت عليهم، ومن يحاول الخروج يتم اعتقاله والنيل منه بالقتل، وبعضهم يخشى أن يطول الأمر وتفقد العوائل المستورة المؤن، رغم أنها

مدينة ريفية والبيوت تطل على بعضها بعضًا، هناك طرق للمساعدة عند الضرورة، ولكن إلى متى سيستطيعون الصمود؟

وجد الثوار أن السلطة لا تريد إنهاء الحالة العسكرية، وسيتخذون ما هو أقسى من ذلك من تدابير عقاب جماعية بحق الأهالي، ما كان من الثوار إلا أن يجازفوا بحياتهم ويدخلوا بمعارك لا يدرون عُقباها، كون الدوريات منتشرة بكثافة، أرادوا استخدام رسائل بدائية لخداع الدوريات والتفرد بفريسة واحدة، فإذا أرادوا الهجوم على فريسة في الحي الشمالي، يقومون بعملية تمويه بسيطة في الحي الجنوبي لتتوجه الأنظار إلى هناك ويتفردوا بالفريسة والعكس أيضًا هو الصحيح، أرادو الهجوم على فرع أمن الدولة ووجدوها لقمة سائغة وسهلة المنال، فرع أمن الدولة يقع على مدخل مدينة عامودا شرقًا على طريق القامشلي- قامشلو - عامودا، على الجانب الأيمن عند المدخل، على يمينه أراضٍ واسعة، ومن خلفه أحياء سكنية، وعلى يساره شارع يؤدي إلى شمال المدينة، وأمامه الشارع العام، ودوار التمثال «الرئيس» كان قريبًا منهم.

توجه الثوار في الليلة الثانية بعد يوم من تفجير السيارة في مرآب فرع الأمن العسكري، إلى المنطقة الشرقية يترقبون الوقت المناسب للهجوم، وكان نادر مكلفًا بلهُ الدوريات في الجانب الغربي من المدينة على الطريق المؤدي إلى مدينة الدرباسية غرب عامودا باتجاه رأس العين«سري كانيه»، طريق حلب، هناك دورية تقف دومًا عند المدخل الغربي، عناصر الدورية لا يبارحون مكانهم، ويبقون جالسين داخل السيارة، كان الوقت متأخرًا بعد منتصف الليل، وقف نادر على مسافة بعيدة منهم يراقبهم، وبدأ يتقدم

شيئًا فشيئًا وبيده قنبلة يدوية وكان يحتمي في الظلام، نزع مسمار الأمان ودحرج القنبلة إلى أسفل السيارة وركض باتجاه الأحياء السكنية المكتظة، حتى لا يلمحه أحد وتلك الأحياء أزقتها ضيقة ومتداخلة ولا يمكن للسيارة دخولها.

سرعان ما انفجرت السيارة وأصبح العناصر وقودًا للنيران، هرعت السيارات والدوريات إلى المنطقة حتى وصلت كافة الدوريات، كان نادر قد اتخذ مسلكه متجهًا نحو الأراضي إلى بستان علي، وتلك الأراضي يستحيل للعين المجردة أن تبصر تحركًا فيها إلا إذا تم تسليط أضواء قوية، فالأحياء السكنية لا تحظى بإنارة، عندما سمع الثوار صوت التفجير ورأوا تحرك الدوريات، بدأوا يطلقون الرصاص بكثافة على فرع أمن الدولة، سقط حراس الباب قتلى وكانوا أربعة، توجه برزان الذي كان أقربهم إلى المدخل ليلتقط أسلحة العناصر المقتولين تحت غطاء ناري مكثف من أصدقائه ورمي قنابل يدوية على الفرع، انسحب الثوار بشكل سريع من المنطقة لأنهم لا يستطيعون خوض معركة طويلة لقلة السلاح والذخيرة، وخوفًا من وصول مؤازرة، عندما كانت الدوريات تمشط المنطقة الغربية، سرعان ما أتتهم الأوامر بالتوجه إلى أقصى المنطقة الشرقية، وكان الثوار قد انسحبوا إلى الخلف تجاه الأراضي بالجانب الجنوبي.

كان قتلى أمن الدولة فقط الحراس الأربعة، وعدة إصابات واحدة منها خطرة نتيجة رمي قنابل يدوية على باحة الفرع.

كان الأهالي يتحرقون ويتشوقون لمعرفة الأحداث، ولكنهم كانوا يعرفون أن ثوارًا أحرارًا يبذلون قصارى جهدهم لفك الإقامة الجبرية عن

المدينة وعنهم، واكتفوا بالدعاء لهم حيث لا حول لهم ولا قوة.

كانت الأروقة العسكرية محتقنة، عندما يكون العدو مجهولاً يصعب على أية قوة ردعه مهما كانت الإمكانيات العسكرية التي تمتلكها الدولة، وكان لفرنسا تجربة مريرة في سورية أثناء الانتداب الفرنسي على سورية طوال ستة وعشرين عامًا، كانت فرنسا القوة العسكرية الثانية في العالم، لكنها عجزت عن الثوار والنيل منهم، لأنهم كانوا يقاتلون قتال عصابات وحرب الشوارع على الجبهات، يقاتلون أشباحًا لا يلمحهم أحد سرعان ما يخرجون ويضربون ضربتهم ويختفون على الفور وكأن شيئًا لم يكن.

أصدر ماهر الأسد قرارًا بإخراج جميع عناصر الجيش من ثكناتهم العسكرية وتوزيعهم في الشوارع قبل مغيب الشمس بساعة واحدة، وأعطى الأوامر بإطلاق الرصاص حتى لو كانت قطة تتحرك.

في صباح اليوم الثاني أراد الثوار معرفة ما يجري بعد توجيه عدة ضربات متتالية ضد الجيش، تبرع علي بأن يذهب ويتقصى الأخبار بحذر حتى لا تلمحه العيون الغادرة، وكأن آية الله فيهم تطبق «فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة» الآية ١٩ سورة الكهف.

الثوار لا يحتاجون إلى الزاد فعندهم في البستان من الخيرات يتدبرون أوضاعهم فيها، لكن قلوبهم عند الذين هم داخل البيوت.

خطف مدير الناحية

طاف علي بأنحاء المدينة حتى وصل إلى المقبرة، لاحظ حركة كثيفة عند المقبرة والأراضي التي حولها من قبل الأمن وهم يراقبون كل الجهات، لم يستطع علي تجاوز هذه العيون بأية طريقة فهو الكائن الوحيد الذي يتحرك، عاد إلى أصدقائه وأخبرهم بالأمر، نظر سعد إليهم: شو رأيكم بعملية بعز النهار؛ لأنو أنا متأكد راح ياخدوا كل الاحتياطات بالليل، وعرفوا أنو نحن بنفذ العمليات كلها بالليل.

استغرب علي من كلامه:«إذا أنا لحالي ما قدرت أدخل المدينة فكيف كلنا وبالنهار؟!».

ساد الهدوء المكان، ولابد من وضع خطة ممكنة لأية عملية قادمة حتى لو كانت في الليل، بدأوا يفكرون، بدأ سعد يسير في البستان لتنضج الفكرة برأسه جيدًا وبتمعن شديد، نادى رفاقه وجلسوا متربعين في الحقل وبدأوا يناقشون الأمر.

- بنلبس ملابس الأسرى العسكري، وبندخل المدينة وحتى نلهي الدوريات على المدخل وتحديدًا من عند المقبرة، بناخد الأسرى إلى أقرب

نقطة وبنطلق سراحهم، بس تشوفهم دورية راح يركضوا عليهم بفكروا أنو حدا اخترق حظر التجول ليقبضوا عليهم، وبعدما يتعرفوا عليهم راح يلتهوا معهم، نحن بهي اللحظات بندخل.

نادر: وين راح نهاجم هي المرة؟

نظر سعد إليهم وأعاد نظره إلى الأرض ثم رفع رأسه وتنهد: بدنا نخطف مدير الناحية!

برزان: بشرفي إنك وحش.

شيخموس: شلون؟

- بندخل المدينة وبنتخبى بشي مكان حتى نص الليل، بعدين بنطلع على أساس دورية إذا لمحنا حدا بنكون لابسين عسكري وسلاحنا معنا، قدام بيت مدير الناحية في ٢ عساكر واقفين دائمًا وفي ٣ سيارات، سيارة قاعد فيها عناصر المرافقة تبعو وسيارتين التانيات واحدة للمدير وواحدة لخدمة بيتو، وغالبًا بهالوقت عناصر اللي بالسيارة بكونوا غفلانين، لأنو هني بالأساس مرافقة وبيعرفوا معلمهم ما راح يطلع للصبح فبناموا.

علي: العساكر اللي عند الباب راح يشوفوا وجوهنا!

- راح ننزل الطواقي لعند عيونا وراح نلبس كنزة ونرفع الكم للتم، وبعدين الدنيا نص الليل.

برزان: وين راح ناخدهم؟

- لهون ما بعرف! بس لازم نخطفو مع كل الحرس لحتى نطالب بفك الحصار عن المدينة وترجع الناس لحياتها.

علي: لقيتها، الكنيسة قريبة كتير من بيتو للواطي.. نحن أول ما

ندخل المدينة بنروح على الكنيسة ولما بنخطفهم بناخدهم ونحطهم جوات الكنيسة ونربط أيديهم ورجليهم وعيونهم.

نادر: أي والله .. وشو رأيكم نخلي شيخموس يجهز قنبلتين لنحطها تحت سيارة مدير الناحية لنفجرها.

سعد: هيك ممتاز.. شوفوا لما بنخطفهم بنترك رسالة عند مرتو وبنحكي لها لتعطي أسيادها، وبنخلي سيارة مدير الناحية وسيارة المرافقة ملغومة بجهاز تحكم وبنفجرها بالوقت اللي بدنا.

تفاءلوا خيرًا بالعملية، وبدأوا بالتجهيزات على الفور، توجد كنيسة واحدة في مدينة عامودا وهي مهجورة من القرن الماضي، وهي كنيسة صغيرة وطينية المنشأ تقع في الحي الجنوبي حيث قبل هجرة المسيحيين في القرن العشرين، كانت عامودا مقسمة إلى حارتين، الشمالية كانت يسكنها المسلمون والجنوبية المسيحيون، حيث كان الحب والتآخي رغم فتنة الانتداب الفرنسي للإيقاع بينهم لكن دون فائدة، وبقيت هذه الكنيسة الصغيرة ولم يتم هدمها احترامًا للدين المسيحي ولمشاعر المسيحيين. وفي الشهر السابع من عام ٢٠١٧ تم إعادة ترميم وافتتاح الكنيسة«مار إلياس» بعد أربعين عامًا من إغلاقها، تحت إشراف بطريركية السريان الأرثوذكس في الجزيرة والفرات.

كان الثوار قد تركوا سابقًا رسالة لأهاليهم أنهم خارج المدينة ليتجنبوا الاعتقالات كوسيلة للتهرب من التساؤلات حول اختفائهم، لم يعد أهالي عامودا يعرفون بأي حدث خارج أسوار منازلهم إلا عن طريق أصوات الرصاص والانفجارات والاشتباكات، ويعرفون أن ثوارًا مازالوا على

العهد.

انتهت التجهيزات وبـدأوا بتنفيذ الخطة، ارتدى الثوار اللباس العسكري، وأخذوا معهم الأسرى معصوبي الأعين يسوقونهم، وتركوهم في أرضٍ فارغة وطلبوا منهم السير إلى الأمام بكل هدوء وعدم رفع الغطاء عن أعينهم نهائيًا، ومكثوا على مسافة ينتظرون الفرصة السانحة للدخول إلى المدينة، سار هؤلاء الأسرى كما أمروا ولا يعرفون لماذا وما الذي يجري؟ لاحظت الدورية خمسة أشخاص يتحركون من بعيد، على الفور قامت الدورية وبحسب الأوامر التي عندهم باستهداف أي تحرك كائنًا من كان، رجال أو نساء، أطفال أو شيوخ، أطلقوا الرصاص عليهم وأردوهم قتلى، فقتلوا على أيدي رفاقهم.

انصدم الثوار من الموقف ولكن لم يهتموا كثيرًا، توجهت الدورية إلى الجثث، انتهز الثوار الفرصة وأسرعوا من الجانب الآخر ودخلوا الأحياء الغربية واتخذوا الأزقة الصغيرة مسلكًا لتحركهم إلى الكنيسة، جلسوا فيها ودخلوا إلى إحدى الغرف وبدأوا بتجهيز المكان لاستقبال الأسرى، كان هؤلاء الثوار أول من يدخلون الكنيسة بعد سنوات طويلة من هجرها، كانت الأبواب والنوافذ والأقفال صدئة ومهترئة، ولكنهم احترموا قدسية المكان ولولا الحاجة لما استخدموا هذا المكان الديني لأي غرض غير العبادة، ولم يخالفوا أي شيء من مبادئ رسالة المسيح عليه السلام، الذي ظُلم وأمه مريم العذراء عليهما السلام من بني اليهود، وهؤلاء يستخدمون هذا المكان التابع له لرفع الظلم عن قومهم من قبل من استغلوا السلطة عن طريق بني يهود، اختلف الزمان ولكن الحق والباطل دائمًا موجودان.

اتصل رئيس الدورية عن طريق اللاسلكي بقيادته ليخبرهم أنهم قتلوا خمسة أشخاص كانوا قد اخترقوا حظر التجول ولكنهم معصوبو الأعين!، توجهت دورية إلى المكان ومعهم طبيب شرعي، وأثناء الفحص تبين أنهم العناصر الذين كانوا مخطوفين، رفع الضابط رأسه ونظر إلى رئيس الدورية وبزق في وجهه وذهب!.

في المدن الثانية، كانوا يتداولون أخبار مدينة عامودا بكل حماسة وعطف أيضًا، العطف على الإقامة الجبرية والحصار الجائر، والحماسة من أخبار الثوار الذين يذيقون الدولة ونظام البعث الويل وكل الويل، وكانت المدن الكبرى مثل الحسكة والقامشلي محتقنة أمنيًا وتوتر وترقب شديدين خشية من تكرار سيناريو عامودا في هذه المدن الكبيرة التي إذا ما حصل ذلك ستكون كارثة حقيقية، ففي عامودا تلك المدينة الصغيرة لم يتمكنوا حتى الآن من السيطرة على الموقف، بل العكس فكلما مر الوقت ازداد الوضع سوءًا، فكيف لهذه المدن الكبيرة التي تضم مئات الآلاف من البشر والأحياء الضخمة ؟ فكانت التدابير الأمنية مشددة للغاية، ولكن قلوب البشر كلها مع ثوار عامودا الذين يمثلون كل من شارك في انتفاضتهم التي لم تدم طويلاً بسبب استخدام القوة المفرطة بحق المدنيين، فأصبح هؤلاء الثوار المجهولي الهوية، المعروفي الفعل والعمل، أمل كل حر ذاق الظلم من نظام حزب البعث، أمل كل من خرج في انتفاضة ١٢/ ٣/ ٢٠٠٤، أمل كل شهيد بأن لا يذهب دمه سُدى، أملاً لكل معتقل يقبع في أقبية الأمن يذوق الويلات وينتظر حريته على يد هؤلاء الأبطال وهم يبذلون المستحيل حتى يكونوا على قدر هذه المسؤولية الصعبة.

تم الاتفاق بين الثوار على أن يدخل نادر وسعد إلى منزل مدير الناحية للقبض عليه وتسليم زوجته الرسالة، ويكون في هذه الأثناء يتم اقتياد الحرس إلى داخل المنزل وربطهم وأخذ أسلحتهم، ويكون شيخموس قد فخخ السيارتين.

بدا الليل حالكًا، خرج الثوار وهم يتفقدون المكان، سلكوا الدرب، قلوبهم تنبض، ولكن الإيمان الذي يسري في العروق يرفع من معنوياتهم والهدف السامي يدفعهم، أصبح الثوار يمتلكون خبرة في الحركة والتنقل والتخفي والمباغتة والهجوم في الوقت المناسب.

وصل الثوار إلى الشارع الذي فيه منزل مدير الناحية، كان توقع الثوار في محله، عنصران عند الباب وأربعة آخرون في السيارة في غفوة من أمرهم، لاحظ الحرس اقتراب خمسة عساكر في اتجاههم، اعتقدوا أنها دورية مشاة تتفقد الحي، عندما وصل الثوار إلى الباب باغتوهم على الفور، ووضعوا السلاح برأس الحرس ليستسلموا، وتولى برزان وشيخموس وعلي الحراس النائمين في السيارة، استيقظوا مذعورين، طلبوا منهم النزول دون إصدار أي صوت ووضعوا سلاحهم على الطرف، دخل نادر وسعد إلى المنزل بكل حذر، عرفوا من الحرس غرفة مدير الناحية، دخلوا إلى غرفته وإذ به غارقٌ في نومه وإلى جانبه زوجته، صوب نادر سلاحه عليهم، وأشعل سعد الإنارة، استيقظ العقيد من نومه مصدومًا مما يراه، وعيناه تحدقان بعجب، طلب منه سعد أن ينهض بكل هدوء ولا يرتكب أية حماقة حتى لا يُغربل بالرصاص، وطلبوا من زوجته التروي وأن لا تخاف واستلمت رسالة مكتوبة لتسليمها إلى القيادة العسكرية، كان الشباب في

الخارج قد أشرفوا على إنجاز مهمتهم بعد ربطهم للحرس، خرجوا إليهم بمدير الناحية مكبلاً، واقتادوهم بكل حذر إلى الكنيسة المجاورة للمنزل، كان الشارع خاليًا تمامًا، استغرب مدير الناحية الذي ساقوه كالخروف إلى الأسر، من اختيارهم للكنيسة، خرج شيخموس ليتفقد الخارج، انتهت المهمة ونزلت الطمأنينة إلى قلوبهم وهم لا يصدقون أنفسهم أن المهمة نجحت، قام الثوار بوضع قماشة على أعين المخطوفين وتشديد الحبال على الأيدي والأرجل.

- إذا قيادتكم الحكيمة ردوا علينا فأنتو مو مطولين راح ترجعوا لبيوتكن، إذا طولوا نحن ما إلنا علاقة، بدكم تتحملوا الجوع والعطش كم يوم وعيونكم ما راح تشوف الشمس، لتحسوا شوي بالمعتقلين. وراح تضلوا مرمين هيك على الأرض.

خرج الثوار.. وضعوا قفلاً على الباب، أثناء خروجهم ووصولهم إلى الشارع العام لاحظوا انتشار الدوريات بكثافة، ووجدوا عناصر مشاة لأول مرة بعد الحادثة الأخيرة، ولم يستطيعوا العبور، فإن من يرى المنظر سيعتقد أن موكب رئيس الجمهورية سيمر من المنطقة، تراجعوا قليلًا ليعودوا أدراجهم إلى الخلف وسلكوا طريقًا آخر، ذهبوا باتجاه الحي الغربي حتى وصلوا إلى«الچم» ليعبروا من تحت الجسر كأفضل مكان عبور لهم عند وصولهم إلى المراد، تفاجأوا بدورية تقف على طرف قريب من المدخل، وكأنهم بانتظارهم ويعرفون تحركاتهم، تهامسوا فيما بينهم، فإذا مروا سيلاحظونهم على الفور، وإذا هاجموا الدورية يستطيعون النيل منهم، ولكن بكل بساطة سيُعرف أنهم دخلوا تحت الجسر ليعبروا إلى

الطرف الثاني، وبأقصى سرعة ممكنة سيتم إغلاق المنفذين وسيتم سحقهم، ولكن ما الحل؟

سعد: راح نهاجم الدورية وبنشلحهم السلاح ومتل البرق بتركضوا من تحت الجسر لتطلعوا من الجهة التانية وترموا كل الأسلحة بحوش الدكتور، ولحتى ما تلحقكم الدوريات أنا راح ألهيهم.

علي: كيف يعني بدك تضل لحالك؟ لازم واحد منا يكون معك.

- ما في وقت للجدال يا شباب من غير شي معنا كومة سلاح، هلا شلحنا حرس مدير الناحية وأسلحة هدول، الحمل تقيل على ٣ أشخاص، بس لما تكونوا أربعة بتقدروا تتساعدوا، لا تخافوا علي راح أرجع للكنيسة.

لم يبق أمام الرفاق وقت طويل وإلا كانوا سيعترضون على مخاطرة سعد، انقسموا إلى قسمين من اليمين ومن اليسار، وبدأوا بإطلاق الرصاص الكثيف على الدورية وهم يرون جثث العناصر تتراقص، وعلى وجه السرعة فتحوا باب السيارة وأخذوا الأسلحة، ذهب سعد إلى الزاوية ليغطيهم من أية مؤازرة، وفعلًا على الفور أتت المؤازرة، وبدأ سعد يطلق عليهم الرصاص ويمنعهم من التقدم وهو يصيح على زملائه: لك بسرعة .. بسرعة.

وسرعان ما أخذوا الأسلحة، كانت ليلة فيها صيد ثمين، نزلوا تحت الجسر وهم يصيحون على سعد: دير بالك على حالك!

توجهت الدوريات إلى المكان.. وعندما شاهد سعد عبور أصدقائه، تراجع على الفور وبدأ يركض في سبيل أن يصل إلى الأحياء السكنية ويضللهم، ذهبت الدوريات خلفه، سارع سعد بإخراج قنبلة يدوية

ليرميها خلفه ويحدث انفجارًا ويستغل الدخان ليضيع الجناة.

أثناء عبور الثوار من تحت الجسر سمعوا أصوات الرصاص يتلاعب في الآذان، اتخذ سعد من أحد الأحياء السكنية موقعًا له، وقف ليلتقط الأنفاس وبدأ يرشق من يلاحقونه بالرصاص الكثيف ويوقف تقدمهم، وبدأ يتنقل من حي إلى آخر، ضلل السيارات إلا أن العناصر ما زالوا يلاحقونه، وصل سعد عند منزل وجد درجًا عاليًا، اختبأ خلف الدرج، وصل العساكر إلى مدخل الحارة وهم ينظرون يسارًا ويمينًا ليعرفوا أين هرب؟ وعلى وجوههم علامات التعب من الركض، ومثل البرق خرج سعد من خلف الدرج وبدأ يطلق النار عليهم ليوقع اثنين أمامه، واحد قتيل والآخر جريح، أما الآخرون فتراجعوا إلى الخلف، وبدأت حرب الشوارع، العناصر يطلقون النار بشكل عشوائي، وسعد يطلق بشكل مباشر على الهدف، عشرات السيارات توجهت إلى تلك المنطقة وكأن سعدًا أخطأ التقدير وتورط.

كان زملاؤه قد ألقوا كافة الأسلحة في حوش دكتور هرانت الخلفي وتركوا معهم القطعة التي بيدهم مع مخزن إضافي فقط، وقرروا الهجوم على أحد الأفرع ولو بشكل صوري حتى تتراجع الدوريات ويتمكن سعد من الهرب، توجهوا إلى مبنى الناحية والمخفر كونه أقرب نقطة لهم.

كان سعد يتنقل من حي إلى آخر مستغلًا عدم استطاعة السيارات الدخول إليها، وإلا فاحتمالية القبض عليه كبيرة جدًا، ولسان حاله يقول لو أن أحدهم يفتح لي بابه لأدخل وأختبئ في المنازل واستغل الأسطح للتنقل، بدأ يشعر بأنه لم يعد قادرًا على الخروج من هذه الورطة لأنه تعب

من الركض، والمنطقة باتت محاصرة وخلفه عناصر يركضون مثل الكلاب المسعورة، بعد أن وجدوا ضالتهم.

جلس في زاوية ليأخذ بعض الأنفاس والعرق يتصبب على وجهه وجبينه مثل السيل، وبدأ يطلق النار، لاحظ أن الذخيرة التي معه ستنفذ، أكمل الركض وأصبح على مقربة من موقع «الكنيسة».

صوّب الثوار أفواه بنادقهم إلى المخفر ومديرية الناحية وكل شخص منهم معه قنبلة يدوية، ألقوا واحدة فقط ليحدث انفجار، والرصاص يتبادل بين الطرفين، حتى طلبوا مـؤازرة على الفور بواسطة جهاز اللاسلكي، والضابط يصيح لو تأخرتم ما هي إلا دقائق وسيصعدون إلينا.

استيقظ ماهر الأسد من نومه، ليسأل عن مصدر إطلاق الرصاص، أخبروه أن قوة تحاصر أحد المطلوبين بعد عملية قاموا بها وقتلوا أفراد الدورية، وفي نفس الأثناء هناك هجوم على المخفر ومديرية الناحية.

- يا حيوانات هذا اللي بتركضوا وراه ميموه على أصحابه يا جحاش، على السريع أطلب من كل الدوريات يتوجهوا على المخفر بسرعة بسرعة.

استغرب سعد من الذي يحصل، هل كشف أمر أصدقائه وتمت محاصرتهم تحت الجسر أم ماذا؟ الدوريات تنسحب من المنطقة، وبقي عدد من العناصر فقط يلاحقونه، قام سعد بالقاء آخر قنبلة يدوية معه عليهم ليردعهم ولا يدري كم قتل؟ استطاع أن يفلت منهم ويغيب عن أنظارهم، رمى بنفسه من على سور الكنيسة إلى الداخل.

قرر أصدقاؤه الانسحاب من مكانهم أيضًا حتى لا يحاصروا بدلاً من

سعد، وعادوا أدراجهم بشكل تدريجي ولا يدرون ما الذي حصل مع صاحبهم؟ واستخدموا الجسر وسيلة للانسحاب كما فعلوا قبل ساعة، بالهم عند صاحبهم، وبال سعد عندهم، فجأة توقف أزيز الرصاص، وعمّ الهدوء المدينة وبعدما اختفى الثوار فجأة وأضاعت الدوريات هدفها.

هذه المرة الأولى التي يحصل فيها اشتباك كل هذا الوقت، وتم فتح عدة جبهات في آن واحد، بعد هذه الليلة المكللة بالمفاجآت، عاد الهدوء وخلد النائمون إلى نومهم من جديد.

طلع الصباح وبقي الضباط مستيقظين، دخل القائد العسكري مكتب ماهر الأسد شاحب الوجه، محمر العينين، يرجف خوفًا، مما سيسمع من ماهر الأسد..

ماهر: قلي شو اللي صار مباريح يا أفندي؟

- سيدي مباريح كان يوم كارثي!

- بالله متقول الحق، كم قتيل عنا!

- سيدي مبارح الظهر قتلنا ٥ عناصر من اللي كانوا مخطوفين

- هي بعرفها!

- ومبارح بالليل هجوم على المخفر وقتلوا أفراد دورية كاملة وفي عناصر أثناء الملاحقة قتلوا وأصيبوا .. بس.

- بس شو!

- اتصلت في مرتو لمدير الناحية وقالتلي.. مبارح خطفوا مدير الناحية وحرسو.

نط ماهر من خلف مكتبه: هنت شو متقول؟ ولك بتعريف شو متقول!

طأطأ القائد العسكري رأسه ولا يجد ما يقوله.

ماهر مستغربًا: بالله هالعرصات عندن جيش وعددن كتار، خطفوا مدير الناحي وهجموا على المخفر وعلى دورية وانقلبت حرب شوارع.. شو دينن!!.

بعد أن استلم ماهر رسالة الثوار وقرأها، وعرف مطالبهم بفك الحصار عن المدينة والإفراج عن المعتقلين، مقابل إطلاق سراح مدير الناحية وحرسه.

كانت الضربات المتتالية على رأس القيادة العسكرية قصمت ظهورهم، وبعد عدة نقاشات، ولغاية في نفس يعقوب، قررت القيادة العسكرية الإفراج عن جميع المعتقلين القابعين في أفرع عامودا فقط، وتخفيف حظر التجول ليصبح من المغرب.

لم يعد نادر قادرًا على أن يتحمل المصير المجهول لسعد، فقرر الذهاب إلى الكنيسة ليطمئن عليه رغم المخاطر، تم منعه من قبل باقي الأصدقاء، وطلبوا منه التروي والانتظار إلى أن يحل المساء لينضموا إليه.

حتى تفي الدولة بوعودها وتقوم برفع حظر التجول إلى ما بعد المغرب، والإفراج عن المعتقلين، حصل ما كانت الدولة تخشاه. خرجت مظاهرات في مدينتي القامشلي والحسكة والعديد من البلدات الأخرى مثل درباسية وسري كانيه «رأس العين»، ومناطق أخرى مناصرة لعامودا، رأت القيادة العسكرية والسياسية ضرورة تسريع تنفيذ القرارات حتى لا يتحول المشهد إلى أسوأ.

قرب المغيب أن يحل، كان الثوار يجهزون أنفسهم للذهاب إلى الكنيسة،

في نفس الوقت كان سعد يهيئ نفسه للخروج وكان ينتظر حلول الظلام، كان الأسرى مرمين على الأرض يترنحون من الجوع ليرد سعد: حسوا شوي بالمعتقلين اللي عندكم، بعدين الموضوع عند معلمينكم مو عندي.

وفجأة سُمع صوت من مئذنة الجامع الكبير، فمنذ أيام لم يرفع الأذان في المدينة بسبب منع السلطات! لكن هذا ليس صوت الآذان، إنه صوت آخر. صوت ماذا ؟

هدوء كامل والكل يحاول أن يسمع.. نُودي في مكبرات الجامع الكبير الذي يتوسط المدينة، أنه منذ الغد سيتم تخفيف الإجراءات الأمنية ويبدأ حظر التجول اعتبارًا من صلاة المغرب.

فرحٌ كبير غمر القلوب، وابتسامات وقهقهات الضحك، وأخيرًا سيتم الإفراج من هذا السجن، سينطلق الناس مثل تلك الفراشات لتحلق فوق بساتين الربيع ويغردون للحرية كما تغرد العصافير بصوتها الشادي للطبيعة.

كان الثوار في منزل الدكتور عندما سمعوا الخبر، بدأوا يرقصون لأنهم السبب في هذا الفرج، وقرروا عدم الذهاب إلى الكنيسة والمخاطرة، كون غدًا ستتلاشى هذه الغيمة وتعود الحياة إلى شوارع عامودا.

لكن سعد لم يعد يستطيع البقاء أكثر، وقرر الخروج للذهاب إلى أصدقائه، حتى هو بدأ الجوع والعطش يؤثران عليه، خرج سعد بكل حذر يحاول الوصول إلى الطرف الثاني من المدينة.

كانت الدوريات تنسحب من الشوارع وهم يشعرون بالخسارة الفادحة. ولأن الشعب الكردي يعشق النصر والتحدي وهم يشعرون

الآن بذلك، بدأت النساء من داخل البيوت«السجون المؤقتة» بالزغاريد التي صدعت آذان الطغاة.

كان الدكتور هرانت جالسًا، وابتسامته الساحرة تحتل الوجنتين، وهو يرى الفرح والسرور، وإذ بصوت في الخارج.

هل الحكومة تروغهم وتخدعهم؟ هل حاصروا المكان وعرفوا المخبأ؟ ركض الجميع إلى سلاحهم .. وإذ بالباب الخلفي يدق.. نظر دكتور هرانت من النافذة وبدأ يضحك: هيهي.. تفاجأوا بقدوم سعد وركضوا عليه يعانقوه.

نادر: شو جاوبك يول؟

- بشرفي إنكم أندال. وساد الهرج والمرج في المكان، تناول سعد طعامه، وتحدثوا عما حدث في الأمس.

- ياو.. كنت بهرب يمين يسار وكأني ضيعت الطريق، وعم قول يا رب بس شي واحد يفتح باب بيتو.. بشرفي للحظة كانوا راح يمسكوني.

- ومدير الناحية شو وضعو؟

سعد وهو يضحك: ياو كان متل الكلب عم يهتز من الجوع.. يلا إذا بكرا مشي الوضع بنطالعهم.

هي وطني... والوطن بدونها منفى

جرش/ نيسان ٢٠١٧

بالأمس اتصل بي صديقي وأخبرني أنه سيقضي عطلته الأسبوعية في مدينة جرش، فهو بحاجة ماسة إلى الهدوء، وكأن ضجيج العاصمة عمان ومساحتها بدأت تضيق به، كما أنا، استأجرنا سيارة سياحية جيب موديل ٢٠١٤، لمدة يوم واحد فقط، أنا لا أعرف قيادة السيارات، أنا سائق بسكليتات ماهر، وكنتُ أقود الحمير عندما كنتُ صغيرًا في قريتنا، كنتُ أصول بها وأجول كما الفرسان ولا أتذكر أني وقعتُ يومًا من على ظهر حمار رغم تهوري وقسوتي عليه في غالب الأحيان، بعكس الدراجات الهوائية (البسكليت) فحياتي مليئة بحوادث على البسكليتات، لم نكن نملك في منزلنا فيديو CD، كما سائر الناس، يومًا ما أتى أبي بفيلم كردي كوميدي لكي نحضره، للممثل بافي«أبو» طيار، هكذا هو اسمه، يقوم بتصوير أفلامه بالامكانيات الإنتاجية البسيطة وحتى الفنية والتقنية، وكانت تباع على الأقراص المدمجة CD، لكن كان لأفلامه وقعٌ خاص على قلوبنا، كنا نضحك من قلوبنا، حركاته وتمثيله، وحتى الكلمات التي

كان يستخدمها في أفلامه، كنا نرددها في تفاصيل حياتنا اليومية، وحبه للنساء فهو العجوز المتزوج من أكثر من امرأة، عيشو«عائشة» وفاطو «فاطمة» وزليخة، أما ابنه في الأفلام كان قصيرًا وكان يدعى طيارو، كنا نهستر من شدة الضحك، وأتذكر أني يومًا ما وقعت عن البسكليت من شدة ضحكي على اسم طيارو.

ركبت البسكليت وذهبت إلى منزل خالتي في أقصى شمال المدينة لأستعير منهم جهاز الفيديو لكي نحضر الفيلم الجديد لباقي طيار، وكان أهلي ينتظرونني بشغفٍ عظيم، كنا نتخوف أن لا نحصل على الفيديو بسبب إعارته إلى أحد غيرنا، فالقليل من أهالي عامودا ممن يمتلكون جهاز فيديو CD، ولكني أخذت الجهاز، حملته بساعدي الأيسر وكنت أقود البسكليت بيدي اليمنى، ومن شدة سعادتي كنت أقود البسكليت بشكل جنوني حتى أصل بأسرع وقت لنحضر الفيلم أكثر من مرة، لأني لابد من أن أعود به إلى منزل خالتي قبل مغيب الشمس.

دخلت الشارع الموازي لشارعنا الواقع على مجرى النهر وانعطفت يسارًا بشكل مسرع حتى لا أنزل داخل الجم، ولكن تزحلقت الدواليب ووقعت على الأرض بقوة، تكسر البسكليت وتأذيت جسديًا، ولكن جهاز الفيديو لم يصب بأي أذى وإلا كنت سألاقي حتفي على يد أهلي قبل خالتي، لا لشيء إنما لأني كنت سأتسبب بحرمانهم من مشاهدة الفيلم، وفي مدينتنا إذا لم يحافظ أحد على غرض غيره الذي استعاره، تنتشر عنه إشاعة بذلك ويكون ذلك سببًا بمنعهم من استعارة أي شيء مهما كان.

كان طريق عمان - جرش ساحرًا، فالطريق منذ بدايته وعلى الطرفين

يكتظ بالأشجار والمناظر الطبيعية الجميلة، كلما أسلك هذا الطريق أتذكر طريق دمشق- زبداني، ويبدأ الحنين يدغدغ المشاعر، ولا يطفئه سوى دمعات القهر والأشواق.

كان عمي يسكن في الزبداني ناطورًا لأحد القصور هناك، كنا نستغل الصيف لنذهب إلى الزبداني، كان الطريق وحده مبهجًا للقلب، أتذكر يومًا في أوج شهر آب، نزلنا إلى المسبح في القصر الذي يعمل فيه عمي وكان الجو صيفيًا حارًا والجبال حولنا تبدو شاهقة تعانق السماء وقد تغطت بالأشجار الكثيفة بمنظر يبهج النفس، وفجأة تغير الجو وبدأت السماء تمطر، كان الجو غريبًا جدًا كيف تمطر في الشهر الثامن، أكثر الأوقات حرًا في السنة، وتلك أيامٌ نداولها، ها نحن اليوم نسمع عبر شاشات التلفزة إن المدينة أصبحت مدمرة بشكل كامل، كم هو أمرٌ مؤسف.

تجاوزنا مدينة جرش وأصبحنا على أطرافها حيث هناك أماكن مخصصة للجلوس على إطلالة جميلة، جلسنا أنا وصديقي، المكان يطل على القرى التابعة لجرش، كان المنظر خرافيًا، سهول وجبال وأشجار وبيوت ريفية متناثرة في أماكن وفي أماكن البيوت تبدو فوق بعضها بعضًا من بعيد، وعند فترة المغرب تتحول الإنارة المنبعثة من القرى بلونها البرتقالي إلى لوحة فنية مدهشة.

كنا نحتسي القهوة، مستمتعين بالمنظر ورائحة القهوة معًا، صديقي من مدينة داريا، خرج منها عام ٢٠١٢ بعد المجزرة الكبيرة التي حدثت فيها على يد قوات النظام وراح ضحيتها نحرًا وقتلًا مئات المدنيين، المدينة التي ضربت مثلًا بالعمل الثوري، وكانت أيقونة يفتخر بها كل السوريين،

ولكن المدينة اليوم بعد دمارها وسحقها، خالية من سكانها، يسيطر عليها المجرمون القتلة.

- أتدري يا صاحبي كم يذكرني هذا المنظر بمدينة الزبداني، وكم يذكرني هدوء سمائها وهوائها المنعش بمدينتي عامودا.

- لماذا لا تعود إلى مدينتك فهي اليوم خالية من قوات النظام؟

كم كنت أتهرب من هذا السؤال، وكم خشيت أن يعود سائلٌ ويسألني إياه مجددًا، لا تستغل هيجان مشاعري لتعرف حقيقتي يا صاحبي، وإن خرجت اليوم من عمان فصخبها وضجيجها لا يخرجان مني.

الوطن يا صاحبي، هو التراب والأرض والمنزل، والأصدقاء والأب والأم والحبيبة.. لا رقعة جغرافية مرسومة، رسمها لنا أعداؤنا. وطني هو حبيبتي، هي وطني والوطن بدونها منفى.

بدا على صديقي ملامح الحنين إلى مدينته، ودمعت عيناه الزرقاوين، كان كثير التساؤل، وتساءل: كيف لوطن عامر أن يغدو مدمرًا..؟!!!

كان السؤال يقتله ويقتلني معه، وبادرني بسؤالٍ، أعرف مغزاه وسبب تساؤله.

- قل لي يا صاحبي، من هم أكثر الأشخاص إقلاقًا لعروش الطغاة؟

- أولئك الذين أحدثوا ثورات في قلوب النساء يا صاحبي.

أسدلت الشمس ستارها من جديد، لتعود بغدٍ مشرقٍ يتجدد فيه المصير.

أهازيج الحرية AZADI

عامودا / نيسان 2004

في صباح اليوم التالي وقبل أن تعلو الشمس بأشعتها، كانت الشوارع والأسواق قد اكتظت ببشر تاقوا إلى الحرية، فكيف يُحبس الطائر ويُطلب منه أن يغرد للحرية، إنه الإكراه.

أصوات الغناء تُسمع في كل مكان، فذاك قد وضع أغنية للعملاق شفان بارور[(١)] يصرخ بصوته الجبلي للثورة «Em kîNM» من نحن، وذاك يسمع للبزق والصوت الشجي لعاشق الوطن «محمد شيخو» [(٢)] وهو يغني «هي لي كولي» يا ورتي»، يغني للحرية والعشق.

نظرة الناس للأمن نظرة تشفٍ وانتصار وكأنهم يقولون كُسرت شوكتكم يا أيها الأوغاد، تعمد الثوار على الفور نشر آخر الأخبار حول مقتل العشرات من الجيش وخطف مدير الناحية وحراسه، ولم يُقبل الظهر حتى كانت تلك الأخبار تصول وتجول في كل بيت، أحاديث النساء عند

(١) شفان بارور: فنان كردي كبير من أكراد تركيا وثائر، كان مع البيمشركة في الجبال، وهو فنان قومي بامتياز.

(٢) محمد شيخو: فنان كردي من مدينة القامشلي، أو قامشلو كما يسميها الكرد، غنى للحب بصوته الشجي وكانت حبيبته دوماً الوطن.

فنجان القهوة، أحاديث العجائز في مجالسهم، أحاديث الشباب في المقاهي والأسواق، وهم محترقو الفؤاد يريدون الوصول إلى هؤلاء الثوار والانضمام إليهم، نزل الثوار إلى السوق وكل شخص منهم انتشر في زاوية وإلى فريق ما، ويسمعون تلك الأماديح والأهازيج والأشعار بحقهم، وكيف سرقوا قلوب أولئك العذارى، كل ذلك كان يزيد من عزيمة الثوار ويشعرهم بالمسؤولية أيضًا، كان سعد في السوق يجالس بعض الشباب، وإذ بشخص اسمه عليكو(١) صديق سعد، قصير القامة أسمر البشرة، يدق على كتفه.

عليكو: يول سعد أيني أنت ورك(٢)؟

- هلا قربان(٣) يعني وين كنا كلنا؟

- لك قبل ما يحبسونا بالبيوت كنتو مختفي يول!

- أي قبلها كنتو بنام بالضيعة مشان الاعتقالات وهيك يعني.

- مو عيب عليك تخاف يول!

سعد: أي مو تخسى(٤) بس الحذر واجب قربان.

بينما هما في حديثهما، دخل نادر وهو يلهث من الركض باحثًا عن سعد حتى وجده.

سعد: شبك يول؟

- آراس ... طلع من السجن.

في جعبة شفين وكولي الكثير والكثير من الأحاديث ليتبادلونه بعد

(١) عليكو: يعني علي.

(٢) ايني أنت ورك: أين أنت يا رجل؟

(٣) قربان: كلمة تطلق في الكثير من المناسبات ومعناه أفديك.

(٤) تخسى: أي خسئت.

انقطاع أيام من زياراتهم بسبب الإقامة الجبرية، وبعد عناق طويل وكأنهما لم يريا بعضهما بعضًا منذ سنوات. كانت شفين ساحرة قلوب الشباب، بزرقة عينيها، ترتدي كنزة صفراء، وكولي كعادتها تلبس جلبابًا فضفاضًا، وإشارًا يغطي نصف رأسها، عادتا إلى أحاديث فارسها الثائر، وعادتا لمشاحناتهما، أن الفارس المقدام من سيختار منهما، تباهت شفين بجمالها وسرحت في مدح نفسها هذه المرة.

شفين: لك كيف بدو يختارك بدل مني، واحد خطف مدير ناحية لك مدير الناحية والمرافقة تبعو، وقتل كتير منهم، أكيد هذا بدو واحدة ملكة وحلوة وعيونها زرق وشعرها أشقر وجسمها رشيق متلي، مو بقرة متلك!

- اييه أنا بقرة! قومي انقلعي من عندي ومخاصمتك يلاااا.

- لك دبة عم بمزح معك .. هاتي بوسة؟

كولي: ما بدي.

تهجمت عليها شفين لمعانقتها رغمًا عنها والاعتذار منها.

* * *

وصل الثوار إلى منزل صديقهم آراس، استقبلهم والده الذي كان عمله هو استقبال المهنئين، دخلوا الغرفة المكتظة والصاخبة، كان آراس يجلس في منتصف الغرفة «صدر المنزل» وهو مبتسم، فهذا الرجل في السراء والضراء يبتسم ولا تفارقه الابتسامة، ويمتاز بها جدًا، عندما شاهد أصدقاءه اشتدت ابتسامته، وبدأوا بالعناق الشديد«يطبطبون» على ظهور بعضهم بعضًا، ولا أحد من الحاضرين يدري ما الأمر، كان تحت عينيه لونٌ أزرق وخده منتفخ قليلًا من التعذيب، ملامحه مرهقة، وعيناه محمرتان من قلة النوم، بادر أحد

المهنئين بالسؤال:

- ها آراس قلي ابني شو الوضع جوا؟!

- والله الحمد لله كلو تمام. (هكذا هو دائمًا يجيب بطيبته الكبيرة، ويجيب بعفوية).

- كيف يعني كلو تمام؟ ما فهمتو!

شيخموس: يا زلمة شو راح يقلك أنو التعذيب شغال والفرع مسلخ.

ليرد آراس بعفوية مرة أخرى: أي والله أي والله.

سكت قليلًا وسكت الحضور، نظر في عيون الجميع وقال: يعني شو بدو يحكي الواحد، أخدونا على الأمن السياسي، ودخلونا بالضرب وكانوا بياخدونا على التعذيب كل يوم، وبيشلحونا كل أواعينا «كما خلقني ربي» وبيربطو أيدينا ورا ظهرنا، وبسكروا عيوننا وما بتعرف من وين بيجيك الضرب، شغل كراتيه على أصوله، ياو كلو كوم، وأنو طول اليوم ما بيشربونا غير كاسة مي وحدة ونص رغيف خبز وحبة فلافل بايتة، والنوم ما في، الغرفة بتسع لـ ٢٠ شخص، كنا بنام فيها ١٢٠ شخص، شلون هي غير الله ما بيعرفها، والله تورمنا ـ وهو يضحك - واللي أمو داعية عليه أخدوه على سجون خارج عامودا.

تركوا آراس لينال حقه بقسطٍ من الراحة ورحلوا عنه، ولكن همسوا في أذنه بعيدًا عن مسامع الآخرين عندما أخذوه جانبًا، عما فعلوه بغيابه، ليسر قلبه قليلًا، لكن الذي أدخل السرور للثاني هو آراس، عندما همس في آذانهم أنهم - الأمن- خلف الأسوار يموتون رعبًا، وأن الدورية التي تكون دورها في المناوبة بالنسبة لهم هذه المناوبة ساعات من الرعب، كان

ذلك كفيلًا أن يزيد من عزيمة الثوار.

وعند العودة قال سعد لزملائه إنه لن يفرج عن مدير الناحية وحرسه إلا بعد الإفراج عن جميع المعتقلين، وذهب هو ونادر إلى الكنيسة ليطعموهم حتى لا يموتوا جوعًا، وأعطوهم شحيح الزاد والشراب لينهالوا مثل الذئاب الجائعة على رغيف الخبز، وبقي سعد يردد على مسامعهم: حتى تعرفوا كيف تجوّعوا المعتقلين.

مدير الناحية الذي لا يأكل إلا ما طاب ولذ من الطعام وأنواع الشراب والخمور، ويفترش على طاولته أشهر أصناف المأكولات والحلويات والفاكهة، هاهو اليوم يصارع على نصف رغيف خبز وكأس من الماء فقط.

إنه يصيح: كرمال الله يا شباب اللي بدكم ياه بعطيكم .. أبوس رجليكم طعموني بس.

كان شعورًا حقيرًا وذليلًا، وتم إعطاء الحرس رغيفًا كاملًا من الخبز ونصف إبريق من الماء للعنصر، وكل ذلك أمام أعين مدير الناحية الذي نال حصته آخر واحد وبقي متفرجًا ولسان حاله يقول للعناصر: بتاكلو قبلي يا أوغاد.

كانت القيادة العسكرية في عامودا تكاد تموت غيظًا وهم لم يروا أو يسمعوا خبرًا عن مدير الناحية وحرسه، وكانوا يخشون من خدعة ما من قبل الثوار.

عند منتصف الليل، كتب الثوار على أحد مباني المدينة في الشارع العام عبارة: بدنا كل المعتقلين.

في صباح اليوم الثاني، كان الشعور وكأن الحرية تداعب نسمات الربيع

وتبعث في الروح ثقة كبيرة بالنفس، مر يومٌ هادئ وقبله يوم نصر، واليوم يوم الربيع يوم الحرية، استيقظ العسكر على كلمات الحرية للمعتقلين المكتوبة على الجدران، فما العمل وهم يطلبون الكثير، يطلبون أن يخرج جميع المخربين والمتآمرين من المعتقلات، عدونا لا نعرفه، يخرج مثل الجان يضربنا على وجوهنا ويختفي، تبًا لهذه الحالة.

عادت الحياة إلى المدينة، وتوجه كل شخص حيث يكسب رزقه وقوت عيشه، وحتى الثوار توجهوا إلى أعمالهم، منتظرين الخطوة القادمة من الحكومة.

* * *

كما هي العادة عند العصر، تراكضت النفوس العاشقة إلى الطبيعة الخلابة للسير بين البساتين والحقول، خرجت الحبيبة اليوم تمشي بين ورود وأزهار الربيع بعد أن حبسوا روحها في المنزل، هي الفاتنة الخاطفة لقلوب الشباب تمشي كما هي الملكات في قصورهم، حتى الفراشات لم تتحمل إطلالتها، وبدأت الفراشات الغيورات المتزينة بالبرتقالي والأسود، تطير يمينًا ويسارًا وتحاول أن تعيد العيون إليها، ولكن ذهب طيرانها واستعراضها سُدى، وبقيت العيون تراقب الجميلة، وقفت الفراشة يائسة على وردة حمراء تتنهد غيرةً، خرجت الحبيبة اليوم من بين تلك الجدران بعد استسلامها لذلك الفارس الذي قتلها عشقًا ولم يأتِ، فقررت أن تخرج باحثة عنه لعلها تلتقطه بعينيها من بين الحقول للتنزه، هل مليك روحي يجد وقتًا لينال من الربيع سحره ؟ أم أن هموم أهل وطنه أخذته من بين الورود والأزهار إلى الرصاص والقنابل؟ هل الطبيعة تؤثر به ويرق قلبه.

أم أصبح قلبه حجرًا ؟ لا ..لا، تبًا لي كيف أفكر هكذا؟ سلطان القلوب وساحر العذارى لا يملك وقتًا للتفاهات فهو كالأسد الآن في مغارته يعد ويرتب لمعركة أخرى؛ إذن هو ليس هنا، فماذا أفعل أنا.. سأعود أدراجي إلى نافذتي لعله يطل على هيئة طائر يزورني ولا يجدني، سارعي يا قدماي إلى تلك النافذة فالحبيب سيطل في أية لحظة.

* * *

كان سعد ونادر يجلسان على سطح أحد البيوت الريفية ذاك البيت الطيني الدافئ، وينظران نحو جبال طوروس مستمتعان بذاك السحر من الطبيعة ليقطع نادر ذلك الهدوء بسؤال: شو راح نعمل إن ما طالعو بقية المعتقلين؟

سعد وهو يهز رأسه وكأنه استيقظ من الحلم: شو قلت؟!

- عم قول شو راح نعمل إن ما طالعو بقية المعتقلين؟

- لازم نضغط عليهم.

- شلون بقى.. نطلع مظاهرات؟

- لا طبعًا راح يلاحقونا ويلاقوها فرصة مناسبة لقتل المتظاهرين واعتقال البقية.. بعدين بكفي مظاهرات اللي طلعتها قامشلو والحسكة.

- لك شلووون نضغط عليهم؟

- مو نحن لغّمنا سيارتين يوم خطف مدير الناحية.. بنفجر وحدة منهم.

نادر: اي وراح يكتشفوا التانية وبعدين!

سعد: نحن وحظنا .. والليلة راح نعملها.

عند المساء اجتمع ماهر الأسد مع ضباطه في مقر الأمن العسكري الذي أصبح أكثر تحصينًا من ذي قبل، ليدرسوا شرط الثوار حول الإفراج عن جميع المعتقلين الذين تم ترحيلهم إلى معتقلات وأفرع خارج مدينة عامودا وغالبًا ما تم ترحيلهم إلى القامشلي والحسكة، وإذا ما تم الرضوخ لهذا المطلب ستنكسر هيبة الدولة المغرورة الجبارة أمام الشعب، وكيفية التعامل مع الأزمة بشكل عام والتصدي لمظاهرات المدن الأخرى المتضامنة مع عامودا.

توجه سعد ونادر دون علم البقية إلى منزل الدكتور حيث وضعوا جهاز التحكم مع بقية الأسلحة، وأخذ كل شخص منهم سلاحه ولبس الأسود وشدوا الوثاق تحسبًا لأي طارئ، وهما لا يعرفان أين أصبحت تلك السيارات؟ هل يُعقل أنها مازالت أمام منزل مدير الناحية ؟ توجها إلى المنزل حتى يتأكدا أنهما لن يفجّرا السيارة بحي سكني، وفعلًا وجدا سيارة مدير الناحية أمام منزله ولكن السيارة الأخرى ليست موجودة، فغالبًا ستكون في مرآب أحد الأفرع الأمنية لأنها سيارة تستقلها المرافقة، ذهبا إلى أحد الأسطح القريبة من مديرية الناحية وضغطا على الزر ولم يسمعا أي صوت، فالقنبلة مصنوعة بشكل بدائي ولا يعمل الجهاز إذا كان الهدف بعيدًا.

حاولا الاقتراب قدر الإمكان فلم يسمعا صوتًا أيضًا، انتقلا إلى الشارع المؤدي إلى الأمن العسكري، ولكنهما وجدا صعوبة في العبور، وبقيا أكثر من ساعة بالتنقل من حي إلى آخر حتى وصلا إلى أقرب نقطة لفرع الأمن السياسي من الجانب الشمالي، ضغطا على الزر وإذ بصوت انفجار ضخم

خرج من ساحة الأمن السياسي حيث كانت السيارة مركونة هناك، انسحبا على الفور من المنطقة قبل توافد الدوريات إلى الحي.

كان ماهر الأسد وضباطه مجتمعين، الضباط يحاولون إقناعه بالإفراج عن المعتقلين.

القائد العسكري: سيدي خلينا نطالع كل ال.... وبس يطالعوا مدير الناحية ومرافقتو بنرجع بنساوي حملة ونلم كل هالعرصات اللي بالمدينة.. وإلا راح يقتلوا العقيد والحرس!

- ويقتلوون وين المشكلة .. بالعكس بيصيروا شهداء في سبيل الوطن!.

وفجأة حدث انفجار هز المنطقة، على الفور نزل الجميع تحت الطاولة خشيةً من أن الثوار قد أصبحوا تحت المبنى. لينادي ماهر الأسد من تحت الطاولة: ولك شوفي؟!

- آبعريف سيدي ..

- حدا منكين يطلع يعرف شوفي.

دخل الحاجب عليهم ووجد كل أسياده يختبؤون تحت الطاولة! ليقول العنصر إن الانفجار حصل داخل ساحة فرع الأمن السياسي، ولا يعرفون حتى اللحظة كيف حصل ذلك؟ ليخرج ماهر الذي تحول إلى أسد بعد أن تأكد أن الخطر زال عنه، لينادي بصوته العالي: ولك .... شلون وصلوا لهنيك ها حدا يرد يا ضباطنا الموقرين يلعن ....

أدرك الضباط وعلى رأسهم ماهر أن ذلك ما كان إلا رسالة من الثوار لتذكيرهم بإطلاق سراح باقي المعتقلين، ولكن لم يعد ذلك يهم القيادة بقدر ما يتوقون لمعرفة كيف حصل الانفجار؟!.

أصبح صوت الانفجارات في المدينة معهودًا ولم يعد أحد يستغرب لأن ذلك أصبح اعتياديًا، ولكن الذين تفاجأوا هم آراس وشيخموس وعلي وبرزان، وتوجه كل واحد منهم إلى منزل الدكتور ليعرفوا ما الذي حصل، وهل أصبح في المدينة ثوار غيرهم؟!.

كان سعد ونادر قد وصلا قبلهم، ولم يبدأوا الحديث حتى طرق الباب وبدأ الشباب يتوافدون ويسألون ما الذي حصل؟ وعرفوا بالأمر وحتى يهدأوا قال لهم سعد: «بكرا راح تقوموا بعملية لحالكم». وكان ذلك مرضيًا لهم.

القيادة العسكرية بدأت تفور من الغليان ووحش الانتقام بدأ يصحو من النوم من جديد ليزداد احتقانًا في اليوم الثاني.

في الليلة الثانية كانت الدوريات تجول في كل الشوارع وحتى الصغيرة منها، جميع السيارات تسير ولا توجد سيارات واقفة باستثناء تلك التي بالشوارع المحصنة أمنيًا.

بدأ سعد يشرح للثوار الخطة التي سيقومون من خلالها بعمليتهم: اليوم أنا ونادر ما راح نطلع لأنو مبارح طلعنا بدونكم، العملية أنو كل واحد منكم بياخد سلاحه ومعه مخزن ذخيرة واحد فقط احتياط وقنبلة يدوية هدول عند الضرورة، خالو علي بيطلع بتجاه الحدود بالفلاة يعني الجهة الشمالية، وخالو شيخموس بيطلع بتجاه الشرق على طريق قامشلو كمان بالفلاة، وبرزاني بيطلع فوق «كّري شرمولا»[1] بالجنوب، وآراس

(١) كري شرمولا: كّري يعني تل ، وشرمولا الأسم، وهي تلة أثرية، وتعد عامودا مدينة التلال وتعد عمرها ٣ آلاف سنة، وتقع التلة عند المقبرة من الجانب الجنوبي.

بيطلع على الجانب الغربي ورا شعبة التجنيد بالأراضي اللي صايرة بتجاه الدرباسية، كل واحد بفضي الرشاش تبعو على الآخر بالسما، ومتل البرق بينسحب وبيجي لعند الدكتور، وبعدو بعشر دقائق بيبلش التاني وكل عشر دقائق واحد، والمخزن التاني فورًا بتركبوه للاحتياط إذا صار شي لاسمح الله بتستخدموها أو القنبلة.

برزاني وهو يضحك: شو طميمة مثلاً؟!

- أي بدنا نلعب معهم اليوم، لما بيبلش الأول يطلق الرصاص بالهواء، الدوريات كلها راح تفكر اشتباك فورًا راح يطلعوا على أساس مؤازرة لمصدر النيران، وقبل ما يصلوا لهنيك بكون الثاني منكم بلش يقوص الدوريات راح تروح لعندو وهيك لنخليهم يركضوا يمين وشمال وجنوب وشرق، وهي رسالة ضغط كمان.

أعجب الجميع بالفكرة ورحبوا بها، وجلس سعد ونادر عند الدكتور هرانت، خرج الثوار كل منهم إلى جهة حسب مهمته ليلعبوا لعبة حرق أعصاب مع الجيش، وأخذ كل شخص منهم مكانه وبيد كل منهم ساعة والمطلوب عند الساعة الثانية عشر ليلًا يبدأ علي وبعده بعشر دقائق شيخموس وعند الساعة الثانية عشر وعشرين دقيقة برزان وعند الساعة الثانية عشر والنصف يبدأ آراس.

لم يعد أهالي مدينة عامودا يعيرون اهتمامًا لمسلسل السهرة على التلفزيون الأرضي، فمسلسلهم الأهم الآن هو متابعة أخبار الثوار وما سيفعلونه عند كل ليلة، كانوا يجلسون عند النافذة أو فوق سطح المنزل بانتظار بدء مسلسل إطلاق الرصاص، وعندما تمر ليلة بدون اشتباكات كان الأهالي

يشعرون بالملل.

بدأ علي أولاً بإطلاق الرصاص في الهواء، هرعت الدوريات إلى المنطقة لمحاصرة المسلحين، وصلوا إلى هناك ولم يجدوا شيئًا، وفجأة بدأ صوت الرصاص من أقصى شرق المدينة، الدوريات تعود أدراجها شرقًا واعتقدوا أن كمينًا كان بانتظارهم.

توجهت الدوريات إلى الجانب الشرقي ولكن لم يجدوا شيئًا، اعتقدوا أن هوسًا أصابهم وبدأوا يتخيلون أمورًا لا وجود لها!.

وبعد قليل صوت آخر من الجنوب، يصيح ضابط: يا شباب اللي عم يصير تمويه حاصروا المنطقة بسرعة، وعند وصولهم اختفى الصوت، الجميع مذهول، وبعد عشر دقائق بدأ صوت إطلاق رصاص من الغرب، الكل ينظرون إلى بعضهم بعضًا، يتساءلون هل نذهب أم ماذا؟ أعطى ضابط ميداني أوامره عبر اللاسلكي: إلى جميع الدوريات والضباط استنفار استنفار، يلي ميحصل تمويه لعملية كبيرة راح يقوموا فيها.. عمليات عمليات استنفار، في عملية كبيرة راح تصير وكل اللي متسمعوه ماهوي إلا تمويه انتباه.. انتباه.

في تلك الليلة لم يستطع ضابط أو صف ضابط أو عسكري النوم وعلى رأسهم ماهر الأسد، خشيةً من عملية كبيرة ستحدث في أية دقيقة، وكان الناس مندهشين ويتساءلون ما الذي حصل؟.

تفجير الكنيسة!

انبلج الصباح والديك يصيح ليوقظ النائمين، وحالة هدوء قاتلة في المدينة، وحالة هلع في نفوس العسكر.

جُن جنون الأسد وبدأ يشتم: ولك شو هالعرصات ميلعبو معنا بدي ألعن .... ماشي يا ...

قرر ماهر الأسد العودة إلى دمشق ليراجع القيادة في قرار وصل إليه، وخبأه في نفسه، وقبل عودته قام بعزل القائد العسكري ووضع ضابطًا آخر بدلًا منه وأعطاه كل الصلاحيات حتى يعود الآخر من دمشق، القائد العسكري الجديد أمر بحملة اعتقالات جديدة تبدأ من الطبقة المثقفة وحتى المواطن العادي، وكأنهم يقولون اقتلوا مدير الناحية ومن معه.

بدأ شباب المدينة من جديد يتوارون عن الأنظار، واحتار الثوار ماذا سيفعلون بخصوص الأسرى الذين عندهم؟ ذهب سعد إلى صديق عنده كاميرا تصوير وطلبها منه، وتوجه مع بقية الشباب بشكل فردي كل على حِدة إلى الكنيسة، حيث الأسرى منذ يومين لم يتناولوا الطعام، عندما وصلوا كان مدير الناحية فاقدًا للوعي مع اثنين من الحرس، تم سكب

الماء عليهم، استيقظوا وتم إسنادهم إلى الحائط وإطعامهم واحدًا واحدًا. وفكوا وثاق مدير الناحية ووضعوا أمامه بعض الخبز والماء، هجم على الخبز والماء كما يهجم الأسد على الغزال، وبدأ يتناول بيديه الاثنتين معًا، كل ذلك يقوم سعد بتصويره لكسر هيبة مدير الناحية في المدينة حتى لا يعود إلى طغيانه بعد الإفراج عنه، وقال لهم سعد إنه سيتم الإفراج عنهم وسينالون من قادتهم، وتوعدهم بما لا يتوقعونه، وقاموا بفك وثاق أحد الجنود وطلب منه أن يفك وثاق الجميع ولكن بعد خروجهم. خرج الثوار وصعدوا فوق سطح الكنيسة يترقبون من بعيد، قام العنصر بفك الجميع وبدأوا يساعدون العقيد على المشي وكلهم في حالة يرثى لها، خرجوا من الكنيسة، وتوجهوا إلى منزل مدير الناحية وكان منهكًا، عندما تأكد الحرس الذين يحرسون منزل مدير الناحية من هويته ركضوا لمساعدته وساندوا زملاءهم، كان مدير الناحية ضعيف الجسد بسبب قلة الغذاء والشراب، لحيته كثة وملابسه متسخة، وعيونه سوداء كما الوحوش، وهذا حال جميع العناصر، عرفت القيادة بذلك وتم إدخالهم جميعًا إلى المستشفى ليتماثلوا للشفاء حتى يتم التحقيق معهم، وعند التحقيق انصدم القائد العسكري أن الذين خطفوهم كانوا فقط خمسة أشخاص وكانوا يرتدون اللباس العسكري التابع للجيش، لم يصدق ذلك، وكان القائد العسكري يحاول أن يستوعب أن كل هذا الاستنفار من الجيش والدولة لمجابهة خمسة أشخاص فقط! عرف أن المعتقلين كانوا في الكنيسة القريبة من منزل العقيد، جُن القائد العسكري بشكل هستيري، أرسل دورية كبيرة إلى الكنيسة وما حولها لتمشيط المنطقة، وأمر بتفتيش كل المنازل

المهجورة في المدينة والبيوت التي في الأراضي الزراعية التي يستخدمها المزارعون وهدمها، حصلت حملة مداهمات وتفتيش بشكل كبير، دورية تذهب وأخرى تعود ولم يبق منزل مهجورًا في عامودا إلا وتم هدمه حتى تلك الغرف الوحيدة في الأراضي الزراعية تم هدمها، وتوجهت دورية إلى الكنيسة لتفتيشها وهدمها! إلا أن الثوار قد اتخذوا احتياطاتهم، عندما تم الإفراج عن مدير الناحية، كان الثوار فوق أحد الأسطح يراقبونهم، وعندما خرجوا من الكنيسة، نزل الثوار إلى ساحة الكنيسة ووضعوا عند الباب الخارجي قنبلة يدوية وقاموا بربطها بقفل الباب، كانوا على معرفة ودراية أن النظام سيرسل دورية لتفتيش الكنيسة!.

وضعوا القنبلة عند الباب الخارجي حتى لا يلحقوا الضرر بالكنيسة التي هي بالأساس مهجورة ولا تتحمل جدرانها أية هزة، وصلت الدورية إلى الموقع وكما هي عادة الدوريات يتم رفس الباب بشكل قوي بقدم العسكري، وعندما ضرب العسكري الباب برجله ليخلعه، ردت عليه القنبلة بانفجار قطع ساقه ووقع من هم خلفه من الجنود والضباط، ومرة أخرى بلعوا الطعم، وبعد إجلاء عناصر الجيش تقدمت الجرافات وقاموا بهدم الكنيسة ومحوها وجعلوها كومة تراب.

الاستعداد لعملية كبيرة

مضى يومان، وحالة من الهدوء والاحتقان في المدينة، والدولة ما زالت مستمرة في اعتقالها للشباب، ولكن جثث المعتقلين بدأت تتوافد على الأهالي، وقد قُتلوا تحت التعذيب، كانتقام من الثوار الذين عجزت الدولة عن الوصول إليهم بأية وسيلة. عند الظهيرة توجه سعد وبيده جهاز التحكم باتجاه مديرية الناحية، وجد سيارة مدير الناحية عند الباب، وما كان بينه وبين السيارة سوى أمتار قليلة حتى ضغط على الزر وحدث انفجار وراح ضحيته أربعة من الحرس وعدد من الجرحى غير الأضرار التي لحقت بالمبنى وتصدع الزجاج، وعاد الرعب إلى قلوبهم، وكأن الثوار يقولون لهم هناك المزيد..

كان الثوار يجهزون الفيديو الذي صور فيه مدير الناحية وهو مأسورٌ ذليل ليفاوضوه عليها مقابل الإفراج عن المعتقلين.

نيجرفان[1] عنصر في الجيش من مدينة عامودا، عاد إلى المدينة في

(١) نيجرفان: يعني الصياد/ المقصود هو نيجرفان عسكري انشقق عن النظام عام ٢٠١٣، واستشهد في منطقة نهر عيشه بدمشق واسمه بالكامل: نيجرفان فرهاد حسين.

إجازة، بدأ نيجرفان يبحث عن هؤلاء الثوار فهو يمتلك معلومات مهمة يجب توصيلها إليهم بأي شكل، وليس هناك أحد يعرف كيفية التواصل مع الثوار، بدأ نيجرفان يقول أمام الأصدقاء إن لديه معلومات مهمة يريد أن يوصلها إلى الثوار، وفعل ذلك ليصل الخبر إلى الثوار، مضى يومان على قدوم نيجرفان وهو يكثف البحث، كان شيخموس يجلس في المقهى يحتسي الشاي وعلى طاولته بعض أصدقائه، وسمع من الطاولة المجاورة شخص يقول: يا شباب والله دخت وما وصلت لشباب«الثوار» عندي معلومات لازم يعرفوها، ليرد عليه أحد الأصدقاء: يا زلمة وطي صوتك ورك والله إذا سمعوك المخبرين بشرفي بتروح فيها، خصوصًا أنك عسكري!!.

وبعد قليل قام نيجرفان ليذهب إلى منزله، تبعه شيخموس وكان يمشي خلفه ويراقبه على مقربة، حتى وصل نيجرفان إلى منزله، عاد شيخموس إلى سعد وأخبره بالأمر، استغرب سعد من ذلك، وأخذ العنوان من شيخموس، اقترح عليه نادر والدكتور هرانت، أن يذهب سعد ليلتقي به ويعرف منه المعلومات، ولكن الأمر ليس بالسهل أن يكشف أحد الثوار عن هويته، أساسًا هذا سبب عجز الدولة عن التصدي لهم رغم قلة عددهم!.

بدأ سعد وبقية الثوار يسألون عن نيجرفان بشكل غير مباشر والذي ساعدهم أكثر هو دكتور هرانت كونه يلتقي يوميًا بالمرضى والمراجعين والجميع يحترمونه ويبجلونه بشكل كبير، عند المساء التقى الثوار عند منزل الدكتور واجتمع الرأي على سمة الشاب الجيدة والكل مدح منه ومن أهله ومن وطنيتهم، السؤال الذي راود الجميع هل يعقل أن يكون

جاسوسًا من قبل الدولة ليوقع الثوار بالفخ، فكل شيء وارد ؟

في هذه الليلة كانت الأمطار تهطل بغزارة وكأن الشتاء عاد، توقف المطر وبينما هم يتناقشون، بدأ باب الدكتور هرانت يطرق وبشدة، الكل هرع إلى سلاحه وقلوبهم أصبحت بين أيديهم وأخذ كل شخص زاويته، والباب مازال يطرق بقوة كبيرة جدًا، حتى دكتور هرانت خاف وانخطف لونه، وصل عند الباب ونادى: مين؟

- أنا دكتور .. أنا دلشاد[1] اللي اجيت عندك من الضيعة قبل يومين مع أمي.

- يلا .. يلا. هدأ الدكتور وأخذ نفسًا عميقًا، وحتى الشباب هدأوا ونزلوا على الفور إلى القبو بإشارة من الدكتور، وكأن كابوسًا زال عنهم، فتح الدكتور الباب وإذ بشاب قصير صحته جيدة ووجهه أبيض بدون شارب أو لحية، والدته تتعالج عند الدكتور وهم من خارج المدينة.

- أنا أسف دكتور صحيتك من النوم؟ بس والله أمي تعبانة كتير وما لقيت سيارة أجيبها بسبب المطر، وإذا بتتكرم وتروح معي على الضيعة بتكون فضلت!!

- أي تكرم هذا واجبي، بس كيف الدوريات خلتك تفوت عامودا؟!

- صرلي ساعة عم بتنقل من دورية لتانية وأنا بقلهم أنو أمي مريضة وبُست أيديهم لدخلوني ومشي الحال أكلت كم كف على الرقبة وعلى الوجه.

دكتور: يا الله بسيطة ثواني لألبس.

(١) دلشاد: دل = قلب ، دلشاد يعني القلب الفرح.

خرج الدكتور بسيارته ومعه دلشاد إلى خارج عامودا، وبدأت الدوريات توقف السيارة عند كل حاجز ويطيلون بالأسئلة، كانت الساعة الثانية عشرة ليلًا عندما خرجا من منزل الدكتور وبقيا أكثر من نصف ساعة على أسئلة الدوريات، وصلا إلى القرية، طلب منه دلشاد أن يوقف السيارة ليكملا سيرًا لأن الطريق طيني، لا يمكن للسيارة العبور، نزل الطبيب وقام برفع بنطاله إلى الركبة وحمل حقيبته وسار في الطريق الطيني حتى وصل المنزل وكان ممتلئًا بالطين، تفحص المريضة المسنة وأعطاها إبرة في الوريد وعلبة دواء، كان دلشاد القروي يكاد يموت رعبًا من دفع أتعاب الدكتور، الذي أتى به من المدينة في منتصف الليل وسار به في الطين وأعطاها إبرة وعلبة دواء، بدأ قلبه يخفق، وهو قروي فقير ووضعه المادي سيىء، أنهى الطبيب عمله وغسل يديه، فقال له دلشاد: غلبناك دكتور بنص هالليل لا تواخذنا .. قديش بتأمرنا دكتور؟

نظر إليه الدكتور ونظر إلى المنزل: مية ليرة (١٠٠) بتكفي[1].

استغرب دلشاد من الرقم وانصدم، في هذه الحالة يستحيل أن يأتي طبيب بأقل من ٥٠٠ ليرة سورية بدون إبرة ودواء، والرجل في الحقيقة لم يكن يمتلك في كل المنزل أكثر من ٥٠٠ ليرة، وكان يخشى أن يطلب الدكتور أكثر من المبلغ الذي معه، فينحرج أمامه. عاد الطبيب الإنسان إلى المدينة، أوقفته دورية عند مدخل عامودا ومنعوه من الدخول، وهو يردد على مسامعهم أنه خرج قبل نصف ساعة وعرف بنفسه وأبرز هويته المهنية

---

(١) هذه القصة حقيقية بدون المشاهد العسكرية، ويكون هذا القروي صديق لوالد الكاتب وهو الذي روى القصة.

حتى اقتنعوا، وأثناء دخول المدينة أوقفته دورية أخرى وكانوا سيأخذونه إلى الفرع للتحقيق معه، إلا أنه انتهى من هذه المضايقات ليصل إلى منزله عند الساعة الرابعة فجرًا في مشوار لا يستغرق بطوله وعرضه أكثر من ساعة واحدة فقط!.

في اليوم الثاني تلقى نيجرفان اتصالاً هاتفيًا من رقم خاص يطلب منه التوجه إلى العنوان الذي أعطوه في تمام الساعة التاسعة مساءً، وأن لا يخبر أحدًا، استغرب نيجرفان من هذا الاتصال، ولكن خطر بباله أن يكون المتصل من الثوار.

عند الساعة التاسعة مساءً خرج نيجرفان وأصبح في المكان المحدد، وكان برزان وآراس يراقبانه من بعيد منذ أن خرج من المنزل حتى وصل إلى العنوان، وقف نيجرفان ينظر يمينًا ويسارًا وقلبه يخفق وهو متوتر للغاية، ليس من السهل التواصل والحديث مع الثوار، وأصبح يخشى أن يكون في الأمر مكيدة، لكن ما بعث الرعب في قلب نيجرفان، أن العنوان في المقبرة وهو واقفٌ بين القبور، وكان آراس وبرزان يراقبان من بعيد، وشيخموس وعلي على «كري شرمولا» من الأعلى يستطلعان المنطقة، وسعد في مكان ما بين القبور لن يظهر إلا بعد التأكد أن لا مكيدة في الأمر، وقف نيجرفان عند أحد القبور وكان وراءه غرفة لأحد الأولياء وهي نفسها تلك الغرفة التي اختبأ فيها الثوار عندما اشتبكوا مع الجيش، سمع نيجرفان صوتًا من خلفه وكاد قلبه يقع من بين أضلعه.

- لا تطلع وراك وخليك متل ما أنت شو هي المعلومات اللي عندك؟!

كان سعد يتكلم من داخل الغرفة واقفًا خلف النافذة احترازًا من أي

محاولة اغتيال أو استهداف من بعيد!

- أول شي بدي خبرك إنكم مرعبين القيادة العسكرية كلها بالشام وغيرها وكل العناصر الأكراد اللي بالجيش معكم وأنا أولهم.

- شكرًا هذا واجبنا.. بس احكي لنا شو المعلومات؟

- حاليًا عم يجهزوا لحملة كبيرة بقيادة ماهر الأسد وراح يسحبوا الفرقة تبعنا والفرقة الرابعة وقوات حفظ النظام وراح يحشدوا قوات للمنطقة كلها.

سعد مستغربًا: كل هالقوات مشان عامودا؟!

- لا.. بدهم يضربوا عامودا بإيد من حديد، وماهر بالشام هلا ليرتب الأمور هنيك والخطة تتضمن ضرب عامودا بالطيران والمدفعية حتى تستسلموا، والقوات اللي راح يجيبوها حتى يقتحموا أي مدينة بدها تتضامن مع عامودا مثل كم يوم بالحسكة وقامشلو، راح يضربوا بإيد من حديد أي مظاهرة بتطلع بأي مدينة بسورية.

سعد في حالة صدمة: وشو اللي بخليني أتأكد من صحة معلوماتك؟

- وشو بخليني أغامر بحياتي وأنا عسكري وأكذب بالمعلومات؟

- بلكي كنت مدسوس من قبل الدولة؟

- ممكن.. بس فكر بالموضوع شوي وراح تتأكد من معلوماتي، وإذا بدك اسأل بأي طريقة واتأكد أنه ماهر الأسد بعامودا ولا بالشام؟

صمت سعد قليلًا فالكلام خطير جدًا.. عاد نيجرفان للحديث: أنا خبرتكم لأني خايف على مدينتي وأهلي، لازم تتصرفوا بأي طريقة أنا ما راح أزعل منك لأنك كذبتني وهذا حقكم إنكم تخافوا من أي حدا، وأي

خدمة أنا جاهز لدافع عن مدينتي حتى آخر نفس وأي معلومة عسكرية أنا كمان جاهز.

سعد: تسلم.. صار فيك ترجع بنفس الطريقة اللي اجيت منها من غير ما تطلع وراك، وإذا احتجناك بنعرف كيف نتواصل معك.

خرج نيجرفان من المقبرة وبعده بنصف ساعة خرج سعد وغادر المكان، بعد أن تأكد أن الأمور بخير، كان سعد شاحب الوجه مخطوف اللون، وتوجه إلى منزل الدكتور واجتمع مع باقي رفاقه وطلب من الدكتور الدخول معهم لإبداء الرأي وعرض سعد على مسامعهم ما قاله نيجرفان.

سعد: الموضوع صار كبير كتير، إذا اللي حكاه العسكري صحيح.

اعترض البعض وشكك بإمكانية أن يكون هذا العسكري مرسل من قبل الدولة لتوريطهم بأمور أكبر منهم، اعترض الدكتور هرانت على ذلك وأكد على مصداقية كلام العسكري باعتباره أكبرهم سنًا وأكثرهم درايةً بحكم حزب البعث، وأكد أن الدولة ستبيد عامودا إذا لزم الأمر دون أي رادع وذكرهم بحماة وحلب وجسر الشغور بإدلب، وحرق أطفال سينما عامودا في الستينيات من القرن الماضي.

نادر: والعمل شو بدنا نعمل ياو.

سعد: ما في غير حلين، إما نعلن أنو راح نترك السلاح بشرط يتركوا كل المعتقلين، أو نكمل بالثورة، وإذا بدنا نكمل يعني راح نواجه اللي حكاه العسكري، وهيك راح يلزمنا سلاح كتير وثوار أكتر، فأي حل بتختاروا؟

شيخموس: شو خوارزمي* الحل الأول شيلوه من بالكم، نظام البعث

كلنا بنعرفوا راح يرفضوا شروطنا، وأكبر دليل تركنا مدير الناحية وباقي العناصر وما تركوا المعتقلين ومو بس هيك راح ينتقموا منا.

علي: كلام بسمام[1] شيخموس صحيح، هدول ماهم أمان وتذكروا لما بلشنا أول شي تكركبوا، فكيف إذا صرنا متل جيش؟

سعد: بعرف يا شباب كل أهالي عامودا مستعدين يحملوا السلاح بس وين السلاح؟

سادت حيرة وصمتٌ مطبق على المكان، ليقاطع خلوتهم آراس بسؤال.

آراس: هلا العناصر اللي اعتقلتوهم ما حققتوا معهم بخصوص مستودعات الأسلحة؟!

نظر الجميع إلى بعض.

سعد: مبلى حكولنا في مستودع للأسلحة بالطابق الأرضي بمدرسة أبو فراس الحمداني[2] القديمة بجانب مدرسة بديع خلو!

آراس: أي .

- شو آي!!

برزان: بندخل عليها وبناخد السلاح.

علي: شو مفكر راح تدخل سجن عامودا ولا على الناحية!! يا شباب الله وفقنا بعمليات كانت مستحيلة بس لا تخلوا الحماس ياخدكم كتير لبعيد!!

(١) بسمام وخوارزي: يعني عزيزي أو صديقي، وأحياناً تستخدم كنوع من قرابة في النسب.

(٢) مدرسة أبي فراس الحمداني كانت مهجورة عام ٢٠٠٤، وكان بناؤها قديماً مهترئاً وعند دخول الجيش اتخذوها ثكنة عسكرية لهم، وهناك مدرسة أخرى بهذا الاسم بالجانب الشمالي من المدينة.

برزان: والله راح يوفقنا بهي كمان.

شيخموس: ونعم بالله بس بالعقل.

وجد سعد أن النقاش سيبقى يدور في حلقة فارغة بين حماس وإحباط، وكان لابد من سماع رأي من خارج هذه الدائرة.

- ما سمعنا صوتك دكتور؟!

- مو مزحة أنكم تدخلوا المدرسة وهي مغامرة! بس إذا كبرتوا المجموعة وحطيتوا خطة مُحكمة ترى تقدروا تدخلوا، موقع المدرسة بساعد على الدخول، موقعها الجغرافي لصالحكم بس هدول مساوينها ثكنة عسكرية يعني إذا دخلتوا راح تقاتلوا جيش.

سعد: يا شباب الشغلة مو مزحة.. صحيح بدنا سلاح كتير وبأسرع وقت، بس راح نواجه جيش ونسبة الخطر كبيرة كتير، وأنا خايف عليكم وما بدي أشعر بالذنب تجاه أي حدا.

آراس: أسمع قربان لما أجينا معك مو لأنك سعد لأنو هي عامودا.. وتركنالك الخطط والتدبير كونك كنت أول واحد بديت فيها، بس إذا أنت خايف علينا لازم كمان تخاف على هالناس متل ما عملت أول شي.. أنا مع دخول المدرسة.

برزان: وإذا متنا صرنا شهداء وإذا اعتقلونا ففداءً لعامودا والوطن ياو.. وأنا مع..

علي: وأنا مع بس لازم ننقسم لقسمين، قسم يبلش يختار عدد من الشباب الموثوقين لينضموا معنا، والقسم الثاني يخطط بشكل مدروس للعملية.

شيخموس: متل ما قال أخوي علي لازم نحط خطة قوية لنقدر ناخد السلاح، ولاتنسوا الشباب اللي راح ينضموا إلنا ما لازم يتجاوز عددهم ٥ أشخاص لحتى السلاح يكفينا لهي العملية الكبيرة.

نادر: يا سيدي نحن لها.

سعد: راح نبلش من بكرا.

اتفق الثوار على عملية ستكون هي القاصمة إما لهم أو عليهم، فدخول ثكنة عسكرية مهمة في غاية الخطورة، وإذا ما فشلوا في هذه المهمة فسيكون مصيرًا أسود على عامودا. اتخذ الثوار قرار الدخول إلى الثكنة وقد يلقوا فيها حتفهم، ولكن ليس الكرد من يستسلمون للظلم وليس الكرد من يهابون الموت، الموت يهابهم، فالكرد من أُزهقت أرواحهم على مدار القرون دون أن يستسلموا يومًا هم ثوار الجبال. انشغل الثوار بالإعداد للعملية القادمة والتخطيط لها والدراسة، واستلم سعد وشيخموس هذه المهمة لوضع خطة للعملية، أما الباقي وعلى رأسهم علي، تولوا مهمة انتقاء خمسة أشخاص آخرين للانضمام إليهم بشرط أن يكونوا موثوقين تمامًا، فالسلاح المتبقي لا يسمح لأكثر من هذا العدد بالمشاركة في المعركة، واتخذوا قرارًا بوقف أية عملية أخرى.

مضت أيام والمدينة هادئة ومسلسل البطولات متوقف عن البث، الناس في استغراب تام، حتى الحبيبة ليست على ما يرام، فحتى الشيء الذي كان يصبرها اختفى، هل كانت في حلم أو كانت غارقة في قراءة رواية عن الفرسان والأبطال والأساطير وخُيلٌ لها أنها في الواقع، واليوم انتهت فصول الرواية؟ إذا لم تكن كذلك؛ أين اختفى ولماذا لم يعد يطرب

قلبي برصاصاته؟ أصبح الظالم يتمرد بغيابه، هل تراه في استراحة محارب؟

حتى القائد العسكري استغرب من توقف العمليات ضدهم، الذين أرعبوهم لم يعودوا موجودين فأين اختفوا؟ وبدأ القائد العسكري ينسب لنفسه أنه صاحب هذا النصر، «شفتو كيف هالعرصات اختفوا بعدما ورجيتن العين الحمرا على أصولا؟».

بدأت الدوريات تخف نوعًا ما، توجه وفد من المدينة إلى القائد العسكري لمطالبته بفك الحصار الكامل عن المدينة، ورفع حظر التجول وعودة الحياة إلى ما كانت عليها، انتهى اجتماعهم دون رد واضح.

بدأ بعض الناس في السوق يسوقون لفكرة اعتقال الثوار من بين من تم اعتقالهم في الفترة الأخيرة دون أن تدرك الدولة ذلك. وصل إلى مسامع الثوار عن هذه الإشاعة الدارجة، استغل الثوار ذلك وبدأوا يعززون هذه الفكرة حتى تستجيب الدولة لتلك المطالب ويساعد ذلك على تحركاتهم، بدأت الإشاعات تكثر في المدينة عن اعتقال الثوار، ووصل الخبر إلى القائد العسكري عن طريق الجواسيس والمخبرين حول وجود الثوار في المعتقلات، شعر بالخزي فهو الذي اعتقد أن الثوار توقفوا عن ثورتهم بسبب إجراءاته الأمنية الحاسمة! قررت القيادة العسكرية رفع حظر التجول من بعد صلاة المغرب إلى بعد صلاة العشاء، وتخفيف الدوريات ورفع الحصار عن عامودا.

* * *

ذهبت شفين إلى منزل صديقتها كولي وبدأت تطرق الباب بشكل قوي، فتحت كولي الباب وهي ممتعضة وتصرخ وجع.

كولي: كجي[1] شبك هديتي الباب!

- كلو بسببك أنتي!

- شو بسببي .. تعي فوتي ، تضربي..شبك؟

- ضليتي تنقي عليه حتى اعتقلوه انبسطتي هلا!

- يخرب بيتك على هالحكي إذا صحيح.. بعدين أنا شو دخلني!

- كلو منك.. وما راح أحكي معك أبدًا.. ضليتي تحكي أنو بحبك وفارسك حتى طرقتيه عين! سلاالم.

كولي: يا مجنونة استني!!.

* * *

يقولون من ملك الفؤاد خلف القضبان؛ يقولون إنه مقيد كما هم الأسود بداخل قفص فولاذي، يقولون سلطان قلبي يُعذب، يقولون من أسرني عشقًا مأسورٌ، يارب هذا الكون هو روعات قلبي. يا لدمعات لم تعد تجف، يا لقلبي الذي أنهكه الهوى.

تلك الحبيبة استسلمت للفراش فالحب كان أكبر من قلبها، لم تتحمل تلك الدقات الهائجة كالبركان، لم يعد الشهيق والزفير يعملان جيدًا، شعرت بضيقٍ في التنفس، دارت فيها الغرفة والسماء، ووقعت مغشية.

(١) كجي: يا فتاة.

وحدنا من نحارب سايكس - بيكو

عمان /نيسان ٢٠١٧

كنتُ ومازلت كالكثيرين من الكرد الذين تلاحقهم لعنة الانتماء إلى القومية الكردية، منذ أن خرجت من وطني مُكرهًا، أتيت إلى وطن لا يعرفني فيه أحد، تقصدت في ذلك، حتى لا أتذكر الماضي في الوجوه والأسماء، ورغم ذلك فإن الماضي لم يتركني.

أما اليوم وبعد الثورة التي اندلعت في سورية عام ٢٠١١، تفاجأت أن الكثير من أبناء شعبنا السوري لم يسمع بالانتفاضة الكردية عام ٢٠٠٤، والذين سمعوا بها أطلقوا عليها انتفاضة الانفصاليين، تلك التهمة التي ستبقى تلاحقنا إلى الأبد، لأن الذين يجهلون التاريخ سيجهلون الحاضر رغم وضوحه، كل الدماء التي قدمناها في ذاك الزمن لم تؤخذ بعين الاعتبار وكل الشهداء والمعتقلين والضحايا، حُكم عليهم بالخيانة.

في العمارة التي أسكن فيها، وفي سهراتنا غالبًا ما يشتد النقاش بيننا، وما عليّ إلا أن أدافع عن قضيتي كأي متهم بريء يحاول إثبات براءته.

سألني العم أبو شام ذاك الستيني من العمر، عن رأيي بالذي يحدث

في الوطن السوري، وهل الحرية تستحق كل هذا المهر؟!.. لم أعلم ماذا أقول له وهو العالم أكثر مني، فكل الكلام في حضرة الدماء هراء، أنهارٌ من الدماء تجري والكل يصفق.

عماه إن الحرية تستحق كل ذلك، نعم، كان لي عصبةٌ قدموا أرواحهم فداءً للحرية، وأخذوا روحي معهم، فالحرية حقٌّ مشروع، لا هبة من السلطان، في عام ٢٠٠٥، وفي دمشق العاصمة دخل عناصر من الأمن وخطفوا شيخًا جليلًا يدعى «محمد معشوق الخزنوي» وقاموا بتعذيبه حتى الموت، ليُكشف فيما بعد أنه دُفن في الصحراء بين الحسكة وديرالزور، لم يراعوا حرمة دمه، وليس لهم ذمة هؤلاء الذين يريدون تكبيل الحرية بالأغلال، كان ذنب الشيخ الجليل أنه وقف في عزاء أحد شهداء الانتفاضة الكردية وقالها صارخًا بوجه الطغاة» إن الحرية أيها السادة لا يتصدق بها أحد إنما الحرية تؤخذ بالقوة» رحم الله شيخنا.

عماه.. الكرد ومنذ نشأتهم يحاربون ويقاتلون لأجل حريتهم، وبعد أن باركت كل شعوب الشرق الأوسط اتفاقية سايكس - بيكو، بقي الكرد وحدهم يحاربون هذه الإتفاقية ويدفعون من دمهم أغلى جزاء!.

- بني من أنت ومن صحبك؟.

قصة حبٍ في قلب معركة

عامودا/ نيسان ٢٠٠٤

كان الثوار غارقين في التخطيط وإعداد العدة لمعركة حاسمة، معركة فاصلة حول استمرارية الثورة من عدمها، كان الثوار قد وضعوا خطتهم للبدء بالتنفيذ، وكان سعد قد اقترح عليهم أن يستعينوا بالعسكري نيجرفان للاستفادة من خبرته العسكرية، مع أن ذلك مغامرة خطرة بالنسبة لنيجرفان إذا ما كُشف أمره، لاقى هذا الاقتراح رضى الجميع، التقى نيجرفان مع سعد الذي لم يكشف حتى اللحظة عن هويته ووجهه أمام نيجرفان، جلسا معًا فوق «كري شرمولا»، وتفهم نيجرفان عن عدم كشف سعد لوجهه أمامه لضرورات أمنية تحمي كلا الطرفين.

سعد: قررنا نعمل عملية خطيرة كتير وراح نحتاجك!

- أنا جاهز بس شو هي الخطة؟

- راح أطلعك على الخطة بالوقت المناسب بس مهمتك هلا خطيرة وإذا انكشف أمرك راح يكون عقابك مضاعف.

- شو ما كانت مهمتي مو أقل خطورة من أنكم عم تعرضوا حياتكم

للخطر، بعدين أنا ابن عامودا متل ما انتو ولادها.

سيشارك نيجرفان الثوار عمليتهم وتم إضافة اسمه من بين الخمسة، واتفق سعد مع نيجرفان على أنه لن يطلعه على الخطة إلا قبل العملية بساعة لضمان سلامة نيجرفان في حال حدث أي طارئ كونه عسكريًا، وإنهم سيكشفون له عن هوياتهم بعد العملية. كان علي وباقي الثوار قد اتفقوا مع أربعة أصدقاء من المقربين منهم، عليكو(١) وفنر(٢) ورودي(٣) وولات(٤)، تم انتقاء هؤلاء الأربعة لمعرفة الثوار بهم، وتم استدعائهم إلى الاجتماع في منزل الدكتور جميعًا لإطلاعهم على الخطة. كان الثوار قد نشروا في المدينة الفيديو المسجل لمدير الناحية وهو ذليل أثناء الأسر، وهبطت أرصدة مدير الناحية جدًا وكُسرت هيبته، حصل ذلك بعد أن أرسل الثوار رسالة إليه يطلبون منه إطلاق سراح المعتقلين مقابل عدم نشر الفيديو، إلا أن القائد العسكري رفض طلب مدير الناحية، وأصبح القائد العسكري على ثقة كاملة أن الثوار انتهوا وصدق الألعوبة، والذي دفع الثمن هو مدير الناحية، الذي اكتشف أن سمعته وهيبته وحتى حياته لا يساويان شيئًا لدى القيادة المتغطرسة.

بدأ سعد يعرض الخطة على زملائه بعد أن وضعها مع شيخموس، تقع المدرسة في الحي الغربي، يؤدي الشارع باتجاه الشرق إلى الجامع الكبير، ويقع على بُعد ١٠٠ مترًا مدرسة أخرى للبنات في المرحلة الأساسية مدرسة

(1) عليكو: علي، غالبًا ما يضع الأكراد حرف الواو عند المناداة.

(2) فنر: منارة التي تضيء السفن.

(3) رودي: الإشراق وهو أيضًا مشتق من الرّود والرود هو مصدر فعل الرائد في طلب الشيء.

(4) ولات: وطن.

«بديع خلو» وبين المدرستين الواقعتين في الشارع نفسه منازل، أمام المدرسة وعلى طول الشارع بشكل مستقيم منازل وجهًا لوجه مع المدرسة، ويقع خلف المدرسة منازل وهذا ما يساعد الثوار أيضًا، إن باحة المدرسة كبيرة وتلاصق هذه المنازل.

سعد: هلا الموقع بساعد وبكل سهولة بنقدر نتسلل للمدرسة بس نلهي الحرس، وبنفس الوقت في عنا مهمة تأمين الحي وأنو ولا حدا مدني يُصاب لأنو راح نشتبك معهم ونحن منحتمي بالأسطح البيوت المجاورة. ٥ راح يدخلوا لجوا و٦ بيشتبكوا برا، قبلها كل الشوارع اللي بتودي للمدرسة راح نقطعها بالحجارة لحتى ما يحاصرونا بالدوريات، وهيك راح يضطروا ينزلوا من السيارات ويتقدموا وراح يصيروا هدف إلنا من فوق، ٦ راح يتوزعوا بشكل مستقيم كل واحد على بيت لحتى نبين أنو عددنا كبير وبين كل واحد وآخر منا بيتين تقريبًا لحتى نشتتهم، الخمسة اللي راح يدخلوا جوا راح يكون معهم بس مسدسات وكل واحد مخزن اللي بالمسدس ما في احتياط، لأنو نحن بحاجة للأسلحة لحتى نقدر نشتبك بشكل قوي ونلهيهم عنكم جوا، واللي جوا بس يخلصوا بترموا قنبلتين بالمستودع على ما تبقى من الأسلحة، قد ما فيكم خدوا من صناديق الأسلحة وخصوصًا الأسلحة الثقيلة بتعبوها للشاحنة، وبترموا قنابل على الشاحنات العسكرية اللي بالساحة لما تخلصوا.. بدنا ياها ليلة ما ينسوها بحياتهم.

شيخموس: اللي راح يدخلوا: أنا وعليكو وفنر وبرزان والعسكري نيجرفان اللي راح يتواجد وقتها.

سعد: شيخموس هو راح يسوق الشاحنة، نحن لما نضرب أول قنبلة

يدوية بتتسللوا فورًا، شيخموس راح يروح يشغل شاحنة من الشاحنات العسكرية الواقفة بالساحة لتعبوها أسلحة بعدين بتشغلوها وبتطلعوا.

علي: لوين راح ناخد كل الأسلحة بهي الكمية وبعدين الشاحنة العسكرية بتلفت الأنظار؟

شيخموس: قررنا ناخد السلاح كلو للبير اللي عند الحدود اللي دايمًا بنحط فيه أسلحتنا، أنا لما أطلع بالشاحنة راح أدخل بين البيوت وأسلك طريق زراعي وأطفي الضو وأمشي بدونها حتى ما يلمحنا حدا.

سعد: راح نبلش عند الساعة ٢,٣٠ بعد نص الليل لنكون ضمننا أنو الناس كلها نايمة، والشاحنة بعد ما الشباب يفرغوا السلاح بياخدوها لنص الشارع العام ويفجروها، ونحن اللي برا لازم نحاول بقدر الإمكان نغير أماكننا مرة على اليمين ومرة يسار حتى ما يصيبونا.

أصبحت الخطة جاهزة ولم يبق سوى يوم البدء، أصاب الناس حالة استياء من جراء اختفاء الثوار وإشاعة اعتقالهم بعد مرور عشرة أيام على اختفائهم وبدأوا يرون نظرات الحقد من الجيش وهم يشمتون.

حدد الثوار يوم البدء، ذهبوا قبلها بيوم إلى منازلهم لأخذ قسط من الراحة، وفي يوم البدء وعند صلاة العصر توجهوا إلى منزل الدكتور وكل شخص ودع أهله على طريقته متحججًا بالذهاب إلى مدينة القامشلي بسبب العمل، التقى الجميع في منزل الدكتور، وتم اصطحاب نيجرفان أيضًا بطلب من الجميع، لأنه ليس من المعقول إخباره قبل ساعة واحدة فقط.

أتى نيجرفان وأبلغوه أنه سيكون من ضمن الفريق الذي سيتسلل، كان مرتديًا زيه العسكري كما طلب منه، كما سيلبس الآخرون الزي نفسه

وجلب معه بطاقته العسكرية، ليساعدهم هو بالتحرك في الداخل، بدأ كل شخص يُعد نفسه جيدًا وتفقد الجميع أسلحتهم وأخذوا كل الذخيرة التي كانوا قد اغتنموها من اليوم الأول حتى آخر عملية، من قنابل يدوية وذخائر ومخازن للرصاص ولبس كل شخص جعبته، مدركين أنها ستكون الليلة التي ستقصم ظهر البعير، قام كل شخص بتوديع الآخر وهم لا يدرون ما الذي سيحصل معهم، وقاموا بتوديع الدكتور، خرجوا عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، كانت هناك دوريات قليلة جدًا تجوب الشوارع، بدأوا بوضع الحجارة في الشوارع التي تؤدي إلى المدرسة وعلى مسافة قريبة جدًا من الموقع ليوقفوا أي تحرك من أية سيارة للمؤازرة، توجه نيجرفان وشيخموس وفنر وبرزان وعليكو لأخذ مواقعهم، وتوجه الفريق الثاني إلى موقعه، تسللوا إلى البيوت وصعدوا إلى الأسطح، كانوا يمشون فوق الأسطح ويجثون على ركبهم حتى لا يلمحهم الحرس في الطرف الثاني، كانت ضربات أرجلهم هادئة حتى لا يشعر أحد من السكان بهم، لكن تلك الضربات الهادئة ستكون نارًا على العدو، المعركة خاسرة والثوار يغامرون بعملية ضخمة، ولكن إيمانهم القوي، ولسانهم يردد:

نحن شعب الكرد شعب لا يبالي   نتحدى الظلم حتى في الخيال

نحن شعب نتسامى للمعاني   في كفاح وجهادٍ ونضال

دائمًا يسعى إلى الحق القويم   همه أن تنجلي سود الليالي

ثورة نحن على مر الزمان   وتضاهي الشمس في درب الكمال

ثورة كالشمس تجري في علاها   وتحاكي الشمس من قمم الجبال

كانت الحبيبة مستلقية على ظهرها نائمةً من مرضها، مستسلمةً للفراش،

أصبحت هزيلة البدن فلم يعد قلبها يتحمل هذا الحب الغريب، فكل العشاق يحبون من معاشرة دامت، أو لقاءات حدثت، لقاء عابر وصدفةٌ غير متوقعة، أو عشق من النظرة الأولى يستسلم العاشقان لرياح الهوى دون أدنى مقاومة، إنها خمرة الحب يُسقي فيها الفؤاد حتى الثمالة، يسير العاشق على الأرض وروحه تحلق في السماء ويهتز ارتجاجًا، يقف الإنسان حائرًا من هذا الهوى فهو يعيش بين موتٍ وموت.

إنها أن تعشق امرأة رجلًا لم تره ولكنها سمعت عنه، ولا تعرفه إنما رسمته في مخيلتها، لا تعرف اسمه إنما هي من سمَّته الفارس، لا تعلم عنه شيئًا لكنها استسلمت له وأعطته القلب راضيةً مرضية حتى ضعفت وانهارت ولم تنفعها عقاقير الأطباء، ولا تعويذات المعوذين، ولا علاج الجدات والأجداد، استسلمت للفراش هذا الموت البطيء والحب هكذا موتٌ بطيء حتى أصبحت مثل الأشباح لا يعرف داءها أحد، وحده من يرد الروح إلى البدن ولكن أين هو؟ فأي وأي عشقٍ سرمدي هذا؟!.

تلك الحبيبة التي لم تفتح عينيها البهيتين من أمد، ها هي تلتقط الأنفاس من جديد، يعود اللون إلى وجهها من جديد، تستجمع قواها، ما الذي حصل؟ إنها اشتمت رائحة بارودة، كأنه يقترب منها ومن حبها. يا إلهي إنه في الجوار!.

شيخموس ومن معه على الطرف الثاني بانتظار البدء..بدء معركة الصمود أو السقوط، معركة البداية أو النهاية، ينظرون إلى بعضهم بعضًا وكأنهم يقولون لِمَ تمر هذه الدقائق ببطء؟ ولِمَ تحولت الثواني إلى دهر؟ أما الآخرون يتنفسون شهيقًا وزفيرًا، أغمض سعد عينيه وقلبه يسارع الزمن

بنبضات جنونية لم يسبق لها مثيل، نظر إلى رفاقه على الأسطح المجاورة ووضع رأسه على الحائط الذي أمامه وأغمض عينيه ليبحر في آيات الله ويقرأ من كلماته العطرات.

كان الدكتور هرانت في منزله يكاد القلق يقتله، أشعل شمعة وبدأ يصلي للثوار.

رفع سعد رأسه وفتح عينيه ونظر يمينًا ويسارًا وصاح بأعلى صوت «الله أكبر» وأطلق رصاصات الحرية على العدو الذي يبعد عنهم بعشرة أمتار أو أكثر أو أقل.

كانت جثة هامدة قبل قليل، فتحت عينيها وكأن سحرًا نزل على جسدها، قامت بعدما بقيت في سريرها لا تقوى على النطق، ركضت عند نافذة عشقها وأمسكت حديد النافذة بيديها ونظرت إلى الأعلى«أدركت أن الثكنة التي بالمدرسة هدف اليوم وهي قريبة جدًا من المكان»، عاد اللون إلى وجهها كما لو أن شيئًا لم يحدث معها، لتقول في سرها والابتسامة على وجهها لم يعتقل إنه حر، وها هو اليوم في حيّ، تبًا لي، قومي أيتها الحسناء وهيئي الضيافة وجهزي المطارح وافرشي السجاد العجمي وانثري العطر الجوري على الوسائد، وأشعلي الشموع والقناديل، فزوارنا اليوم الثوار، وفارسي معهم يقودهم نحو النصر، هيا يا أيتها الحسناء تزيني بأجمل اللباس وارتدي اللبس الكردي من الأحمر والأصفر والأخضر لتستقبلي عاشقك وفارسك، لم تعد الجميلة تمتلك نفسها فبدأت بالزغاريد من نافذتها، زغاريد الفرح، زغاريد النصر لتعانق عنان السماء، استيقظ الأهل كما كل الحي وكل عاموا دا على أصوات الرصاص، ليتفاجأ الأب والأم والأخوات أن فاتنتهم وزهرة

منزلهم عادت إلى الحياة مرة أخرى، يا للعجب يا لصانع المعجزات يا إلهي.

نظر شيخموس إلى من معه وطلب منهم التسلل بكل هدوء، فأنظار الحرس كلها تتجه إلى الطرف الثاني وأصبح التسلل سهلًا جدًا، حالة من الفوضى والهلع أصابت الجنود والكل يركض يمينًا ويسارًا، والنائم استيقظ ولم يملك وقتًا ليغسل وجهه، أمسك سلاحه وبدأ يطلق الرصاص كيفما شاء، توجه شيخموس نحو شاحنة عسكرية وقام بتشغيلها، بينما دخل البقية من الباب الخلفي إلى المبنى، دخل الأربعة الآخرون وبحسب المعلومات التي عندهم أن يدخلوا من الباب الخلفي إلى اليسار، وبعدها يدخلون يمينًا إلى آخر الممر بعد ٤ غرف سيجدون المستودع، كان العساكر يركضون في كل الاتجاهات ولا أحد ينتبه لهم، توجهوا إلى الغرفة ضربوا النار على القفل ودخلوا، وإذ بجميع أنواع الأسلحة موجودة من الرشاشات والمسدسات والقنابل اليدوية والأسلحة التي تحمل على الكتف مثل الأر بي جي وصناديق مليئة بالذخائر. طلب منهم نيجرفان حمل صناديق الذخيرة والقنابل اليدوية بالدرجة الأولى كونها الأهم، وكان هناك صندوق واحد فقط من الألغام، وعشر أربي جيهات والباقي كله رشاشات وقنابل يدوية والذخيرة، بدأ الشباب الأربعة يحملون تلك الصناديق حيث أوقف شيخموس الشاحنة عند الباب مباشرةً، وحمل نيجرفان وفنر الأربي جي العشرة، وحمل برزان وعليكو الألغام الثقيلة، وبدأ شيخموس بحمل الرشاشات، وعند أول حمولة قال نيجرفان:« يا شباب أنا راح أوقف عند الشاحنة مشان ما حدا ينتبه على اللي بنساويه وانتو جيبوا الأسلحة وإذا مر حدا وانتبه بتقوّصوه».

وقف نيجرفان عند الشاحنة وكل ما مر أحد وانتبه قام نيجرفان بإطلاق الرصاص عليه، وإذ بعنصر يمر راكضًا بشدة وانتبه على أنه يتم تحميل السلاح إلى الشاحنة سأل العنصر: شو في شباب شو في؟!

- والله اجتنا أوامر بنقل السلاح من هون، قال المخربين بدهم ياخدوا السلاح.

- ما فشروا يصلوا لهون والله لقص رقابهن قص!.

ذهب العنصر بحال سبيله، ضحك نيجرفان وأكمل مهمته. كان الشباب في الخارج يخوضون أقسى المعارك، يصارعون الموت، والشيء الذي جعلهم يستمرون هو امتلاكهم للقنابل اليدوية التي كانوا يرمونها ويصيبون العدو إصابة مباشرة، وما كان يكركب العسكر هو توزع الثوار على عدة أسطح وبينهم مسافات لا بأس فيها مما يشتت التركيز، كان سعد محتميًا بجدار قصير كما سائر أسطح عامودا، ويعيد تركيب المخزن ويقوم بإطلاق الرصاص، والآخرون يفعلون الأمر ذاته.

كان قائد الثكنة المختبئ في مكتبه يحدث مساعده ويوبخه .

القائد: شو عم يصير .. بيدوهن للعرصات.. اقتلوهين شوما تستنو؟

المساعد: سيدي ميضربوا قنابل علينا ومحتمين بالبيوت السكنيي.

- يلعن... على .... البيوت السكنيي ولي فيها كلهن عرصات، طالعوا الأربي جي والقنابل وارموهن على البيوت اقتلوهن كلهن.. طالعو كل الأسلحة من المستودع يلاا.

خرج المساعد من مكتب قائد الثكنة، وأخذ معه العديد من الحرس لإخراج الأسلحة من المستودع لضرب البيوت دون تردد. اتصل قائد الثكنة

بالقائد العسكري للمنطقة.

قائد الثكنة: سيدي هدول الكلاب ميهاجموا الثكنيي وميرموا قنابل يدوي بدهم يفجروا المدرسة فينا!

- ولك حيوان كم مجرم مانكن قادرين عليهن وانتو جيش ولك جحش!

- سيدي أبنقدير نطلع العناصير أبنقدير لأنهم فوق الأسطح وما يصيدونا صيد وعددهم كبير جيش يا سيدي.

- طالع كل الأسلحة الثقيلة واستخدموهن بسرعة، وأنا هلق راح أبعتلك دوريات تحاصرهن، ويطلعوا فوق الأسطح وهني بس يلتهوا مع الدوريات بتطالع كل عناصرك فاهيم.

كان القائد العسكري في قمة العصبية لأن ظنونه قد خابت، فهاهم الثوار خارج الأسوار العفنة وخارج الأقبية الأمنية، وما زاد من غضبه أنه في هذه المرة أعدادهم كبيرة حسب ما نقل له القائد الميداني، إذن كان الثوار يخدعونهم.

أصوات الرصاص التي تتبادل مثل زخات المطر، وأصوات الانفجارات من أثر استخدام القنابل، أيقظت ليس فقط أهالي عامودا بل حتى القرى القريبة المجاورة، ولسان الحال يقول بترقب شديد: غابوا غابوا وعادوا بقوة، هذه المرة مختلفة عن سابقاتها، فحجم المعركة والاشتباك والتصادم ليس ككل المعارك التي لم تدم أكثر من ربع ساعة من الاشتباكات وأحيانًا أكثر بقليل، ولكن هذه المرة جبهة رسمية وجهًا لوجه.

توجه مساعد قائد الثكنة مع الحرس إلى المستودع، انتبه عليه نيجرفان، ركض نيجرفان إلى رفاقه وطلب منهم إنهاء المهمة على الفور، خرجوا من

الغرفة ومعهم صندوق، رآهم المساعد، بادر نيجرفان بإطلاق الرصاص عليهم وحصل اشتباك داخل المبنى، قام نيجرفان بتغطية رفاقه للخروج إلى الشاحنة.

نيجرفان بأعلى صوته: شيخموس شغل الشاحنة بسرعة.

برزان ارمي عليهم قنبلة راح تخلص الذخيرة اللي معي.

ركض برزان إلى الشاحنة، أخرج قنبلة فهم لا يملكون سوى مسدسات، توجه عناصر من العسكر إلى المبنى الخلفي بعد مناشدتهم عبر اللاسلكي، إن اختراقًا قد حصل، وحصل اشتباك عنيف وكان الرصاص من الرشاشات ينهال على الثوار في الداخل، على الفور رمى برزان قنبلة عليهم ليرديهم قتلى وتراجع البقية، ركض الثوار نحو الشاحنة، وإذ بنيجرفان قد وقع على الأرض، اخترقت رصاصة من رصاصات الغدر جسده، قام برزان بحمله على الشاحنة وعلى الفور خرجوا من المدرسة، وشيخموس سائق ماهر جدًا، قذف الثوار قنابل خلفهم حتى لا يلحق بهم أي أحد.

شاهد ولات الذي كان يقف على أحد الأسطح القريبة من الباب الجانبي خروج الشاحنة، أصبح ينادي «الشباب خلصوا»، ليرد عليه سعد بأعلى صوت، «انسحاب يا شباب انسحاب»، ومع بدء الانسحاب كانت عناصر من الدوريات تنزل من السيارات ويقومون بإزالة الحجارة القريبة، انسحب الثوار من فوق الأسطح، صعد بعض العناصر فوق الأسطح لملاحقة الثوار، شاهد عنصر سعدًا وأطلق عليه النار من الخلف وهو ينسحب.

كان شيخموس الذي رسم طريق الانسحاب في ذهنه وهو الذي يعرف كل أزقة عامودا وشوارعها، يتجه على الفور نحو طريق زراعي باتجاه

الغرب وأطفأ أضواء السيارة، ليلتف ويذهب إلى الشمال ويتخذ طريقًا أبعد من المعتاد حتى يخرج من المدينة حيث تجوب الدوريات كل الشوارع بشكل هستيري، نادى برزان من الخلف «شيخموس أسرع يول.. نيجرفان عم ينزف كتير، خدني على أقرب نقطة لبيت الدكتور وانتو كملو».

نزل برزان وحمل نيجرفان على كتفه الأيسر وسار به نحو منزل الدكتور، وكلما وجد دورية توارى عن النظر واختبأ في زاوية ما، لم تكن الدوريات كثيرة في الجانب الشمالي حيث توجهت الدوريات نحو الغرب، وبعض الدوريات خرجت خلف الشاحنة لتقصي أثرها، كان نيجرفان ينزف الكثير من الدماء وهو يئن ويتألم، وأصبحت ملابس برزان من الأسود إلى الأحمر وعانى كثيرًا حتى وصل منزل الدكتور، فتح الدكتور باب المنزل، انصدم من المنظر، أدخلهم إلى الداخل وبسرعة خرج عند الباب وبدأ ينظر في كل الاتجاهات حتى يتأكد أن الشارع خالٍ، سارع الدكتور بإنزالهم إلى القبو وطلب من برزان الذي كان يلهث تعبًا والعرق يتصبب منه أن يذهب عند الباب ويمحو أثر الدماء إذا وجد!.

صعد برزان إلى الأعلى وأخذ معه قماشة وبدأ بتنظيف أثر الدماء التي كانت على الأرض، وكان الدكتور يقوم بإجراءاته، وفي هذه الأثناء وصل بقية الثوار من الحوش الخلفي واحدًا تلو الآخر، عندما نزلوا إلى القبو انصدموا بنيجرفان، لكن الدكتور طلب منهم الذهاب ومساعدة برزان لإزالة الدماء حتى لا يلاحظ أحد الدماء أمام منزل الدكتور وتنزل عليهم كارثة، انتهوا من ذلك ونزلوا إلى القبو حيث الدكتور يقوم بكل ما بوسعه لإنقاذ نيجرفان الذي نزف الكثير من الدماء التي غطت كل شبر من

جسده، وهو ينظر إليهم والعرق على جبينه وعيناه لا تكادان تبصران جيدًا، وجد برزان وعلي ونادر وآراس ورودي وولات، وعرف أن شيخموس وعليكو وفنر مازالوا بمهمتهم وحاول التحدث ولكن جوفه كان ناشفًا، وقال ببطء شديد «وين سعد؟!» على الفور ترك الدكتور الشيء الذي بيده ونظر حوله وسأل مصدومًا: «وين سعد؟».

صمت الجميع ولا أحد يعرف الإجابة، نادر: «صحيح وين سعد؟!».

كان شيخموس وفنر وعليكو قد وصلوا إلى البئر وقاموا بتنزيل السلاح، وكاد التعب أن ينال منهم، فمهمتهم كانت صعبة للغاية، قاموا بتحميل السلاح وأخذ ذلك جهدًا كبيرًا منهم، وبعدها اشتبكوا وإصابة زميلهم نال من ذهنهم ولا يعرفون إذا ما وصلوا إلى منزل الدكتور أم لا؟ وما إذا كان زملاؤهم انسحبوا بأمان أم لا؟ والآن يقومون بتنزيل كل هذا السلاح إلى البئر، وحدهم الثلاثة، كان الأمر شاقًا جدًا.

كان للوفاء في قلبه ووجدانه ما لم يكن يعرفه سابقًا، لم يقبل الضيم على شعبه وأهل مدينته، عرض نفسه للخطر وأبى إلا أن يكون حرًا ويعيش حرًا مثل ما ولد حرًا ليموت شهيدًا أبيًا، منزلته عند الأنبياء كما وعد الله عباده، لا ينال هذه الدرجة من الشهادة إلا العباد الذين اصطفاهم الله، أسلم روحه بعد تلقيه رصاصة غادرة أثناء تأديته الواجب القومي والوطني الشريف مدافعًا عن أرضه وشعبه، نام والنور على وجهه، نام راضيًا ولم يندم على ما فعله، أغمض عينيه ليقول الدكتور: «نيجرفان مات»، قبل أن يسلم روحه قال بصوتٍ متنهد وهو لم ير كل زملائه:«سلموا على الشباب واحكولهم مبروك النصر، أنا مبسوط لأني راح أموت شهيد»، ابتسم وأغمض عينيه

وصعد إلى الرفيق الأعلى.

بكى زملاؤه وحزنوا عليه كما لو أنه صديقهم منذ دهر، جلس برزان على ركبتيه وعاد برأسه إلى الخلف ونظر إلى السماء، وهو مغطس بدماء الشهيد، وبدأ يبكي بقهر، دكتور هرانت اعتاد على لون الدماء غير أنه تأثر جدًا، وكان الحزن شديدًا عليهم.

انتهى شيخموس وفنر وعليكو من إخفاء السلاح وهم مرهقون، وحسب الاتفاق لابد من تفجير الشاحنة بوسط المدينة، كما أن الثوار لم يستطيعوا تفجير الشاحنات التي كانت في ساحة المدرسة ومستودع الأسلحة بسبب كشف أمرهم وإصابة نيجرفان، أخذوا الشاحنة إلى نقطة قريبة من الشارع العام، لم يستطيعوا التقدم أكثر بسبب انتشار الجيش بعد الذعر الذي أصابهم، أوقفوا الشاحنة وابتعدوا إلى مسافة جيدة عن الشاحنة وألقوا قنبلة يدوية على الشاحنة وهربوا من المكان، مما أدى إلى انفجار ضخم جدًا سُمع دويه بكل أرجاء المدينة، وتسللوا إلى منزل الدكتور، كان الجميع جالسًا بصمت حول جثة نيجرفان، لدرجة أنهم لم يشعروا بقدوم شيخموس وعليكو وفنر، وكان الثلاثة عند وصولهم استسلموا للتعب بشكل كبير، نزلوا إلى القبو، عرفوا ما حصل وبدا عليهم فوق التعب الحزن الشديد، قبلوا رأس الشهيد وجلسوا، شيخموس يتفقد بالنظر زملاءه واحدًا تلو الآخر، فزع ونادى: «شباب وين سعد؟»، وكأنها كانت صفعة على وجه الجميع، تذكروا مرةً أخرى تأخر سعد، حمل نادر سلاحه حتى يخرج ولحقه آراس، إلا أن الدكتور منعهم.

نادر: يا دكتور بلكي اعتقلوه لسمح الله؟ أو مصاب ومتخبي بشي

مكان.

الدكتور: شو ما كان الوضع ما بسمح حدا يطلع، اللي بدو يطلع يعني عم يسلم حالو للأمن.

- ...!

دكتور: حكيت ممنوع يعني ممنوع.. ادعولوا بس.

أصيب سعد برصاصة في كتفه الأيسر، وحتى يتفادى باقي الرصاص، ركض من سطح إلى آخر، نزل إلى «حوش» أحد البيوت ليخرج من الباب لينجو بنفسه من خلال الأزقة.

كلجين[1] امرأة في الخمسين من العمر، بدينة الجسم، حنطية البشرة، همتها كما الجبال الرواسي، سمعت بعض الرصاص يقترب، طلبت من أبنائها عدم الوقوف عند النافذة خشية من رصاصة غادرة، وفتحت الباب.

زوجها: وين رايحة؟

- بدي روح جيب سكين من المطبخ بلكي هالأندال نزلوا على الحوش وشافوا البنات!

زوجها: الله يرضى عليكي فوتي وسكري الباب.

- شو بدي روح ع شام ليك المطبخ.

أثناء خروج كلجين من الغرفة تجاه المطبخ أتت عينها بعين سعد وهو ينزل من السلم، وكان الدم يسيل من كتفه، مد سعد يده لفتح الباب، وإذ بصوت من خلفه: دير بالك يا ابني. وطخ ..صوت رصاصة. بينما كان سعد يحاول فتح الباب للخروج وقف العسكري من فوق السطح مصوبًا

(١) كلجين: زهرة الحياة

بندقيته ليصيب سعد مرة أخرى، ركضت كلجين وهي تنادي: دير بالك يا ابني»، وحمت سعد وتلقت هي الرصاصة، على الفور التفت سعد وأصاب العسكري إصابة مباشرة، أرداه قتيلًا ووقع في الحوش من فوق السطح، جثا سعد على ركبتيه وهو يحاول أن ينقذ المرأة: خالتي .. خالتي.. بتسمعيني؟.

ركضت بناتها وزوجها إلى الحوش عندما وجدوا كلجين تسبح بدمها، وبدأت البنات بالصراخ وهم ينادون على أمهم، نزلت فتاة على ركبتها ووضعت يدها تحت رأس أمها، وقالت لسعد:«روح اهرب اهرب».

زوج كلجين ويدعى عمر، طلب من سعد الهرب والخروج بسرعة ودعى له الله أن يحميه، فتح سعد الباب وإذ بدورية في الحارة، عاد سعد وصعد مرة أخرى إلى السطح ولكن لم يعد يستطيع الهرب أكثر والركض، كان فوق السطح عند خزان المياه، كان خزانان إلى جانب بعضهما بعضًا، جلس سعد بين الخزانين، حيث لا يستطيع أحد رؤيته، وكان يستطيع رؤية الحوش من مكانه حيث هو جالس، أثقل الحزن ذهن سعد، وشعر بأنه السبب في قتل المرأة، ولكن شيئًا آخر أصاب سعد وأثقل قلبه أكثر لدرجة أنه لم يستطع أن يبرح مكانه، فجلس ولم يكمل مسيرة النجاة بحياته، أو الخوف من الوقوع بين براثن الأمل، ما الذي حصل له؟.

تجمعت الفتيات حول أمهن وزوجها، وكانت الفتيات تصرخن، الدورية في الخارج سمعت تلك الأصوات، طرقوا الباب، فتح عمر - الذي تجاوز الستين من عمره - الباب، وإذ بالضابط: «شو في شو هالأصوات؟!»، وقع نظره على جثة على الأرض وفي زاوية أخرى جثة عسكري، نادى الحرس لأخذ جثة العسكري، وكانت الدوريات قد ملأت الشوارع في الحي الغربي.

الضابط: هالكلاب قتلوا المسكينة ما؟ يلعن شرفهم عديمين الناموس.

احمرت عين عمر وكاد أن يصفع الضابط ولكنه امتص غضبه، فأي كلمة ستودي بحياته، لم يكن يخشى على نفسه بقدر ما كان يخشى على بناته، حيث لا شباب في ذريته، ولكن الفتاة الكبيرة لم تمتص الغضب، قامت ونظرت إلى الضابط وصاحت به.

- هدول مو كلاب هدول أشرف منك ومن أسيادك يا كلب، العنصر تبعك قتلها لأمي.

كانت الفتاة تتحدث وعينها حمراء اللون، والغضب يشع منها.

الضابط: ولي شبك.. عم تحكي عن هالخونة شرفاء؟ هدول خونة وقتلة.

- فشرت بنص عينك يا كلب.. ستين واحد متلك خاين، هدول ثوارنا وسندنا اللي يكسروا راسكم. كانت تتكلم وتؤشر بأصبعها وتعض على فمها.

الضابط: بالله ما راح أرد عليكي لأنو أمك انقتلت، بس والله لو أسمعك متقوليها مرة تانية لقصو لسانك قص.

هيأت نفسها للرد ولكن والدها أمسك يدها وشدها لتصمت، ولكن عينيها وملامح وجهها ردت وكان أقوى رد، كانت تزور الضابط وتضغط على أسنانها، خرج الضابط وأخذ جثة العسكري.

كان سعد من فوق السطح ينظر ويسمع كل شيء، اندهش من هذا الموقف الشجاع، أليست هذه الفتاة نفسها التي قالت لسعد «اهرب.. اهرب»، أليست هذه الفتاة التي سحرت بعينيها قلب هذا المقاتل المصاب؟.

نعم هي نفسها التي جعلت منه جثة يرقد فوق السطح وأثقلت قلبه، مصابًا ينزف دمًا، خارجًا من معركة دامية لا يعرف مصير رفاقه، وقُتل أمامه امرأة لا حول ولا قوة لها، ولم يستسلم، وهو الذي لم يعتد إلا المقاومة لأنه مقاوم، ولكن ترك كل ذلك وكأنه مقاومٌ مزيف، واستسلم لقلبه، ترك تلك المعركة بل نسيها تمامًا ليقود معركة مع عينيها، ويستسلم خلال ثوانٍ، نسي الدماء التي تسيل من كتفه، واستسلم لآلام القلب، إنه الحب الذي لا يرحم، إنه الحب الذي يسمونه من النظرة الأولى، ولكن من هذه الفاتنة، إنها الحبيبة!.

اسمها ليلاف[1]، طويلة القامة، رشيقة الجسم، مليحة الملامح، جميلة المبسم، ساحرة العينين، فاتنة الوجه، شعرها حريرٌ طويل، صوتها أصفى من صوت البلابل، كالنهر الغرير، خاطفة لقلوب كل الأعين التي تراها، أصبح أكثر وقتها وأيامها في المنزل لا تغادره، لطالما غارت منها الطبيعة، وعزفت لها السماء بالرعود والصواعق، ففيها كُتبت كل القصائد العصماء.

---

(١) ليلاف: الثلج الذائب.

تشييع الشهداء

عاد سعد منهكًا إلى منزل الدكتور والفجر شارف على البزوغ، ركض الجميع إليه وعندما التقت عيناه بعيني الدكتور وقع على الأرض فاقدًا للوعي. هرع الجميع وحملوه إلى القبو وبدأ الدكتور بمعالجته، كان فاقدًا لكثير من الدماء. دكتور هرانت طبيب ماهر، ويحمل الرسالة الحقيقة لمهنة الطب، كان قد اتخذ احتياطاته سابقًا لمثل هذا اليوم، فكل عمليات الثوار تخرج من منزله وكان في كل مرة يتوقع أن يعود أحدهم مصابًا، ويدرك أنه من المستحيل أخذ أي مصاب منهم إلى المستشفى، فوضع في منزله كل ما يلزم لذلك، وهو يدرك أيضًا أن عملياتهم كلها تبدأ في منتصف الليل فإذا أتاه أحد الثوار مصابًا في منتصف الليل ستكون كل الصيدليات مغلقة، ولا يستطيع حتى الذهاب إلى عيادته نظرًا لخطورة الوضع، فكل ما يلزم من أدوات وأدوية وجميع وسائل العلاج في القبو، أخرج الرصاص من كتف سعد، تبرع علي بدمه لرفيقه، أذن الفجر والجميع مستند إلى الحائط والحزن يسيطر عليهم ونسوا النصر الذي حققوه، وبعد دقائق سمعوا صوتًا من مئذنة الجامع الكبير ينادي أنه

بعد صلاة الظهر سيتم تشييع جثمان الشهيدة كلجين. استغربوا جدًا من كلمة شهيدة ولم يقل المنادي المرحومة كما هي العادة، لابد أن في الأمر شيئًا ما، وكل ذلك سيُكشف عندما يستيقظ سعد.

كان القائد العسكري يثور غضبًا، خرج تحت حراسة مشددة يتفقد الخسائر، وذهب إلى المدرسة وإذ بحائطها الأمامي والباب والنوافذ والغرف الأمامية كلها انهارت بسبب الهجوم بالقنابل، وعدد كبير من القتلى ومقتل مدنية، وانفجار شاحنة عسكرية بعد ذلك، ولا يعرفون ما إذا أصابوا أحدًا من الطرف الثاني أم لا؟ وأكثر ما أغضبه السلاح الذي اغتنمه الثوار!.

استدعى القائد العسكري جميع القيادات في المدينة وطلب منهم ألا يعترضوا الجنازة، وينتشروا في كل أنحاء المدينة أثناء التشييع، وأن يتجنبوا الجماهير التي ستكون غاضبة، وأن يشيعوا خبرًا أنها قتلت برصاصة من المسلحين!. كان القائد العسكري ينتظر الصباح أن يستقر حتى يتصل بماهر الأسد ويطلعه على آخر المجريات وعرف أنه سيوبخ.

أصبحت الساعة السادسة صباحًا، وجميع الثوار في غفوة بوضعية الإتكاء على الحائط وهم جالسون وركبهم عند صدورهم، وبعضهم عائد برأسه إلى الخلف، والآخر واضع رأسه على ركبتيه، بدأ سعد يستعيد وعيه قليلًا، فتح عينيه ونظر إلى يمينه كان الدكتور جالسًا ويبدو وكأنه نائم، رفع رأسه فوجد أصدقاءه أيضًا منهكين في غفوة يعلم الله كم هذه الغفوة غالية وثمينة عليهم بعد ليلة دامية ومليئة، وكم سيكون النهار شاقًا عليهم، التفت إلى يساره وإذ بجثة ممددة وعليها غطاء، فزع

من مكانه ورفع الغطاء وإذ به نيجرفان، صاح سعد نيجر.. نيجر* وهذا الاسم الدلع لاسم نيجرفان، استيقظ الجميع، وتوجهوا إلى سعد وطلبوا منه الهدوء فنيجرفان أصبح شهيدًا، ذرف سعد دموعًا عليه، وكأنه رفيق حياته، الدكتور الذي يجب أن يكون أكثر صمودًا من غيره كونه طبيبًا وتمر عليه حالات مشابهة ولا يفزعه الموت، بادر على الفور بسؤال سعد.

- شو صار معك مبارح..مين هي كلجين؟

استغرب سعد: شو عرفكم؟!

- نادوا بالجامع لأنو راح يدفنوها بعد صلاة الظهر!.

روى على مسامعهم ما حصل معه، وإنه كان سيُقتل لولا تدخل الشهيدة كلجين، تأثر الجميع بسماعهم ذلك، فالمرأة وضعت نفسها فداءً لكل الثوار، وقصّ برزان عليه ما حصل مع نيجرفان.

الدكتور متسائلًا بحيرة شديدة: كيف راح ندفن نيجرفان؟!

رفع سعد رأسه ويده على كتفه الأيسر متألمًا: وحياتكم راح يندفن بالطريقة اللي بتليق فيه، ونادى على علي.

خالو من بعد إذنك، غطي وجهك وروح على بيت إمام الجامع واحكيلو القصة وقلو راح ندفن الشهيد مع الشهيدة كلجين بنفس المراسم، وإذا راح يخاف من الأمن لحتى ما ينادي بالجامع مشان نتصرف، بس دير بالك من الدوريات.

خرج علي وهو يلبس لباس الثائر الكامل ومعه سلاحه، وتوجه إلى منزل إمام الجامع الكبير، كانت الشوارع خالية حتى من الدوريات التي انسحبت في هذه الأثناء إلى ثكناتها لنيل قسط من الراحة لأن هناك نهارًا

شاقًا بانتظارهم، وربما ليلة تتجدد فيها الاشتباكات، هدوء قاتل، هدوء مترقب، هدوء حذر، لا رياح ولا حتى أصوات الديكة التي كانت تصيح كل يوم، يبدو وكأن الديك حزين في هذا اليوم، لا شيء في صباح هذه المدينة اليوم سوى رائحة الدم، ورائحة الشهداء تمتزجان معًا برائحة الحرية والنصر.

كان ذلك سببًا في سهولة تنقل علي، وصل وطرق الباب عدة مرات بشكل متكرر وسريع، فتح الشيخ الباب، تفاجأ بشخص ملثم ومسلح ويلبس الأسود، بادر علي.

- سيدا[1] خليني فوت قبل ما يشوفني حدا أنا من الثوار.

- فوت فوت. خرج الشيخ ليتفقد الشارع وإذ به خالٍ تمامًا، أقفل الباب، وقبل أي شيء هرع الشيخ إلى جبين علي ليقبله.

- استغفر الله سيدا شو بتساوي!

- لك بتستاهلوا مليون بوسة.

- الله يحفظك سيدا، جاييك بموضوع خطير.

قص علي عليه ما جرى، وعن مقتل نيجرفان وإنه عسكري، وعليه مسؤولية كبيرة، ترحم الشيخ على الشهيد ووافق أن ينادي في الجامع دون أي تردد، واعتبر ما سيحدث له فيما بعد قدر من الله.

خرج علي كما أتى ووصل إلى رفاقه وأخبرهم، وتم توكيل علي أيضًا كونه أكبرهم عمرًا بأن يذهب ومعه شيخموس إلى أهل نيجرفان ليخبروهم بالأمر. ذهب الثوار إلى منزل الشهيد نيجرفان وطرقوا الباب،

(١) سيدا: لقب يطلق على الملالي والشيوخ عند الكرد.

فتح والده وتفاجأ بهم

وتساءل من يكونون؟!

- نحن من الثوار.. ممكن ندخل قبل ما يشوفنا حدا.

دخلوا إلى المنزل، كانت الأم قد استيقظت لتعد الفطور ولم تنتبه أن ابنها غير موجود في غرفته، ولكن عندما رأت من النافذة دخول اثنين إلى المنزل وقالا إنهما من الثوار، حدث شيءٌ غريب وبدأ قلبها ينبض.

علي: برا[1]قبل كلشي نحن هون لنخبرك أنو ابنك نيجرفان مبارح استشهد وهو عم يحارب كرمال أهلو وناسو وبلدو.

صُدم الأب وتسارعت ضربات قلبه، ارتجف من هّول ما سمع وردد قائلًا: بس كيف وشلون ما هو عسكري؟!

- ابنك نزل إجازة ليخبرنا عن معلومات مهمة كتير، وبعدين انضم معنا، ومبارح كان عم يقاتل بس الله كتبلو الشهادة على تراب عامودا.

أدرك الأب القول جيدًا، فكان نيجرفان قد ذكر أمام العائلة عدة مرات أنه يجب مساعدته للوصول إلى الثوار لإعطائهم معلومات مهمة، خرجت الأم من المطبخ وبدأت تزغرد، وكأنهم يقولون لها ابنك تزوج!!.

بدأت تنادي: رفع راسنا.. رفع راسنا، أنا صرت أم شهيد.

اهتز كيان شيخموس وعلي من هذا الموقف.

توجه إليها علي قائلًا: هلا شبابنا بكونوا أخدوا الشهيد على الجامع الكبير، روحو لهنيك وألقوا نظرة أخيرة عليه، بس قد ما فيكم جمعوا ناس ليروحوا معكم لحتى الأمن ما يمنع التشييع وياخدوا جثتو لأنو

(١) برا: الأخ.

عسكري.

وبعد حديث ليس بطويل، عاد علي وشيخموس إلى رفاقهم ووجدوهم قد أخذوا جثة نيجرفان إلى الجامع الكبير ولم يأتوا به إلى منزله حتى لا يثيروا غضب الناس، كما أنهم لن يكشفوا عن مكان الجثة إلا عند التشييع.

الموقف الغريب أن الأب والأم لم ينهارا على العكس هنآ أنفسهما بذلك، ربما كان الأب والأم أكثر صمودًا من الأبناء، ذهب الأب يطرق أبواب الجيران والأقرباء ليخبرهم بالأمر حتى يذهبوا معه إلى المسجد، فالأمن لن يتجرأ على الاقتراب من التجمعات في هذه الظروف، قبل ساعة ونصف من صلاة الظهر، نُودي بالجامع الكبير على الأهالي التوافد إلى الجامع لتشييع الشهيدة كلجين وتشييع الشهيد نيجرفان أحد الثوار الذي استشهد في الأمس.

المدينة الهادئة قبل ساعتين انقلبت إلى بركان، أهالي عامودا منذ فترة طويلة يبحثون عن أي وسيلة للتواصل مع الثوار ولم يكن يجدون إلى ذلك سبيلًا، هؤلاء الثوار الذين يفتخرون بهم، وها هم الآن يجدون أحدهم شهيدًا، خلال مدة نصف ساعة كانت الجموع تتجه نحو الجامع لإلقاء نظرة على هذا الشهيد الجميل، وكان الأمن بدوره تحرك فورًا إلى الجامع الكبير يريدون معرفة هوية الشهيد، أخيرًا وصلوا إلى خيط يصلهم للثوار، أتت ثلاث دوريات وعيون الناس تحدق بهم، رفض الإمام دخولهم إلى حرم الجامع، تقدم والد الشهيد وأعطاهم هوية ابنه العسكرية وقال: أنا أبو الشهيد. بكل جرأة يتكلم هذا العجوز، وبكل

فخر يرفع صوته أمام الناس أنه أبو الشهيد الثائر..

الضابط: ابنك عسكري وبدنا جثتو!!

الأب: ما بتاخدوها إلا على جثتي أنا.

الضابط: لا تخلي الموضوع يكبر .. ترا ما راح تتحمل العواقب.

الأب: أب وفقد ابنه شو بتتوقعوا منو يخاف مثلًا! بعد الدفن وأخذ التبريكات من الناس بجي لعندكم لتحققوا!

الضابط: ماشي ماشي.. وأنت يا حضرة الإمام بعد الدفن بننتظرك.

انسحبت الدورية فليس من الحكمة التصادم مع أهل الشهيد في هذه الظروف، وعند صلاة الظهر، كانت عامودا كلها أمام الجامع ومنتشرين على الطريق بين الجامع والمقبرة، منظر تقشعر له الأبدان، وهناك هتافٌ واحد: شهيد نامرن.. الشهيد لا يموت.

أدوا الصلاة على الشهداء وأخرجوهم من الجامع على الأكتاف، وعند خروج الجنازتين ورآهم الناس بدأت أصوات الهتافات وزغاريد النساء تعلو في كل أركان المدينة، لتصبح زغاريدهن أقوى من مدافع العدو، جنازة مهيبة بحضور كل المدينة، من النساء والرجال والكبار والصغار، والكل يحاول أن يشارك بحمل الجنازة لينال الشرف العظيم، ربما هذا المنظر خفف بشكل كبير جدًا عن ذوي الشهداء، لأن دمهم لم يذهب سُدى، بل قدر الناس تلك التضحية، وأصبحوا فيما بعد حكاية أهالي المدينة بعدما عرفوا قصصهم وتضحياتهم.

الشوارع مكتظة، المقبرة مليئة بالبشر، منظر لا يمكن تصوره، الدوريات انسحبت من الشارع لعدم التصادم، عاد الناس إلى المدينة

بعد دفن الشهداء، وأخذ التبريكات من الناس عند المقبرة، حيث بلغهم أن قوات الأمن تمنع فتح بيت للعزاء لأسباب أمنية، وقبلوا بذلك تجنبًا لسفك الدماء.

كان الثوار بانتظار عودة الناس إلى المدينة، حيث انتشر كل ثائر ما عدا سعد المصاب، حول المدينة وبدأوا بإطلاق الرصاص في السماء كتحية للشهيدين.

كان القائد العسكري قد اتصل بماهر الأسد وأخبره بما حصل ووبخه الآخر بأبذأ الكلمات وأقذرها، وتوعد برد لن يتوقعه أحد وأنه سيقلب عامودا إلى كومة تراب!

وتم التحقيق مع إمام الجامع الذي أنكر معرفته بأي شيء، وأن أهل الشهيد من أبلغوه بالأمر وتم تهديد الشيخ كونه وصف المقتول على حسب وصفهم بالشهيد ومنع قوات الأمن من دخول المسجد، وبسبب الإجابات الحادة تذمر القائد العسكري منه وأمر بسجنه وإنكار دخوله إلى الفرع، وبعد ذلك تم التحقيق مع والد الشهيد الذي كان بأبهى صور العزة والفخر بابنه وأمر باعتقاله الآخر ورميه في السجن.

***

شعرت شفين أنها ظلمت رفيقة دربها كولي، فذهبت إليها لتعتذر منها على ما بدر منها في آخر مرة، مصطحبة معها هدايا غالية لها، مثل بذر دوار الشمس، وعلكة الشجر وهي علكة مشهورة ومطلوبة جدًا في المدينة.

وقفت كولي وبدأت تنظر إلى صديقتها، أغمضت عينها كنوع من

عدم قبول الاعتذار.

شفين: خلاص كجي[1] ما يكون قلبك أسود.

- يخرب بيتك أنا قلبي أسود فوق اللي عملتيه المرة الماضية.

- خلاص أنا آسفة وهي راح أبوس التوبة ما عاد أعيدها.

- أصلًا ماني زعلانة منك مشان هيك.

- يقطع عمرك لكن مشان شو زعلانة؟

كولي: ولي انتي وحدة خاينة وغدارة، طلعتي حاطة عينك عليه، مو على أساس كنا متفقين نائبو إلك والأمير إلي!

- تضربي شو ثقيلة.

مسكت كولي شعرها من التحذير: أوعى تعيديها.

شفين: أي فوتي فوتي أعمليلنا القهوة

كولي: إن شاء الله كّراڤيبي[2].

* * *

عادت إلى منزلها بعد دفن والدتها، شعرت بأن الدفء قد غاب عن المنزل وأن الحياة قد ماتت وأن الشموخ قد زال ليرد عليها روحها: لا لا يا بنيتي، إنما الدفء الآن قد ملأ البيت، إن غاب الحب فقد بقيت روح الشهيدة، وإن الحياة الآن قد أصبحت أجمل، فإنها شهيدة ومكانتها عظيمة، وإن الشموخ الآن قد كبر بأنني ابنة من ضحت بروحها لتسقي هذه التربة من دمها.

---

(١) كجي: المقصود يا بنت.

(٢) كّراڤيبي: سم ،وهو دعاء قاسي.

رفعت ليلاف الحبيبة رأسها على النافذة والحزن يتغلغل في أركان تلك العيون المنقوشة بكل فن، ملأت الدموع عينيها، وفجأة تغير الحال، عادت لصحوها، مسحت الدمع من عينيها، وصمت الكلام في قلبها لينطق لسانها، عجبًا.. عجبًا كيف لم انتبه، كيف نسيت؟ يا إلهي.. يا إلهي، إنه كان أمامي وعيناي لمست حنايا عينيه، ولساني أطرب أذنيه، لقد كان هنا كان أمامي كيف أضعته؟ وكيف طاوعه قلبه وأضناني يالله ما أقساه وما أقساني!

* * *

لم يكن الحال عند سعد أفضل من ذلك أبدًا فحاله مزر جدًا، محتارٌ في أمره، أهو حزين على رفيقه الشهيد؟ لا.. لا إنه الآن بأجمل مكان حيث لا أذنٌ سمعت ولا عينٌ رأت، هل النفس تشعر بالذنب لأجل امرأة فدته بروحها؟ ربما.. ربما، ولكنها أيضًا نالت الشهادة وتنعم الآن بالجنة، ولكنها فدته! يالله ما أصعبه من شعور، ولكن هل هذا كل ما في الأمر؟ ليجيبه قلبه.

لا والله إني أكذب على نفسي، سحرتني تلك العيون، وشدّني ذاك اللحن الذي أطربني، ذاك الوجه الذي أذابني، فماذا أقول لصحبي؟ قُتلت امرأة بسببي ومات زميلي وخرجت من معركة شرسة ولم يشغل بالي كل ذلك، إنما شغلتني امرأة رأيتها لمرة واحدة فقط، ماذا سيقولون عني؟!

دخل الدكتور إلى سعد ليقطع عنه خلوته قائلًا: شبك يا رجل كلها إصابة بالكتف، ما بيستدعي كل هالانهيار. قالها مازحًا.

سعد: بس في ألم!

- بشو بتحس؟

- أه يا طبيبي، لا أدري من أين أبدأ، أأقولُ سحرٌ لمسني، أم جنية لبستني، عن ماذا أحدثك؟ عن قلبٍ يخفق بجنون ولا يهدأ وصدر لا تهدأ أنفاسه، أم عن عذابٍ أنهك فؤادي، أقول لك دائي ولكني لا أعرف دوائي! هناك لهفة مجنونة تدعوني لمغادرة هذا المكان والذهاب إليها، دوائي يا دكتور رؤياها لا أكثر ولو كان من بعيد، ولكن دائي الذي يقتلني ويمنعني من الذهاب هو كيف سأتصل بها وماذا سأقول لها، هل سأقول أنا من تسبب بقتل أمك؟! يا لسخافتي وسذاجتي، بكل تأكيد ستقول: اغرب عن وجهي أيها اللعين، وقسمًا سأنتقم منك، فماذا وماذا أقول لك يا دكتور غير آآآآهٍ من القدر المحتوم، آآآهٍ من عشقٍ بدأ بثأرٍ ودمٍ، آآآهٍ من حملٍ كالجبال على صدري آآه يا دكتور.

دكتور مقاطعًا خلوة سعد مرةً أخرى: شبك وين سرحت عم قلك بشو عم تحس؟!

- ما في شي ما في شي.. دكتور أعطيني موبايلك بدي أحكي مع أهلي إني بقامشلو وما بقدر أرجع بسبب الشغل.

مرحلة جديدة «الكارثة».. وماهر يعود

توترت الأجواء والدولة تعد لكارثة كبيرة ضد عامودا، كعقوبة جماعية لكل الكرد وليس فقط لأهالي عامودا، فبعد استشهاد العسكري نيجرفان وانحيازه التام لأهله وشعبه، أدرك النظام أن كل كردي في الجيش سيفعل الأمر ذاته لو سنحت له الفرصة، وبدأوا بمعاقبة العساكر الكرد، هناك من سجن، وهناك من خطف، وهناك من عاد إلى أهله مقتولًا تحت التعذيب، بدأ الكثير من العساكر يعودون جثثًا هامدة لمجرد أنهم أكراد، ولكن الطامة الكبرى أن هذه العقوبة شملت أبناء المناطق من غير عامودا، كنوع من الضغط على ثوار عامودا للاستسلام، حتى المرضى والجرحى في المشافي لم يسلموا، الشهيد نوري من قامشلو الذي قطع الأربعين من عمره، كان مصابًا بهجوم من قطعان الأمن على المظاهرات وإطلاق الرصاص على المدنيين، أسعفوه إلى المستشفى وهناك تم تعذيبه حتى مات لأنه كردي فقط.

فرهاد تم اغتياله بعد أن خرج في مظاهرة تضامنية مع عامودا، وطُلب

منه أن يشتم أهله وقومه، لكنه بصق في وجه الجلاد ليُعذب حتى الموت. حسين من مدينة عفرين من المعتقلين المدنيين، عُذب حتى الموت في أقبية الأفرع الأمنية، وبعد ستة أشهر تُوفي والده أثر نوبة قلبية حزنًا على ابنه. ضياء الدين عسكري قتل بعد إطلاق رصاص مباشرة عليه لأنه كردي من منطقة تربة سبي(القحطانية). حسين من عامودا عسكري قاموا بقتله، كما قُتل خيري وبديع من قرية «قزلا جوخ» التابعة لعامودا، وهما عسكريان تهمتهما أنهما أكراد. قاسم من منطقة ديريك، عسكري وتم قتله.

هؤلاء عساكر تم قتلهم وتصفيتهم داخل القطعات العسكرية، تهمتهم أنهم أكراد، وتم تسجيل قتلهم ضد مجهول أو بنوبة قلبية!.

وهناك من مات حُرقةً على أبنائهم من أمثال خليل من قامشلو، بعدما داهم الأمن منزله واعتقل أبناؤه الثلاثة معًا أمام عينيه، فلم يتحمل كل ذلك وهو يعلم أن من ذهب إلى الأفرع الأمنية لن يعود إلا جثة هامدة.

أحمد من مدينة سري كانيه«رأس العين» عاد إلى أهله جثة هامدة تحت التعذيب، ومثله حمادة وحنان من عفرين، لأنهما فقط رفضا الخنوع والذل وطالبا بحريتهما من براثن الطغاة، الجثث توافدت لتعم غيمة سوداء على رأس كل كردي، لم يتحمل الثوار ذلك، شمروا عن سواعدهم وحملوا سلاحهم وانطلقوا إلى الجبهات، بدون سعد لأنه مصاب، وقاموا بعدة عمليات، خسر فيها الأمن الكثير من عناصره.

فالمدينة عوقبت سابقًا بأبنائها في بداية الستينيات من القرن الماضي على يد الناصريين، بارتكابهم مقتلة بحق العشرات من أطفال عامودا في حادثة

سينما عامودا[1] المروعة، وكان البعثيون امتدادًا للناصريين، وارتكبوا جرائم حرب في حلب وجسر الشغور والعديد من المناطق، ولكن كشفوا عن حقدهم الدفين وبطشهم الشديد، في تلك المجازر التي ارتكبوها في مدينة حماة أبي الفداء[2] التي راح ضحيتها عشرات الآلاف من البشر والجرحى والمفقودين والمعتقلين، دولة بوليسية قمعية دكتاتورية لا تعرف سوى لغة القوة والبطش ولا يعرفون من الحكمة شيئًا، فكيف لهم وإلى متى سيبقون يتحملون الخسائر على يد ثوار عامودا وهم صامتون مكتوفو الأيدي؟ فعدوهم مجهول غير مكشوف، ولكن لابد من طرق لإخراج هذا العدو حتى يتم اصطياده، وكان ماهر الأسد شقيق الرئيس الحالي، وابن الرئيس السابق، وقائد الفرقة الرابعة المجرمة، قد عاد من دمشق بعد أخذ مباركة القيادة بإبادة عامودا كما نقل نيجرفان من معلومات لصحبه، عاد ماهر إلى المنطقة حاملًا معه المباركات، وأرسل وراء مجاميع وجهاء المدينة ليبلغهم قرار الدولة والقيادة في دمشق كما يسمونها «القيادة

---

(١) سينما عامودا: في تاريخ ١٩٦٠/١١/١٣ عرضت سينما شهرزاد في عامودا فيلمًا عن الثورة الجزائرية وكان اسم الفيلم:جريمة في منتصف الليل، وكان ريع الفيلم للثورة الجزائرية، وكان العرض أول أيام العيد، كان عدد الطلاب ٥٠٠ طفل من مدرسة الغزالي الابتدائية، بعد عرض الفيلم وإغلاق الأبوب أشعل الناصريون النار بالسينما، وكان ذلك نتيجة تهديد سابق لأهل عامودا بسبب تأييدهم لثورة الملا مصطفى البرزاني في كردستان العراق، وراح ضحيتها ٢٥٠ طفلاً في الحريق، وكان السبب في إنقاذ العدد الكبير من الأطفال هو الشهيد. محمد سعيد أغا الدقوري، الذي كان يخرج الأطفال من السينما حتى وقع عليه باب السينما، وسُمبت المدينة منذ ذاك الوقت بلقب عامودا بافي«أبو» محمد.

(٢) أبي الفداء: هو إسماعيل بن علي بن أيوب من سلالة صلاح الدين الأيوبي من الأصول الكردية، كان ملك حماة وكان عالماً ومؤرخًا وقارئاً للتاريخ، وسُمي صاحب حماة.

القطرية»[1]، ظهر ماهر أمامهم وكأنه المنتصر بشكل متعجرف، يحدق ويتحدث ويتعالى بصوته غير محترم للقامات التي أمامه من الوجهاء والشيوخ والأغوات وأردف قائلًا: شوية عرصات وحشرات ماراح يعملوا منكن أبطال.

أحد الأغوات: مبين على سيادة العقيد أنو جاي ليهدد مو ليقدم حلول!

ماهر مستهزئًا: حلول .. متقولها هيكي بكل هالبساطة، بعد كل اللي عملوه جماعتكين.

- مو بس جماعتنا متل ما حضرتك بتقول.. كمان جماعتك ما قصروا، ممكن تحكيلي وين إمام الجامع اختفى، وين أبوه للعسكري نيجرفان؟!

- ما بيهمني كل هدولي، أنا هون لقلكن شغلة.. قواتنا كلها راح تنسحب من المدينة، متل ما بقولو تاركيلكن الجمل بما حمل وتاركيلكن المعتقلين كمان .. ماشي، بس معكين عشرين يوم بس إذا ما سلمتوا السلاح، وهالمجرمين الخونة ما سلموا حالهين لأهد عامودا فوق روسكين فاهمين واعيني؟!

- حضرة العقيد الموضوع ما بيتحمل هيك!

- انتو اللي وصلتوها لهوني.. ما قلنالكن من قبل سلموهين وبينتهي كلشي انتو ما قبلتوا!

- بس نحن فعلًا ما بنعرفهم!

ماهر: هذا ذنبكن، لا قوهين وسلموهين. انتهى الاجتماع.

---

(١) القيادة القطرية: بحسب الدستور السوري في المادة الثامنة إن حزب البعث العربي الاشتراكي قائد الدولة والمجتمع، تم إلغاء هذه المادة في عام ٢٠١٢ في إجراءات وإصلاحات مزيفة.

سعد يضع رأسه بين يدي الحبيبة

إنه عارٌ أن أبقى ضعيفًا هكذا مؤنبًا ضميري خائفًا من لقائها، يا للعار أنا ثائر وأملك الشجاعة الكافية للقائها ومواجهتها، نعم أنا تسببت بمقتل أمها سأضع رأسي بين يديها ولتقتلني وتأخذ ثأر والدتها، فذلك بالنسبة لي رحمة، على العكس فإن قتلتني بيديها سيكون أجمل ما أتمنى أن أموت وعيني في عينيها، وروحي حاضرة بين يديها، قم وارتد لباسك أيها المقاتل وتحل بالشجاعة واذهب إليها.

قام سعد وبدأ يرتدي اللباس الذي يقاتل به، دخل عليه الدكتور في القبو، وكان الليل قد حّل، تفاجأ الدكتور أن سعدًا يرتدي ملابسه القتالية.

- شو وين رايح في عملية اليوم الشباب ما خبروني؟

- لا دكتور ما في شي بس عندي مشوار ضروري لازم قوم فيه.

- مشوار شو بهالوقت!؟

- مشوار لازم أساويه وإلا راح أموت.

- صدقني مو زعلانين منك.. بس إذا بدك تروح روح، أنا متأكد أنهم راح يسامحوك!!

توقف سعد عن الحركة بعدما كان يلبس واستدار ونظر إلى الدكتور وقال مستغربًا: شو عرفك؟

- أنا دكتور لازم أكتشف مرض المريض من غير ما يحكي.

ابتسم سعد وحمل سلاحه وخرج، منذ يوم الهجوم على المدرسة لم يخرج من القبو، خرج ليشم رائحة السماء والليل الهادئ والنسمات الباردة بعض الشيء، توجه سعد إلى منزل الحبيبة وهو طالب عطفها، كمن يقف على باب السلاطين، لكنها فعلًا سلطانة قلبه، لكنها سلطانة محتلة، دخلت قلبه دون استئذان، لكنه أجمل إحتلال.

لم يطرق سعد الباب لأنه نزل من فوق السطح كون ذلك أكثر أمنًا له من الوقوف أمام الباب وحتى لا يلمحه أحد. نزل إلى الحوش ووقف عند الباب الذي حدث عنده مقتل «كلجين» وتذكر المشهد ليزداد توتره أكثر خشيةً من عدم مسامحته من قبل ذوي الشهيدة ومن حبيبته على وجه التحديد!.

كان المنزل هادئًا والأنوار مطفأة وكان أهل المنزل نائمين، هكذا يفترض!.

كانت ليلاف، مستلقية على ظهرها في الفراش تحدق بسقف المنزل، شعرت بضيقٍ شديد في صدرها فهي تشعر بخسارة كبيرة، بل خسارتين حسب اعتقادها، الخسارة الأولى مقتل والدتها والخسارة الثانية فقدان حبيبها!، فقد كان واقفًا أمامها، وهي طلبت منه الرحيل حتى لا يلقى القبض عليه، دون أن تعلم أنها طلبت من فارس أحلامها الرحيل بعد أن وجدته دون عناء، شعرت ليلاف بشيءٍ من حُرقة في صدرها، قامت

من فراشها لتجلس كما كانت عند النافذة المطلة على الحوش لتنظر إلى السماء الصافية الهادئة وتتنفس قليلًا، فالنافذة ملجأها دومًا عندما تريد استحضار طيف حبيبها ولكن!

«ليلاڤ» عند النافذة تنظر إلى أعالي السماء وتناجي ربها بأن يطفئ نيران قلبها، وسعد ينزل من على الدرج، وصل إلى منتصف الحوش، وإذ بليلاڤ تلمح طيف أحد، كان المنزل مظلمًا لأن الكل كان نائمًا، تقدم ليطرق الباب، لكن ليلاڤ لم تخف ولم تصرخ بأن لصًا تسلل إلى المنزل، لربما منعها قلبها وشعرت أن صاحب هذا الطيف ليس بلصٍ سارقٍ للمال، إنما هو لص أتى ليسرق القلب المفتون، فمثل هذا اللص لا يُصرخ عليه ولا يُعاقب على فعلته، خرجت وفتحت الباب وقلبها يخفق بشدة، انتبه سعد على حركة ما، تراجع قليلًا إلى الخلف، ولم يعرف من القادم نحوه، أشعلت ليلاڤ ضوء الحوش وعندما أخرجت رأسها إلى الخارج تبين لها هوية اللص، ولكنه لم يرها لأنها في الجانب المظلم وهو تحت ضوء الكهرباء، تلك اللمبة البرتقالية التي تتوسط كل منازل المدينة، وقع تحت مرمى عينها، رأت ليلاڤ أمامها رجلًا ملثمًا يرتدي الأسود وبيده سلاحه الرشاش، تنهدت تنهيدة خفيفة وأخذت نفسًا عميقًا جدًا وخفق القلب بجنون وذرفت دمعًا لتقول في نفسها، إنه هو فارسي وفارس روحي ومالك قلبي ووجداني، ألا أيها الزائر نزلت في ديارنا أهلًا، ووطأت أقدامك في ربوع قلوبنا سهلًا.

استحضرت طيفك فلم أعرف أنك ستأتي بنفسك، هل سمعت خفقات قلبي؟ وهل شعرت بالضيق الذي أشعل مهجة قلبي؟ حتى أتيت

مخاطرًا بنفسك. وقفت بكل هدوء تنظر إليه وبداخلها براكينٌ وعواصف، تشبع عينيها منه.

أراد سعد أن يتكلم ولكن تفاجأ بهدوء من الطيف الواقف، لكنه قاطع خلوتها وقال: أنا بعتذر لأني نزلت بهي الطريقة.. لم ينه جملته حتى تقدمت ليلاف قليلًا وظهرت لسعد؛ توقف سعد وقد ارتبط لسانه، اختل توازنه المختل أساسًا، ماذا سيقول وبدره واقف أمامه؟ وجهها المضيء كالقناديل في عتمة هذا الليل، وطولها الرشيق كأنها غصن ريحان، ساحرةٌ بدون أدوات الشعوذة، خطفته وأخذته بعيدًا إلى تلك الحقول، حقول الربيع حيث الجمال وحده يحكم هذا المكان، ماذا سيقول وماذا ستقول هي؟ صامتان واقفان وكأنهما بانتظار بعضهما بعضًا. فجأة اشتعل المكان إنارةً وذهبت العتمة وتبينت الوجوه، ليقطع والدها خلوتهما ويكسر حاجز صمتهما، الرجل الذي خسر زوجته ورفيقة دربه، لا يمكنه النوم بهذه السهولة فلم يمض على موتها الكثير، كان يحاول أن ينام وقبل أن تسرقه غفوة خاطفة، انتبه إلى حركة في الخارج، رفع رأسه وإذا إنارة الحوش مشتعلة، نظر من الشباك وجد ابنته واقفة باندهاش واضح على وجهها، وأمامها شخص ملثم يرتدي الأسود وسلاحه بيده، خرج من غرفته وأشعل الأضواء، وقاطع صمتهما: شو في شو عم يصير؟ مين أنت؟

صفعة على وجه سعد.. هكذا شعر ليعود من مخيلته إلى الواقع واستدار إلى والدها .

- أنا يا عمي جاي اليوم لسلمكم راسي.. أنا اللي تسبب بمقتل زوجتك. صمت سعد

تقدم عمر والد ليلاف ووضع يده على كتف سعد: أنت من الثوار؟

- نعم.

- نحن مسامحينك بدم زوجتي كلجين، متل ما أنت وباقي الثوار حاملين دمكم على كفكم ومعرضين حياتكم للخطر كرمالنا، كمان كلجين ثائرة وخلفت ثائرات وقدمت روحها للحق، ونحن فخورين فيها متل ما نحن فخورين فيك وبباقي الثوار.

- انتو هيك عم تعذبوني أكتر!

- لا يا ابني أنت ما إلك ذنب ومن كل قلبنا مسامحينك.

أراد سعد أن يسمع صوتها الذي مازال في أذنه منذ ذلك اليوم، أراد أن يحدثها ولكنه لم يجد طريقة، يكلم والدها وهو محترق الفؤاد، يسرق النظرات إليها سرقة يحاول أن يخطف ملامحها إلى ذهنه ليستحضرها في منامه وصحوه، وفي صباحه ومسائه، يريد أن يرسمها في ذهنه وقلبه وعينه لوحة فسيفسائية نادرة، نظر إليها سعد وقال:

- إذا أنت سامحتني يا ترى بنتك كمان سامحتني؟!

بقيت ليلاف صامتة مستمتعة بصوته الذي تسمعه لأول مرة، إنها غير مصدقة نفسها، إنه أمامها وتسمعه ويسمعها، هو يتحدث وهي تسرق النظر إلى عينيه الشيء الوحيد الظاهر فيه، لا تعلم ملامحه المخفية وراء القناع، تقول في نفسها: سامحتك يا جرح القب ويا داء الفؤاد، لو أردت لفديتك بروحي ونفسي..

قاطع والدها صمتها: بنتي الزلمة بيحكي معك.. بابا ليلاف أنت بخير؟

إذن اسمك ليلاف «الثلج الذائب» وجهك كمعنى اسمك ذائب، إذن يا حبيبتي اسمك ليلاف وأخيرًا عرفتُ اسم فتاتي، واسم قاتلتي وساحرتي، عرفتها ولكن أفلا تسمعينني صوتك!

بعد أن أخذت ليلاف نفسًا عميقًا: أنا وكل أخواتي مسامحينك من جوات قلبنا، وانتو أملنا الوحيد لحتى نحرر عامودا من هدول وكلنا مستعدين نفدي بلدنا بأرواحنا لو لزم الأمر.

ابتسم سعد ونزل كلامها على صدره مثل الثلج عندما يذوب، ارتوت روحه كما يرتوي العطشان في الصحراء تائهًا. أراد سعد وداعهم ولكنهم طلبوا منه البقاء ليقوموا بضيافته، إلا أنه أبى وطلب الرحيل قبل بزوغ الفجر حتى لا يُكشف أمره، صعد إلى السطح ليعود أدراجه من حيث أتى ويخطف نظراته الأخيرة إليها مودعًا إياها بعينيه، وهي تناجي ربها أن يحميه مودعةً إياه بالدعوات والصلوات.

عاد سعد إلى حيث مسكنه المؤقت عند الدكتور هرانت وكان الآخر بانتظاره على أحّر من الجمر، دخل سعد ووجهه مشرق ولكنه لم يتكلم وتوجه إلى القبو حيث ينام، أدرك الدكتور أن العائلة سامحته ولكنه لم يحدثه وتركه لخلوته.

وعادت الحبيبة إلى فراشها وهي مبتسمة حتى بانت أسنانها، يا لها من ليلة ما أجملها وأروعها، وذابت في النوم كما لو أنها لم تنم منذ دهر، وزالت الغيمة عن قلبها، لتحل مكانها سكينة لم تشعر بها من قبل.

الاجتماع السري بين الثوار والأغوات

عندما عاد الوجهاء من عند ماهر الأسد بدأوا البحث عن طريقة للوصول إلى الثوار لإبلاغهم بما حصل بينهم وبين ماهر الأسد، وكان البحث عن الثوار بصوتٍ عالٍ وبشكل علني، في مثل مدينة كعامودا، إذا كان الصوت منخفضًا يدري به جميع الأهالي، فكيف لو كان الصوت عاليًا، علم الثوار بذلك وأرسلوا إلى أحد الوجهاء رسالة مكتوبة، إنهم سمعوا النداء، طلبوا انعقاد اجتماع سري وفوري، خفق قلب سعد من هذا الاستعجال وقرروا أن يذهب، شيخموس وعلي وسعد إلى الاجتماع الذي سيعقد في منزل أحد الوجهاء، توزع الثوار على المباني المجاورة وأسطح الجيران بشكل خفي حتى يؤمّنوا المكان في حال حدث أي طارئ وتم كشف الاجتماع من قبل الأمن، وعند الساعة الحادية عشر والنصف، دخل شيخموس وعلي وسعد إلى المنزل عن طريق الأسطح وهم بلباسهم القتالي المعهود وملثمون ومعهم سلاحهم، تم الترحيب بهم بحفاوة غير معهودة تفاجأ الثوار بذلك، وتم تلقين الثوار أشجع الكلمات. بادر علي من قبل الثوار بالكلام والاعتذار منهم على عدم كشفهم لوجوههم

لضرورات أمنية، وتفهم الوجهاء ذلك. بدأ أحد الأغوات بالكلام مباركًا ما فعلوه حتى الآن، وقال للثوار ما قاله لهم ماهر الأسد.

شيخموس: نحن عنا هي المعلومات واللي خبرنا بهي المعلومات هو الشهيد العسكري نيجرفان لما نزل على عامودا بإجازة، مشان هيك يومها هجمنا على المدرسة «الثكنة العسكرية» لحتى نغتنم الأسلحة لنواجههم..

- هلا وضحت الصورة وعرفنا كيف العسكري استشهد معكم وما صرلوا نازل من إجازة غير كم يوم! وحسب ما فهمنا من كلامكم إنكم ناوين على المواجهة؟

علي: أكيد ما راح نسكت لهم وراح نقاوم حتى آخر نفس بس..

سعد مقاطعًا: اعذرني خال بس بدي أحكي كلمة للسادة الوجهاء.. إذا بتضمنوا أنو نسلم حالنا مقابل يفكوا الحصار عن عامودا، ويرجع كلشي أحسن من الأول وما ينتقموا من عامودا ونجنب عامودا من الدمار.. نحن مستعدين نسلم حالنا والسلاح اللي معنا.

أغا: حتى لو ضمناهم. من سابع المستحيلات يوفوا بعهودهم بس نحن ما بنرضى تسلموا حالكم لأنو راح يعذبوكم شر عذاب وراح ينتقموا من أهاليكم شر انتقام.

أحد الأغوات: متل ما قال الأغا، اللي عملتوه أنتو فيهم عرفوا أنو الشعب الكردي ما راح يسكت عن أي ذل وأنو راح يقاوم بكل زمان ومكان..

سعد: بس إذا بدنا نواجه في أمرين لازم تعرفوهم، الأول دمار لعامودا والثاني لحالنا ما بنكفي بدنا رجال لنقاوم.

- ليش كم عددكم ابني؟

شيخموس: لا تستغرب أغا من اللي بدنا نحكيه، عددنا الأساسي ٦ أشخاص وزاد عددنا لـ ١١ بيوم اقتحام المدرسة، وطبعًا استشهد نيجرفان الله يرحمه يعني هلا عددنا ١٠ أشخاص بس.

- وي[1]ما شاء الله عددكم كان ٦ بكل المعارك وعملتو اللي عملتوه! و١١ واقتحمتوا المدرسة، شو راح تعملوا فيهم بس يصير معكم كل شباب ورجال عامودا!

شوفوا نحن راح نجتمع مع ماهر الأسد مرة تانية ونحاول نصل مع هالحيوان لحل، بس إذا رفض راح نخبروا أنو راح نواجه وما راح نستسلم.

انتهى الاجتماع الطويل جدًا بين الوجهاء والثوار وتم الإتفاق على المواجهة وعدم الرضوخ والاستسلام مهما حصل، وطلب الوجهاء لقاء ماهر الأسد لإبلاغه بذلك، وتعمد الثوار والوجهاء نشر الخبر بين الأهالي لمعرفة آرائهم عن المواجهة التي ستحصل والدمار المحتمل الذي سيحل في حال لم يستسلم الثوار، وتم الإتفاق على خطة معينة للمواجهة.

* * *

هي فترة العصر تحل أوزارها والشمس تنسحب تدريجيًا إلى المغيب، ليلقي الظلام أجنحته على هذه المدينة التي بات السواد راية حزنها، جلست المحللة السياسية شفين والثائرة كولي في الحوش أمام أشتال الريحان والنعناع يحتسيان القهوة المعتادة.

كولي: كجي معقول أهل عامودا يسلموا الثوار للعسكر!!

(١) وي: بمعنى يا ما شاء الله وهذا مصطلح متداول كثيراً عند الشعب الكردي.

- مجنونة شي ها؟ ما راح يسلموهم.
- وشو عرفك ها يا فيلسوفة زمانك!
- لأنو كل شباب عامودا حابين يصيروا من الثوار يعني إذا هني سلموا حالهم راح يطلع غيرهم!
- لك بس بدهم يضربونا بالطيارات والدبابات!!
- يا أمي والله أنا خايفة.
- والله لأحمل عصاية وأقاتل مع الثوار ومع حبيبي وما بقبل يمسكوه!!

بدأت شفين بالضحك بصوت عال جدًا : بالعصاية أوعى تطق ها.

كولي: تضربي أي.

قرار المواجهة

علِمَ الثوار بالقرار الأخير مدركين أن نظام الأسد لن يتراجع عن قراره وبدأوا بالتجهيزات للمواجهة الحتمية، وبدأوا بترشيح الأسماء التي يمكن الاعتماد عليها أثناء انسحاب الجيش، علمًا أن عددًا كبيرًا سيطلب الانضمام، ولكن لابد من وجود أشخاص ذوي ثقة عالية لتولي المهمات، ووضع الثوار خطة لاستلام المدينة وإدارتها بعد انسحاب الجيش، حتى لا يقوم أصحاب النفوس الضعيفة باستغلال الوضع للسرقة وما شابه، وبدأ الثوار بالتفكير حول المواجهة التي ستكون، وكيف من الممكن مواجهة الطيران الحربي والمدفعية الثقيلة!.

اجتمع الوجهاء مع ماهر الأسد وطلبوا منه إعادة النظر فيما طرحه، ووضع شروط أخرى للتفاوض، معتبرين تسليم الثوار أنفسهم بالأمر المستحيل، ولكن يمكن الاستغناء عن السلاح مقابل عودة الحياة إلى المدينة كما كانت سابقًا.

ماهر: كنت بعريف أنكن ما راح تتخلوا عن هالخونة وأنكن كلكين على التواصل معن.. من بكرا كل الجيش والأمن راح ينسحبوا من المدينة ومعكين عشرين يوم بس لتسلموهين وإلا لهد عامودا تبعكن على راسكين.

أغا: نحن أجينا لعندك يا حضرة العقيد طامعين بأنك تتراجع عن هالقرار

بس بما أنك مُصر على هالقرار، نحن كمان ما تعودنا نستسلم أو نتهدد وكل اللي صار بسبب بطشكم، وحابب قلك أنو هالمرة كل أهل عامودا راح يوقفوا ضدكم، وإذا ستة أشخاص حملوا سلاح وما قدرتوا تتخلصوا منهم وعملوا فيكم العمايل، فما بالك أنكم هالمرة راح تواجهوا كل أهل عامودا.

- متقول ٦ .. هنت بدك تقنعني هولي العصابة ٦، بقص أيدي إذا ماكللكين معهن!

- إن حبيت تصدق أو ما تصدق هذا بيرجعلك، بس فعلاً كل أهالي عامودا معهم كانوا بالأول بقلبوهم هلا بسواعدهم.

- ما تتواقحوا معي .. يوم اللي أقصفكن بالطائرات والدبابات وقتها سمعني صوتك هنت وياه.

- فعلًا ما راح تسمع صوتنا لأنو راح نكون مشغولين بالمعركة وما راح تسمعوا غير صوت البندقية.

ضحك ماهر باستهزاء من ما سمعه، وفجأة سمع أصوات حشود تهتف قريبة من مقر الاجتماع، أخبر أحد الضباط ماهر الأسد بأن أهالي عامودا خرجوا في مظاهرة كبيرة وهناك لافتات مكتوبة: كلنا الثوار. وكان ذلك بالترتيب بين الوجهاء والشباب بأن يخرجوا بمظاهرة في نفس الوقت الذي سينعقد فيه الاجتماع ليعرف ماهر الأسد ومن معه أنهم هذه المرة سيواجهون المدينة بأكلمها لعله يعود إلى رشده، لكن سد أذنه وتجاهل ما رأى بأم عينيه وتوعد بالرد القاسي.

انتهى الاجتماع واتفقوا على المواجهة ولكن..كيف ستكون المواجهة وماذا سينتج عن هذه المعركة غير المتكافئة رشاش بوجه الطائرات؟ ولن

يجلب ذلك إلا مزيدًا من القتل والتنكيل، ولكن هذه المرة سيكون القتل جماعيًا، غير الدمار الذي سيحل بالمدينة والأضرار التي سيتكبدها الأهالي، إلا أن كرامة الإنسان أغلى من روحه وماله، واتفقوا على هذه المعركة ليقولوا للطغاة الموت أهون من العيش في الذل، وليس الشعب الكردي الذي يرضى بالهوان والذل، فهذا شعب الثورات، الشعب الذي ترعرع في الجبال، اسألوا جبال رانيا وجودي وزاغروس[1] وجبل الأشم اسألوا تلك الوديان عن الثوار، اسألوا الجهاد قبل البشر وسيجيبون بلغة واحدة إنه الشعب، الذي يتحدى الظلم حتى في الخيالِ ويحاكي الشمس من قمم الجبالِ.

لم يكن للسوق حديث غير حديث المعركة القادمة، وبدأ الجميع يستعد لذلك بكل شغف، فالأهالي الذين اعتادوا على الروايات والقصص التاريخية والأساطير القتالية والمعارك الخالدة في أذهانهم، متشوقون ليعيشوا تلك القصص على أرض الواقع، فالكل يسعى ويقدم نفسه لهذه المعركة، إلا أن الثوار طلبوا من الوجهاء الإشراف المباشر على انتقاء ١٠٠ شخص فقط، لأن السلاح لا يكفي لأكثر من ذلك وأن يكونوا ممن خدموا في الجيش حتى يستطيعوا استخدام السلاح، وأبلغ الثوار الوجهاء أن رئاسة المجموعات القتالية ستكون محصورة فقط بالثوار العشرة كونهم أصبحوا يمتلكون الخبرة الميدانية في القتال، وطلب أن يلبس المئة مقاتل لباسًا وأقنعة للضرورات الأمنية مستقبلًا ولتوحيد لباس المقاتلين، ولم يشرف الثوار على انتقاء المقاتلين بشكل مباشر حتى لا يكشفوا أنفسهم، إلا أنهم رشحوا بعض الأسماء للوجهاء ليتم التواصل عن طريقهم، كما سيكون هناك مجموعات

(١) جبال في كردستان العراق لجأ إليها المقاتلون الكرد كثيراً.

مدنية رديفة للثوار وهم سيحملون السلاح الأبيض لعدم توافر الأسلحة القتالية، وستكون مهمة هذه المجموعات الرديفة حماية الأحياء السكنية والأسواق من أي أذى، وهم لجان شعبية موثوقة حتى لا تعم الفوضى في الحياة العامة للمدينة، وتم تحديد أماكن معينة لاحتواء واختباء أكبر عدد ممكن من المدنيين لحمايتهم من القصف، وهي عبارة عن أماكن كالقبو أو تسوية كبيرة تضم أكبر عدد ممكن ومن كان يمتلك قبوًا سيستضيف أهل حيه.

بدأت الإجراءات الاحترازية توضع وتناقش كي تكون قيد التنفيذ عند انسحاب الجيش، وهناك من تبرعوا بسياراتهم للثوار للتنقل في المدينة والتحرك من مكان إلى آخر ومن جبهة إلى أخرى، وكان لذلك جانب إيجابي كبير لصالح الثوار وتخفيف عبء كبير عنهم.

الأهالي يقفون على أطراف الطريق وهم يرون بأم أعينهم انسحاب الجيش والقوى الأمنية من المدينة، وإفراغ المؤسسات الحكومية والأمنية، وفتح باب السجون والمعتقلات وخروج المئات من المعتقلين، لا تستطيع المرأة الكردية أن تمسك نفسها في مثل هذه المواقف دون أن تزغرد لتقهر العدو، ولكن يبدو أن الزغرودة حزينة بعض الشيء خوفًا من القادم.

انسحب الجيش وقام بحصار المدينة من الأطراف الثلاثة وقطع الكهرباء والاتصالات عنها بشكل كامل، إلا أن المياه لن يستفيدوا من قطعها كون عامودا غنية بالمياه والآبار المائية، رغم ذلك قطعوا المياة الحكومية كوسيلة للضغط عليهم.

توجه المقاتلون على الفور إلى أحد المقرات الحكومية التي أصبحت فارغة

بانتظار الثوار لتسليمهم السلاح، وأغلب الأهالي يقفون على الطرقات بانتظار الثوار حتى يظهروا، وكان الوجهاء أيضًا هناك، خرج الثوار العشرة في سيارة «بيك آب» مكشوفة وهم يرتدون لباسهم القتالي الأسود وبيدهم السلاح، منطلقين نحو المكان وخلفهم شاحنة كبيرة فيها الأسلحة، كانت النساء تزغرد والرجال يهتفون والشباب متحمسين، والأطفال والشيوخ يلوّحون لهم بأيديهم، خرج أولئك الذين سحروا قلوب العذارى، خرجوا أخيرًا إلى النور ليراهم الجميع. هاهم بشر وليسوا بالجان كما كانوا يصفونهم، تم توزيع المهمات وتسمية رؤساء المجموعات ليقودوهم في حراسة مداخل ومخارج المدينة، وهم علي وشيخموس ونادر وآراس وبـرزان، الذين سيترأسون المجموعات، أما عليكو وفنر وولات ورودي فسيبقون مع سعد ليكونوا متجولين ومتنقلين بين المجموعات كدعم لوجيستي والمساندة ونقل التعليمات، وتم توزيع اللجان الشعبية على الأحياء والشوارع والأسواق، وأخذت كل مجموعة التعليمات اللازمة لتكون المدينة كلها في حالة استنفار.

توجه سعد إلى منزله ليخبر أهله أنه تم اختياره من ضمن اللجان الشعبية حتى لا يقلقوا عليه في غيابه، وتوجه إلى عيادة الدكتور هرانت للقائه حتى يعرف منه التجهيزات الطبية كيف ستكون؟ كان سعد يمشي بوضعه الطبيعي وكان قد نزع ما عليه من اللباس والسلاح وخرج كونه مدنيًا ليتحرك بحريته سعد، ومنذ فترة وهو يكابر على نفسه ولكن لا يتكلم، فهو لم ينس ولو للحظة واحدة فقط حبيبته، ولم يكن يمتلك الحجة حتى يذهب إلى منزلها مرة ثانية، ولم يكن يستطيع الكشف عن هويته الحقيقية، ولم يكن يمتلك الوقت ليذهب إلى شارعها، ويلقي نظرة ليبرد النيران التي تلهب

القلب ويزيل السد المنيع الذي جمّد الدم في العروق والشرايين، فيا لهذا الحب الغريب، الذي أتى غريبًا ويعيشه بغرابة.

وصل سعد عند مدخل السوق وكانت الحياة في النهار تسير بالوضع الطبيعي، لم يكن سعد يتوقع أن يلمح حبيبته، أبطأ سيره وأتت عيناه بعينيها وأكمل مسيره، خفق قلبها عندما مرّ من جانبها، والتفتت إلى الخلف لتناظره إلا أنه لم يقم بذلك خوفًا من أن تلاحظه وتكشفه، وأكملت مسيرها وكأن شيئًا لم يكن، قال لها قلبها إنه هو ولكن ذلك بقي احتمالًا، فأكملت المسير ولم تحدق كثيرًا بعينيه وإلا فإنها كانت ستعرفه بدون شك.

توجه سعد فيما بعد ومعه نادر إلى الحقول والبساتين، وجلسا في مكانهما المعهود فوق منزل طيني مهجور، مركزين أنظارهما على الطبيعة، وعلى جبال طوروس، وعلى السيارات المارة على الطريق الدولي ولا أحد فيهم يتحدث، بدأ نادر بالكلام محاولًا استدراج صديقه، مدركًا أن هناك شيء يقلقه ويزيد من تفكيره الذي يتعمق يومًا بعد يوم.

نادر: بشو سارح؟ وعلى فكرة منتبه عليك صرلك فترة عم تسرح كتير كتير!

- الربيع طول كتير هالسنة ما!

-ما فهمت عليك!

- الموضوع كبر كتير كتير، كنا بنقتل عسكري ونشلحوا السلاح ونهجم على دورية، صرنا بمعركة راح يدخل فيها الطيارات والدبابات!!

- هذا شي غصبن عنا مو بأيدنا.

- أي بس أحيانًا بحس أنو ذنب كل هالناس برقبتي.. وأنا السبب.

- لا تحمل حالك ذنب أنت بريء منو، والدليل كل هدول اللي وقفوا معنا، لو كان صحيح اللي بتحكيه لكانوا طلبوا تسليمنا وتجنبوا اللي صار واللي راح يصير.

- بس هذا هو.. فكرت في شي تاني؟!

- متل شو؟

نادر مبتسمًا: أنت احكي.

سعد: قوم انقلع ولوو.

«خلفو» أحد المجانين المعروفين بعامودا، كان جالسًا في الشارع وقد تمدد على الأرض واضعًا ساقًا على ساق ويده خلف رأسه، وسيجارته في فمه ويمتصها بكل غضب، كان يرتدي بدلة كحلية مخططة متسخة، وبنطاله يسحل منه، ويمسكها بيده اليمنى، وهو أصلع الشعر، وهناك بعض الشعيرات البيضاء في منتصف رأسه وفي بعض الجوانب، محللًا ما آلت إليه الظروف، وباله مشغول، وآثار الغضب عليه واضحة، لعله يفكر كيف سيؤمن لقمة عيشه إذا تم قصف السوق؟ ولكن تفكيره أبعد من ذلك بكثير فهو غاضب لأنهم لم يسلموه قطعة سلاح حتى يقاتل مثل الفرسان، واصفًا إياهم بالحمقى لأنهم لا يميزون الفرسان الحقيقيين!.

حلَّ المساء وبسط الظلام جناحه وامتد فوق سماء عامودا لينشر هدوءًا في كافة أرجاء المدينة، جلست كولي وخليلتها شفين، لكن نقاشهما في هذه المرة مختلف!

كولي: هلأ بعدما بينوا الثوار كيف فيني أعرف حبيبي؟

- بصراحة أنا كنت عم فكر بهالشي.

- والله بدبحك إذا بتحاولي تسرقي فارس أحلامي مني!
- تضربي.. مو لنعرفوا بالأول.
- شو رأيك هلا نساوي الشاي وننزل على الحارة ونوزعها على الشباب اللي بيحرسوا الحارة.
- اي والله جبتيها بلكي البطل اجى فجأة ويشوفتي ويدوخ ويقع على الأرض.
- يه يه يه على شو دخيلك على عيونك اللي متل القطط ولا على طولك النص متر!

شفين: قومي انقلعي اعملي شاي يا بقرة!

كولي تشد شعر شفين: امشي قدامي ولا عاد تحكي بقرة ها!

* * *

ركب سعد ومعه مجموعته السيارة، وبدأوا يتجولون في الشوارع ليلًا يتفقدون اللجان الشعبية والمرابطين على الجبهات الأمامية، بينما هو سائر في السيارة لاحظ في إحدى الحارات فتاتين تقدمان الشاي للشباب الذين يحرسون الحارة، ابتسم: «هدول هني أهل عامودا ما راح يتغيروا»، ليرد عليه السائق، «والله نحن شعب بنحب المشاكل»، وبدأوا يضحكون.

هذا الشعب لن يتغير مهما طال الزمن ومهما كانت الظروف، فالابتسامة عنوانهم والطرافة واللهو حشيشتهم التي تبقيهم دومًا مبتسمين، فهناك لجان كانت تغني ولجان تلقي الأشعار، ولجان تتبادل أطراف الحديث والأساطير والجان، كانوا ينكتون ويضحكون وهكذا يقضون لياليهم مستغلين الوقت، وصف الشاعر الكردي الراحل«جكر خوين» الشعب الكردي ببيتٍ من

الشعر:

Halê me kurda eve * Xebat û kêf û sere**

هذه أحوالنا نحن الكورد نضال وأفراح وساحات الوغى.

طلب سعد من السائق التوجه نحو الحارة الغربية متحججًا بتفقد اللجان الشعبية، ولكنه كان يريد المرور من شارعها لعله يلمحها أو يتبارك بطيفها، لعلَّ وعسى يبرد تلك النيران التي تغلي في أوردة دمه، وصل إلى الشارع وطلب من السائق أن يبطِّئ قليلًا سرعة السيارة، استغرب «سنان» وهو السائق المرافق لسعد، ظن أن هناك أمرًا ما، طلب منه المضي وأن الأمور تحت السيطرة، مر من شارعها ولم يلمح طيفها، توجه نحو الجنوب على الخطوط الأمامية حيث علي ومجموعته هناك، نزل سعد من السيارة وجلس مع علي قليلًا وهما يشاهدان من بعيد تجمعات للجيش حيث العسكر المعد للهجوم على المدينة عند انتهاء الوقت، وهم يستمعون إلى العزف على البزق أو الطنبول الآلة الوترية الكردية المرتبطة بأي شخص كردي، والمرتبطة بالثقافة الكردية، كان أحد المقاتلين يعزف ويغني للحب للراحل محمد شيخو، أخذ العزف الجميل والكلمات الشجية سعد إلى حيث هي ليلاف...

Cana min cana min tûyî êş û jiyana min
kî zane ez kîme bê te çîye manamin
Hemrîn û delalî mihabat û waramin
Navê te yî şêrînê dîrîlomê şanamin
Dêmê sor cavê reş bê zav û samyanamin
Newrozê dîrokê xelata û sîpan min

يا روحي يا روحي ..أنتِ الألمُ أنتِ السكن من يتعرف عليا؟

إن لم تكوني أنتِ يا همي يا وطني يا سكني.

اسمك حلا سكر يا علمة حبي

خد الأحمر عين الأسود تفرح لي وترقص

يا تاريخي ونوروزي يا هديتي يا وطني ياسكني.

انتبه عليه علي وعلى حالته وسأله.

علي: خالو شبك صرلك فترة بتشرد كتير احكيلي.

- لا مافي شي بس العزف حلو كتير.

ابتسم علي: وهي حلوة ولا لأ ؟!

سعد مستغربًا وأصابته حالة ارتباك: كيف؟!

ضحك علي واستطرد قائلًا: هلأ عرفت داءك.

- لا يا خال مو هيك القصة.. أنا تأخرت على الشباب.

علي: أي ماشي ماشي روح واتهرب لشوف.

تهرب سعد من الاعتراف وتوجه نحو الجبهة الشرقية حيث برزان ومجموعته وتحدثا قليلًا، وإذ ببرزان مشتاق للمعارك، ضحك سعد :«يا زلمة طول بالك بكرا راح تشبع معارك وتكرهها».

- احكي عن حالك.. يول بشرفي جاي عبالي أروح أهجم على هالسيارات اللي واقفة بعيد.

- طول بالك طول بالك هني راح يجو لعنا.

توجه سعد ومجموعته فيما بعد إلى الجبهة الغربية التي هي أقل الجبهات توترًا، حيث ستكون المواجهة من الجانب الشرقي وبعضًا من الجانب الجنوبي،

ومخاوف من الجبهة الغربية المؤدية إلى طريق درباسية، لكن هناك تجمعات بعيدة للجيش تقف لمنع الدخول والخروج من وإلى المدينة، وكان آراس هو من يدير تلك الجبهة، وصل سعد إليه ووجد الجبهة كما باقي الجبهات، هادئة والأمور تسير بشكل جيد، لكن كان آراس غارقًا في التفكير.

- شبك مهموم لتكون عشقان يول!؟

آراس المبتسم دائمًا: أنو عشق انت التاني.. بس أخوي عم بفكر بالبكرا شو راح يصير!

- أترك بكرا واللي بعدو لربك.

- قصدي لما تنتهي المدة يا سعد هني راح يقصفونا بالطيارات والدبابات كيف راح نقاوم ما بعرف!

- لك آآآآه ليش فكرك ما عم فكر وراسي راح ينفجر من كتر التفكير، ودايمًا بسأل كيف راح نواجه الطيران؟

آراس والابتسامة على وجهه: الموضوع كبر كتير مو؟

- أي والله كبر كتير.

- لا تفكر إني خايف بس عم بفكر بشكل عملي.

سعد: والله بعرف.. يلا دير بالك راح أشوف باقي الجبهات.

وكان نادر وشيخموس في استراحة نائمين حتى يستلموا المهمة من علي وبرزان غدًا، وهكذا يتناوبون، أنهى سعد جولته وتوجه نحو منزل الدكتور هرانت، ودخل عليه وأزال اللثام عن وجهه، نظر إليه الدكتور وابتسم ابتسامته المعهودة: شرف العاشق الولهان!

توجه سعد بنظرة استغراب إلى الدكتور: شو عرفك دكتور؟

- أنت قلتها دكتور!

- عم حاول ركز بلي نحن فيه ما عم بقدر.

طيفها لا يفارقني، صوتها موسيقى روحي، اسمها حين يُذكر يزلزل روحي ووجداني، عيناها أصفى من عين الديك، سحرتني ملكتني أخذتني بعيدًا، وإني أعلنها بين يديك أيها الدكتور أني رفعتُ راية الاستسلام!

- هي بتعرف إنك بتحبها؟

- ليش أنا بسترجي؟

- ليش؟

- هون المصيبة، أنو ما بقدر أكشف هويتي، وما بقدر أحكيلها لأنو أنا اللي.

- أنت اللي شو؟

- أنا اللي تسببت بمقتل أمها!

صمت الدكتور حتى استوعب: أيوه فهمت عليك.. بس مو سامحوك..

- أي سامحوني بدم الأم بس بتلاقيها معقولة يا دكتور أروح أصارحها بعشقي! بخاف تعتبرها وقاحة مني حتى أنو في شغلة تانية بتمنعني..

- متل شو؟

- اللي متلي كيف بيقدر يعشق وهو بقلب معركة ما بعرف بأي لحظة ممكن أنقتل أو اعتقل وراح يعدموني، أنا الحب والزواج خلاص انحرم علي!.

- بشو بتحس لما بتشوفها.

كأن سعد كان ينتظر هذا السؤال.. بحبها! مو كلمة وبتنحكى يا دكتور هي كلمة ما بتوفيها حقها.. بعشقها والعشق قليل عليها.. ولما بشوفها

بحس براحة كبيرة، وأنو أنا فرحان وبدي طير بدي أركض وأعانقها، بس لما بتغيب عن عيني بشعر أنو روحي راح يطلع من محلو، أنو راح أختنق، وقلبي بيضرب وبيضرب ودقاتو ما بيهدو وبس أنو .. أنو، لك بمر من شارعها لأرتاح لأشم ريحتها وأروي روحي بشوية أمل.. لك آآآآه..

- قابلها واحكيلها هالحكي وبهالحماس، وأنا بضمنلك مية بالمية أنها راح توافق عليك.

- أشوفها!! إذا بوقف قدامها ما بعرف أحكي كلمتين على بعضو.. بعدين ما بدي ياه تعرفني ولابدي أعرضها للخطر.

- بالعكس خليها هي الوحيدة اللي تعرفك.

نظر سعد إلى الدكتور وصمت. عند كل صباح تنسحب اللجان الشعبية إلى المنازل للاستراحة لأنه لا داعي لهم في وضح النهار، وبكل الأحوال هناك دوريات للثوار تجوب الحارات لسلامة الأهالي، وكانت النساء تخرجن إلى الجبهات ومعهن الطعام والشاي إلى الثوار المرابطين، توجه سعد إلى دورية للثوار قريبة من منزل حبيبته لعلها تأتي للثوار بزاد ويستطيع رؤيتها والحديث معها.

وانتظرها
إلى أَن يقولَ لَكَ الليلُ:
لم يَبْقَ غيرُكُما في الوجودِ
فخُذْها، بِرِفْقٍ، إلى موتكَ المُشْتَهى
وانتظرها!.

محمود درويش

وبكل تأكيد كانت ليلاف تنتظر وقت الطعام بفارغ الصبر لتخرج إلى الثوار لعلها تلمح ذاك الطيف الذي لا تعرف عنه شيئًا سوى صوته، خرجت مع شقيقاتها إلى دورية قريبة من حيهم، وإذ بسعد يلمحها، تنفس وأغمض عينيه ليرخي أعصابه قليلًا قبل أن يواجهها، تقدمت ليلاف نحو الثوار وأثنت عليهم بالسلام وبالكلمات الحماسية حتى تسمع أصواتهم فجميعهم ملثمون، إلا أنها لم تسمع صوت من تريد، ألقت السلام لتعود أدراجها إلى المنزل خائبة الفؤاد، كان سعد يحمس نفسه ويحاول إيجاد كلمات ليبدأ الحديث لكن لم يكن يتجرأ، عندما أدارت ظهرها لتعود، أدرك سعد أنها ذاهبة وسيخسر هذه الفرصة، تقدم قليلًا: شكرًا إلك عذبناكي.

وقفت ليلاف وصمتت، خفق قلبها بشكل جنوني، شعرت بحرارة تشعل جسدها، بلعت ريقها، استدارت إليه وقالت في نفسها إنه هو، قسمًا بخالق الأكوان إنه هو، هذا صوته فأنا التي تعرف هذا الصوت الشجي صوت الفارس القوي صوت سارق قلبي ومهجتي ومالك أمري وفؤادي.

ابتسمت وبدت الغمازات في خدودها، كانت قد ربطت شعرها من الخلف وارتدت فستانًا أسود، وبان عنقها الطويل حتى أعلى صدرها، لترد، «شو رأيك كل يوم تعذبنا وتجي وتدق بابنا بدون خجل وأنت بتعرف العنوان أكيد»، بإشارة منها أنك أتيت ذات مساء كاللص الذي أتى ليسرق قلبي وذهب.

هز رأسه سعد وابتسم، أدارت ظهرها وذهبت مع شقيقاتها، وكان سعد واقفًا ينظر إليها حتى تغيب عن عينيه، وصلت إلى مفترق الطريق لتستدير بجانب الشارع وإذا بها تلتف لتسرق نظرة، وكان الآخر ينظر إليها، ابتسمت

وغابت عن الأنظار.. لقد كانت كالغزالة الشاردة.

انتبه «سنان» السائق المرافق لسعد أنه يقف ناظرًا لآخر الشارع، لاحظ اهتمامه بالفتاة، تقدم وسأله «أنت منيح».. ليقطع عليه خلوته، «أي كلو تمام وعلى أحسن ما يكون».

توجه نادر مع مجموعته ليستلم المناوبة من برزان وإذ به يجد هوارو، كما يلقبونه أهل عامودا، رجل مقعد فقد ساقيه الاثنين وقطعتا إثر حادث سير قديم جدًا، وبقي على ذلك الكرسي المتحرك يجوب شوارع عامودا، وهوارو رجل «درويش» وصفوه بأعقل المجانين، كل أهالي مدينة عامودا إذا أرادوا الرجوع بذاكرتهم إلى الوراء لن يتذكروا غير هوارو، هذا الذي أمامهم بلباسه العسكري هو ذاته منذ سنوات على نفس الكرسي المتحرك، ولم يتغير شيء من هذا الرجل سوى الأوسمة العسكرية التي تزداد على صدره، فمن أين يأتي بها ومن يقلده إياها لا أحد يعرف، كان بسيطًا محبوبًا مبتسمًا ودودًا، وكان يضع رتبة العميد على لباسه العسكري، كان يتكلم بشكل متقطع، هو أصلع الرأس تمامًا وتجاعيد السنون على وجهه العجوز.

نادر: ها هوارو شو بتعمل هون ورك؟!

- بتفقد العساكر؟

نادر يضحك: طبعًا حضرتك العميد تبعنا ورئيسنا.. ليش بنسترجي لنخالف أوامرك!

- اعمل تفقد يلا.

- أي فورًا حضرة العميد.

- ليش ما عملت تحية عسكرية إللي

- أمرك سيدي.

بينما يتوجه شيخموس إلى جبهته لاستلام المناوبة من علي، وجد على مفترق الطريق شخصًا من الثوار يجلس بزاوية وهو شارد الذهن واضعًا سلاحه في حضنه، لم يعرفه شيخموس، وتقدم قليلًا حتى لاحظ أنه سعد..

- شبك يول بشو عم تفكر؟

ارتعد جسد سعد من الرعبة: بشرفي فزعتني ياو!

شيخموس يضحك: شو عم تفكر تصير مدير الناحية؟

ابتسم سعد: أي هذا كل همي.

توجه شيخموس إلى جبهته، وتوجه سعد نحو شارع حبيبته يمشي بين تلك الأزقة بحجة حراسة الحي لعله يراها أو تراه، وكلام الدكتور في ذهنه، لكنه عاد مكسور الخاطر، فلم يحظ برؤيتها، قرر سعد كتابة رسالة لها وأن يعطيها إياها حين تأتي، فهو لم يعد يستطيع أن يتحمل هذه الحالة، فكل أهالي المدينة يعيشون انتفاضة واحدة إلا هو يعيش انتفاضتين واحدة ضد نظام البعث والثانية انتفاضة داخل قلبه وجسده وكبده وشرايين دمه، فكيف عليه أن يقاوم ويبقى ثائرًا كيف؟!

التقى علي وبرزان بالأغوات ووجهاء المدينة بطلب منهم وذهب علي وبرزان كونه لا أحد يعرف مكان سعد، والبقية منشغلون على الجبهات!

أبلغ الأغوات الثوار أن الموعد اقترب فما الحلول والخطط لدى الثوار حتى يتم التنسيق بينهم للمساعدة؟ حاول علي مراوغتهم وأخبرهم أنهم سيطلعون الوجهاء بكل خطوة في الوقت المناسب، خرج علي وبرزان، وتوجه برزان إلى علي بالسؤال: وين سعد خال مو مبين؟

علي يأخذ نفسًا عميقًا: شو بعرفني وينو إذا شفتو خبرو باللي صار، الموضوع صار جّدي هلا.

استقلَّ علي سيارة وبدأ بالانتقال من دورية إلى أخرى حتى وصل إلى الحارة الغربية، وجد سعد عند دورية هناك، استغرب علي من جلوس سعد عند هذه الدورية ومهمته التنقل بين الدوريات لأجل التنسيق فيما بين الجميع.

علي: أنت هون وأنا بلف الدينا عليك!

- خير شوفي خال؟

- التقينا مع الوجهاء وطلبوا منا خططنا لأنو الموعد قرب!

- كلما بسمع بالموعد قرب بحس أنو الكارثة اقتربت.. خلونا المسا نلتقي عند الدكتور شو رأيك؟

أدرك علي أن جلوس سعد هنا له غاية تخص العشق الذي تهرب منه: اي ماشي أنا بخبر الشباب أنت خليك هون هي الجبهة مهمة. ابتسم علي حتى ضحك سعد وزال الهم الذي يخيم على وجهه وعرف سعد أن علي كشف أمره.

حان وقت الظهيرة وخرجت ليلاف نحو تلك الدورية مع شقيقاتها ومعهم الطعام، كان سعد جالسًا على طرف الطريق بعيدًا عن باقي عناصر الدورية، سارحًا شاردًا بالرسالة التي كتبها لا يشعر بأية حركة من حوله، لا يستمع سوى لنبضات قلبه وللعشق الذي جعل ليله نهارًا. انتبهت ليلاف بجلوسه لوحده وهي توزع الطعام على أفراد الدورية، تركت المهمة لشقيقاتها وذهبت إليه، وفجأةً وقفت أمامه، وبادرته بالكلام: نيالها صاحبة

هي الرسالة!!

رفع العاشق رأسه، وبكل براءة وعفوية وكأنه يحدث روحه ومن دون دراية أجابها: هي الرسالة إلك!!

اندهشت منه واستغربت: إلي أنا!؟

بدأ سعد يتأتئ وتلبك بعد أن شعر بنفسه: أنا آسف مو قصدي..

قاطعته ليلاف ومدت يدها وأخذت الرسالة واستدارت، وذهبت إلى منزلها وهي في غاية السرور والابتسامة على وجهها، بقي سعد واقفًا مندهشًا يحدث نفسه: يا إلهي أخدت الرسالة.

أدرك «سنان» ما بينهم، وكان يراقب تخبط سعد وهو يسلمها الرسالة، وبعد أن ذهبت، تقدم إلى سعد وقاطع خلوته وهو إلى اللحظة غير مصدق، «شو معلم كنو زبط وضعك؟».

نظر إليه سعد وابتسم.

عند المساء اجتمع الثوار في منزل الدكتور وتطرقوا إلى أهم الأحداث التي ستحصل خلال الأيام القادمة بعد مضي خمسة أيام على المدة التي منحها ماهر الأسد للثوار، وضعوا الخطط اللازمة لتخفيف الكارثة عن المدينة، انتبه الجميع على سعد أنه ليس على ما يرام، وطلبوا من علي وشيخموس لقاء الوجهاء، وطرح ما تم مناقشته وما يجب فعله، استغربوا من عدم وجود سعد مع الوفد الذي سيقابل الوجهاء، وتهرب من ذلك مبررًا أنه ليس على ما يرام.

خرجوا من الاجتماع وتوجه كل شخص إلى جبهته، كان الوقت متأخرًا وكانت مناوبة علي هذه المرة الجبهة الشرقية، كان سعد يسير معه دون

دراية أو علم وحتى أنه لم ينطق طوال الطريق، إن كان قد كسب هذا الثائر النصر في الثورة على الظلم وعلى البعث، فقد هزم شر هزيمة في ثورة الغرام وأعلن الاستسلام ووقع في الهيام، وسار على درب الهوى ذليلًا أسيرًا مكبلًا بالأغلال، وشرب من علقم الغرام، من أراد الفوز بالوردة ليشتم رائحتها وحده دون البشر، عليه أن يمسك الشوك أولًا.

كان سعد وعلي يمشيان في الطريق، وصل إليهم نادر وهو في السيارة يزمر ليخرج رأسه من النافذة ويصيح بصوتٍ عالٍ: «يا أخي أهل عامودا ما بيتغيروا يعني ما بتقدروا تمشوا إلا بنص الطريق[1]»، ضحك علي وسعد، وأكمل نادر مسيره إلى جبهته، أثناء السير سأل علي سعد: شو عم يصير معك؟

- معقول الحب بيعمل هيك بالإنسان؟ بيخليه شخص تاني بينسيه حالو!

- وبيعمل أكتر من هيك.

- بس أنا صار معي هيك من أول ما شفتها، من أول لحظة مو بعد معاشرة ومراسلات..

- هذا الحب الروحاني يا ابني الصافي من أي دنس..

سعد: قلبت كياني فوقاني تحتاني..

- حلوة!

(١) يعرف عن أهالي عامودا عادة، إنهم يمشون في منتصف الطريق، وأن وجد شخص في بلاد الغربة يمشي في منتصف الطريق يقولون هذا من عامودا، وأهل عامودا أنفسهم لا يعرفون لماذا يمشون في منتصف الطريق.

وقف سعد وتوجه إلى علي بأنظاره ليتحدث عنها بكل شغف: تمها مرسومة لا لا منقوش نقش، خدودها بتحسهم تفاح، شعرها طويل وأسود أنا متأكد أنهم حرير.. سمارها خفيف متل سمار السما..

علي: ول ول ول طول بالك يا خال الله يكون بعونك.

جرى اجتماع بين الوجهاء والثوار وتم الإتفاق على إفراغ جميع المحلات التجارية من البضائع ووضعها في مستودعات سرية حتى لا يلحقها الضرر، ويتم استخدام تلك البضائع عند الحاجة إذا اشتد الحصار، وتم تفخيخ جميع المراكز الأمنية والثكنات، والبدء بإجلاء الناس إلى بيوت مثل القبو تحت الأرض، ووضع عناصر مدربة على السلاح بشكل كبير على الأسطح والمباني العالية لإطلاق رصاص الرشاش على الطائرات عندما تحلق فوق المدينة، وتم وضع السيارات على مداخل المدينة وتفخيخها وتم إفراغ جميع المنازل التي تقع عند مداخل المدينة حيث سيكونون الهدف المباشر أمام المدفعية، وتم تشكيل فرق للثوار وهم عبارة عن فرقتين كل فرقة تحتوي على ٤ أشخاص فقط وهؤلاء مهمتهم أن ينتحلوا صفة الجيش ويخترقوا معسكراتهم التي تقع خارج المدينة ووضع قنابل تحت السيارات لتخفيف القصف إذا حصل.

وتم الإشراف على تجهيزات المشافي الموجودة في المدينة لاستقبال الجرحى وطلب من دكتور هرانت الإشراف بنفسه على ذلك، وكون المدينة لا تمتلك سيارات إسعاف!! خصص سيارات مدنية مهمتها الإسعاف وتلبية حاجيات المشافي.

ليلاف نسيت الكارثة المرتقبة التي على الأبواب مثل سعد، وخطفها العشق إلى حيث النسيان وحيث الحب والأمان، فتحت الرسالة، وقرأت

الكلام حرفًا حرفًا، فهو الهائم الغارق العاشق الولهان، المثمل في خمرة الحب، يطلب لقائها على أطراف المدينة القريبة من الحدود، حيث البساتين والحقول والأراضي الزراعية بعيدًا عن أعين الحاسدين، يدعوها إلى ربوع الحب والجمال إلى حقول الورود والزهور، إلى الألوان الصفراء والبنفسجية والحمراء حيث الشقاء، دعاها إلى اللقاء، فالوصل مراده السامي.

وقفت على قدميها من دهشة ما قرأت، ومن شدة فرحتها وقعت مغشية على الأرض.

* * *

مازالت كولي وشفين تبحثان عن فارسمها الذي طال انتظاره ووصلا إلى حد اليأس منه، ذلك الذي وصفوه بالمتكبر..

شفين: صرنا ماخدين الأكل لكل اللي بيحرسوا الحارة وما شرف الأفندي!

كولي وهي تضحك: يقطع عمرك حاطة عينك على الأكل اللي بناخدلهم أو شاي، ريتو ألف صحة على قلوبهم..

- لك مو هيك قصدي .. بس ما عم يشرف؟!

كولي: شو رأيك نلبس لباس الرجال ونروح لحارات تانية بلكي لقيناه.

هدوء نسبي وفجأة انفجرا بالضحك على نفسيهما.

أنا الذي..

عمان /آيار ٢٠١٧

من أنا؟ كم وكم من أشخاص سألوني هذا السؤال طِوال الثلاثة عشر عامًا مضت، وكم تهربت من الجواب ولكن إلى متى!؟

أنا سعد، أنا الذي أضناه العشق، وعذبه حب الوطن، أنا الشقي في هيام مدينتي، أنا المكلوم على أحبتي.. أنا غريب الدار والوطن.. أنا الذي غدا منفيًا بعد أن شرِب مرارة العلقم.

- هون على روحك يا صاحبي!

- أتقولها هكذا بدون مبالاةٍ، ما أسهل الكلام؛ كيف أهونها وأنا الذي حمل روحه لأجل الوطن وكتب إلى جانب اسمي خائن للوطن!

أنا الذي قدم حبيبته مهرًا للوطن، وعادة ما يكون مهر الحبيبة هو الوطن، أنا الذي يقضي الأيام والليالي بالبكاء، أنا الذي كوته نيران الأشواق والحنين..

ما أبسط الكلمات وما أقسى المعاني.

- من هي!؟

- هي.. هي التي كانت أدنى من الله بدرجةٍ عندي، كانت ثورة وكانت قضيتي، كانت ابتسامتها مثل البلسم لجروحي، كانت سلاحي الذي أخطأ رصاصه وأصابني، هي شرمولا[1] بشموخها، والبابونج بعطرها، وشقائق النعمان بجمالها، وحضارة شعبٍ، وثقافة أمة. هي من النساء اللواتي يرفض القلب البديل عنها حتى لو ظل خاليًا إلى الأبد.

- وهل تستحق المرأة كل هذا الشقاء يا صاحبي؟

- عنترة بن شداد لم يصبح عنترة من وراء شجاعته، فالفرسان في زمانه كانوا كُثر، ولكنه أصبح عنترة بسبب عشقه لعبلة.. وقيس بن الملوح لم يشهره عذوبة كلماته، إنما للصدق العظيم في جنونه، بسبب عشقه لليلى العامرية.

- لم تقل لي ما اسمها وما قصتها؟

- ستبقى السر الذي يمزقني..

- مهلاً أنت سعد! ألم تقل لي يومًا إن اسمك نادر؟!

(١) شرمولا تلة في عامودا، والبابونج وشقائق النعمان: من الورود والأزهار والنباتات التي تمتاز بها مدينة عامودا.

نزف الربيع في لقاء العاشقين

عامودا ٢٠ نيسان ٢٠٠٤

إنها الساعة الحاسمة، إما أن تنتصر الثورة أو تغمد، لكن الثورة فكرة والفكرة لا تموت، حتى الحقول والطبيعة تتزين لمثل هذه اللقاءات، تتبرج لتخرج بأبهى صورة، هذا هو اليوم الأخير من فصل الربيع تستعد الطبيعة لولادة فصل آخر.

ها أنا أستعد لخوض معركة أخرى، معركة مختلفة، جرت مفاوضاتها بشكلٍ غريب، ذهبت إلى المجهول إلى حتفي دون أن أدري، أهي معركةٌ هذه أم مفاوضات؟ سأقدم قلبي وروحي بين يديها دون تردد، وهل يتردد الإنسان في تقديم روحه إلى الوطن؟! وهي وطني.

شعرت للحظة أن المدينة خالية من البشر لا يوجد فيها سوانا، كغرفة مغلقة، هدوءها يقلقني، ولكن بركانًا يثور بداخلي، قلقًا يضغط على صدري، يسرق لي أنفاسي، لا أعرف له سببًا.

كل معاركنا تخرج من منزل الدكتور هرانت، نشد الوثاق ونلقم السلاح، وتبدأ العاصفة، إلا أنني اليوم أخرج من منزل الدكتور دون أن

أتلثم أو أحمل السلاح، صحيحٌ أني ذاهبٌ إلى معركة، ولكن سلاحي في هذه المعركة عشقي، وصدق كلماتي ومشاعري، لم أتلثم وسمعت نصيحة دكتوري، أن أذهب إليها بهويتي الحقيقية هذه المرة، لتكون أول من تعرف من أكون.

العشق يزيل كل الحواجز ويكسر أي سد يمنع الوصال. بدأت المسير وكل ما في هذه المدينة صامت، أتراهم يعلمون عن هذا اللقاء؟ كنت أتساءل..

أتراهم أسكتوا الصبية الصغار الأشقياء ليمنعوا الضجيج والصخب؟ لماذا أشعر بأن كل المدينة ستحضر هذا اللقاء الذي سيجمعني بحبيبتي؟ تراهم على ماذا يعولون، كلما دخلت شارعًا يزداد الصمت ويسود الهدوء،

ونبضات قلبي وحدها من تلفت الأنظار.. وكلما اقتربت من الحقول تيقنت أن المدينة كلها علمت بسر هذا اللقاء، وما فضحني سوى هذه النبضات المجنونة، وصوتُ رصاصةً لم أعلم مصدرها!

وصلت إلى أطراف المدينة.. هدوءٌ قاتل وسألت نفسي، أين يا ترى تكون قناصتي لتصيب قلبي بسهام عينيها.. أين تراها؟ هل وصلت أم مازالت على الطريق.. أرجو من الله ألا تتأخر، ولكن هل تراها تأتي!!؟ كم أخشى الخذلان كم أكره هذا الشعور..

فمنذ أن خرجت وأنا أشم رائحة الموت لماذا لا أدري؟!

أتراها استدرجتني إلى الحقول لتنال مني انتقامًا لأمها دون تردد، هي نالت مني من غير أن تسفك أية قطرة من دمي.

ملأت الأسئلة رأسي، وسؤالٌ يطرح نفسه، وجواب من القلق يجيب..

أخذت نفسًا عميقًا، وإذ بنسمة هواءٍ عليل دبت في المكان، قبل لحظات كانت الأزهار صامتة، كالورود التي بدون رائحة، وإذ بها الآن تهتز يمينًا ويسارًا وتترنح، فاح شذى العطور.. أتراه عطرها!؟

بدأت أتباطأ بالسير، وسلمتُ روحي للسؤالات، والهواء المنعش وضيق الصدر، ولإحمرار شقائق النعمان على جانبي الطريق، وقفتُ منبهرًا، تشاهدتُ لهذا المنظر.. أمامي جبال طوروس وعلى مرمى عيني شقائق النعمان والأزهار الصفراء.

تراها أين تكون الآن.. كان بيني وبينها عشرة أمتار، كنا قد تواعدنا عند بركة للمياه الزراعية وهي مياهٌ عذبة تثلج الصدور.. كعذوبة عشقنا وطهارة نوايانا.

وكلما اقتربت تقترب إلى أنفي رائحتها الزكية، أنا لا أخطئ رائحتها.. مزيجٌ من رائحة البابونج وعنفوان نساء بلدي.. كم هي جميلة هذه الأصوات التي أسمعها، زقزقة العصافير وخرير المياه.. وقفتُ مذهولًا من هول ما رأيت، كانت بانتظاري.. لكنها فاجأتني.

في كل معركة أخوضها، ألبس الأسود، إلا في هذه المعركة لم ألبسه.. لأني أتيت مستسلمًا بقلبي، لكنها كانت ترتدي فستانًا أسود طويلًا، كالملكات في المناسبات حين يستعرضن جمالهن، إنها أعدت نفسها جيدًا لهذه المعركة.. لم تضع أيًا من الرتوش والمكياج على وجهها، إنما أتت ببشرتها السمراء الساحرة كم كنتُ أحب أن أراها، كما رأيتها أول مرة، ولم تبخل عليّ برسم الإبتسامة المنقوشة على خدها.. كانت واقفة في مكانٍ كما التمثال، تجمدت بأرضي مذهولًا مصدومًا.. جثوت على ركبتي ومددت

يدي إلى عينها وأغمضتها وحملتها بين يدي، ورفعت رأسي إلى السماء وصرخت بأعلى صوت والدموع تنهار من عيني.

ما الحكمة يا الله.. لماذا كان امتحاني صعبًا إلى هذا الحد! بدأ هذا العشق بالدم وانتهى بالدم، للحياة قوانينٌ وأعرف أنها لا تتغير، ما بدأ بالدم لا ينتهي إلا بالدم.

تلك الرصاصة التي سمعتها وأنا قادمٌ إلى هذا المصير برجلي، كانت صوت رصاصة اخترقت جسد من أحب لتنام قريرة العين، وأموت وأنا أتنفس من غير أن يراق مني دم لأن الدم تجمد في عروقي، كل شيء تغير، لقد خسرت المعركة قبل أن تبدأ.

شيعت المدينة كلها جثمان من أحب، وشاركتُ معهم ولكن.. دون أن أرتدي اللثام، وكان سلاحي بيدي، صدم قراري هذا كل أصدقائي، ولكن من قتلها كان يعرف الموعد مسبقًا وقد كشف هويتي. بقيت لمدة ثلاثة أيام وأنا أنام عند قبرها، فتارةً أسقي التراب بالماء لأروي عطشي، وتارةً ألملم الحجارة حول قبرها حتى يبقى قبرها معروفًا ومزارًا لكل العاشقين والثائرين، وتارةً أزرع الورد على قبرها، ويومًا كتبت على شهادة قبرها بيدي، هذه من فدتني بروحها كما فعلت أمها.

تغير كل شيء بعيني، لم أعد أعلم ماذا أفعل، ولم أعد أقوى على الحركة، وكم وكم سقيتُ ترتبها بدمع عيوني.

أنا الشهيد الذي لا يموت..

عمان/ آيار ٢٠١٧

وتسألني يا صاحبي إذ كنتُ سعد أم نادر !؟

أنا سعد ونادر وآراس وشيخموس وبرزان وعلي وهرانت وفرهاد ونيجرفان وحسين وكلجين وليلاڤ وجوان ومحمد ونوري وأحمد وإدريس وضياء الدين وفريدة وجلال وغيفارا وخليل وسيوان وخيري وبديع.. أنا الشهيد الحي أنا الشهيد الذي لا يموت..

مهما بغى الطغاة وعاثوا في الأرضِ فسادًا وقتلوا من البشر، إلا أن مقابل كل شهيد سيولد مئة ثائر، وإن الدم لا يوقفه إلا الدم، فالإكثار من سفك الدماء ليس حلًا لقمع إرادة شعب انتفض، فمن ينتفض يُدرك جيدًا أنه سيواجه كل مفسدي الأرض، لن ينال من عزيمة طلاب الحرية أية أداة للقتل.

سنثور ونستمر في ثورتنا كرامةً لدماء الشهداء، ولا نوفيهم حقهم إلا بالحرية وتحرير الوطن.

- قل لي يا صاحبي.. كيف تلقيت قيام الربيع العربي والثورة في سورية

عام ٢٠١١؟

- كان يومًا جميلًا.. بدأ الأمل يعود إلى النفس، وبدأ القلب ينبض من جديد، وزاد إيماني أني سأعود إلى وطني بعد دهر طويل، أسقي القبر العطش وألملم جراح الماضي، وأرحم القلب المكسور، وأبني قبرًا عظيمًا لحبيبتي ليصبح مزارًا للعاشقين، سال الدمعُ من عيني فرحًا، بأن نضالنا لم يذهب سُدى، وأن الشعب السوري سيعيد الحق إلى أصحابه ويعيد الطهارة إلى الوطن الذي دُنس من رجس البعث وزبانيته.

ومع أول صرخة صرختها في اعتصام أمام السفارة السورية في عمان عام ٢٠١١، بكيت يومها على العمر الذي ضاع في الغربة، وكأن النصر تحقق، هو كذلك تحقق، فالشعب كله أعلن التمرد لا فئة واحدة منه، تذكرت مظاهراتنا عام ٢٠٠٤، تذكرت حماسنا للحرية، تذكرتُ وجهًا لم أنسه يومًا، فرحت كثيرًا وابتسمت كثيرًا يومها.. وبكيت بشدة من السرور والسعادة.. وكأني سأعود إلى الجامع الكبير في عامودا لأصلي به، وأتلذذ بمنظر شجرة التوت التي في باحته الطاهرة وحرمه المصون، كنا صغارًا نتسلل إلى الجامع الكبير ونتحجج بأننا سنتوضأ لكي نتسلق شجرة التوت.

فرحت، معتقدًا أني غدًا سأزور شرمولا لأقبل قبورًا تاقت روحي إلى قراءة الفاتحة عليها، لأقبل ترابًا لطالما دسنا عليه ثوارًا، لأذهب إلى بركة العاشقة التي اختلط دمها الطاهر بمياه عامودا العذبة.. فأنا يا صاحبي منذ ثلاثة عشر عامًا عطش.

فرحت وكأني غدًا سأركع لأقبل قدم أمي ويد أبي، وأقبل رأس جدي

وقبر دكتوري، أكثر ما عذبني في غربتي يا صاحبي.. أن الذين أحببتهم ماتوا قبل أن أعود إليهم.. عاهدتهم بأني سأعود يومًا. وعاهدوني بأنهم سيكونون بانتظاري.. ولكن بعد موتهم أقسمت أن لا أعود.. حتى يحافظ كلٌ منا على عهده، ولا يقال عن صحبي أنهم خانوا العهد.

كنتُ أعتقد أني سأعود وأجد حبيبتي بانتظاري على شرفة منزلها تلوح لي بيدها.. مع أن طيفها لم يفارقني بغربتي، وكانت مؤنستي ومعذبتي.

ولم أكن أعلم بأن كل الشعب السوري سيأتي إليّ في غربتي.. ليؤكدوا لي فعلًا أني لن أعود.. فالعبرة يا صاحبي ليست بجسدك أين يسكن.. إنما العبرة أين تسكن روحك!؟

أبكي على وطنٍ تكالبت عليه الذئاب ومزقوه إربًا.. حتى الأموات لم يسلموا من البطش.. هكذا هي الحرية يا صاحبي، ثمنها غالٍ، فطوبى لمن مات في الوطن ودفن تحت ترابها.. ويا لخيبة من عاش وتغرب. الشهيد وحده من نال الحرية.

الصراع على اللحِاف..

مخيم الزعتري/ حزيران ٢٠١٥

منذ أن تدفق اللاجئون على الأردن من سورية، شكّلنا مجموعة شباب فريق تطوعي لمساعدتهم، ذهبنا إلى الكثير من المدن والقرى الأردنية لتقديم المساعدات بأية طريقة وبقدر الإمكان، كنا شبابًا من أغلب المحافظات السورية، كنا نقضي طوال الطريق نغني للحرية والشهيد والمعتقل، كم غنينا: يا حرية هيلا .. هيلا، ويا أم الشهيد يا نيالك ريتها أمي بدالك.

وللمعتقل: يا ظلام السجن خيم نحن لا نخشى الظلاما، ليس بعد الفجر إلا مجدُ شمسٍ يتسامى.

دخلنا مخيم الزعتري، وكانت الخيم مرتمية على مرمى النظر، أوجاع الوطن بأكمله بعيون الأمهات، وعز ومجد شعبٍ بعيون الأطفال، وصرخات الحرية بصوت شبابها.

تأخرنا يومها في المخيم، فاقترح أحد الأصدقاء بأن ننام في المخيم ونعود إلى عمان صباح اليوم التالي، اخترنا خيمة صغيرة لننام فيها وكنا سبعة متطوعين، سنفترش الأرض ونتقاسم اللحِاف الواحد لنا جميعًا.. لأني

عادةً لا أستطيع النوم دون أن أتغطى، وعندما أنهى صديقنا الإدلبي نكته الجميلة والشامي أطربنا بصوته الشجي، بدأ الصراع، وتمددنا نحن السبعة إلى جانب بعضنا بعضًا، وبدأ كل شخص يسحب اللِحاف على جسده.. أغمضت عيني وتذكرت ذاك اليوم مع الثوار، كم تسامرنا وضحكنا يومها.. ولم أكن أعلم أن تلك اللحظات السعيدة في وقتها ستكون لعنة على روحي المتعبة وذاكرتي المثقلة في غربتي.

أثناء حصار عامودا وخطفنا لعناصر الجيش، كنا في غرفة صغيرة في حقل علي.. يومها، كنا نبذل كل ما بوسعنا لفك الحصار عن المدينة وإطلاق سراح المعتقلين وعلى رأسهم آراس وقتها.. كنا ننام جميعًا على حصيرة صغيرة بجانب بعضنا بعضًا، وكان يبقى شخص منا مستيقظًا لحراسة المكان والأسرى، كنا في الليل نتصارع على اللحاف ومن ينال الوقت الأكثر دفء قبل أن يسحبها غيره.. كانت لحظات جميلة خالدة، كنا نتصرف مثل الأطفال، وبرغم الظروف التي كنا نعيشها.

بتلك الذكريات المؤلمة أغمضت عيني وعضضتُ على شفتيّ حتى لا يسمع أحد من زملائي في المخيم همسات آهاتي، والدمع يسيل كالسبيل الجاري.. ورحت في النوم مكشوفًا بدون غطاء. يا لشقاء سعادتنا.. حتى الضحك في بلادنا بثمن.

المعركة الأخيرة

عامودا/ آيار ٢٠٠٤

لم يبق أحد في مدينة عامودا ولم يسمع بقصة سعد وليلاف، وعن كشف هويته، كان للأمر وقعٌ حزين على نفس شفين وكولي، صحيح أنهم عرفوا شخصيته، لكنهم عرفوا أيضًا أنه يهوى امرأة أخرى حتى الجنون.. ندبتا حظهما التعيس وأبدتا تأسفهما على مقتل ليلاف..

شفين: بتعرفي منيح أنو ما حبنا..

- ليش كجي!

- لأنو كانوا راح يقتلونا بداالها..

- أي والله .. يا أمي أنا بخاف من الدم!!

شفين: بس كيف عرفوا إنها حبيبتو!؟.

* * *

كنتُ أفكر كثيرًا وأسأل نفسي، كيف حصل ذلك ومن فعلها؟ وكيف عرفوا!، أسئلة ستلازمني العمر كله ولم أجد لها جوابًا، سمعتُ صوت أقدام يقترب مني، لم أبالِ ولم أفزع لربما أبحث عن قاتلٍ يقتلني ويدفنني

بجنب من أحب.

كان نادر وعلي وشيخموس وآراس وبرزان، قد قدموا إلى المقبرة، وطلبوا مني أن نصعد إلى تلة شرمولا لعلَّ شموخ التلة التي نقف عليها تعيد الروح إلى جسدي، جلسنا فوق التلة وكسرت حاجز الصمت.

كانت ممتدة على الأرض وعم تسبح بدمها، كانت متل الملاك وعم تبتسم لربها، بعرفها قوية كتير، حبت تبتسم بوجه قاتلها حتى يفقد لذة القتل.

علي: الله يرحمها.. بس اللي صار بخلينا نفكر كتير.. هني كشفوا هويتك بس كيف ما بنعرف! من ٣ أيام والطيران عم يحلق أكتر من مرة لحتى يذكرونا أنو المواجهة قربت ويؤثروا على معنوياتنا.

- اسمع يا خال.. أنا بديت هي المعركة وأنا بدي أنهيها.. بدي سلم روحي!

نادر مقاطعًا: لو كان الأمر بشخصك أو شخصي كان ممكن نسلم أرواحنا، الموضوع أكبر من هيك.

- شخصيتي انكشفت، وحتى لو تفاوضنا ما راح يتركوني، أنا بالأساس خسرت المعركة.

علي: في أمور جديدة صارت.. شيوخ وعشائر الشمر العربية بلشو يتدخلوا ليمنعوا الجيش من قصفنا.. بس الأحزاب تبعنا(الكردية) عم تلعب على نفس الورقة بس ضدنا.

- العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم.

قبل يوم واحد من المعركة، تم إجلاء الأهالي الذين يسكنون على

أطراف المدينة بشكل كامل، إلى داخل المدينة، وتم إعداد تسوية (قبو) لاستيعاب أكبر عدد ممكن، للحد من الخسائر البشرية.

قام الثوار بتفخيخ ساحة التمثال الواقعة شرق المدينة الجبهة الرسمية، وتم إرسال مجموعة من الثوار يترأسهم رودي وفنر إلى قرية «حسين رومي» التي تبعد ما بين ٥٠٠ متر إلى ١ كيلو متر شرق عامودا ليختبئوا هناك ويباغتوا نقاط تمركز الجيش من الخلف، ووضع ألغام تحت الدبابات والمدرعات، إن طبول الحرب تدق، وعشيرة الشمر العربية تحاول جاهدة الوصول إلى اتفاقية قبل بدء المعركة.. وترددت أنباء إلى مسامع أبناء المدينة أن قوات البيشمركة في كردستان العراق انتشرت على الجانب العراقي على أطراف نهر دجلة الفاصل بين كردستان وسورية استعدادًا للعبور.

مهما حدث من القتل والدماء.. سيسجل في كتب التاريخ مقاومة الشعب الكردي للظلم، وعلى مدار التاريخ لم يستسلم الكرد لأعدائهم ولم يرضخوا رغم وضوح ومعرفة قوة العدو، الموت ولا المذلة، لا تفاوض على كرامة أمة.

خاض الكرد الكثير من الثورات وخسروا فيها، ولكن بقي الشعب الذي يُهاب، لأنه لم يستسلم، ومع بداية القرن العشرين كانت أشهر الثورات تلك التي قادها الشيخ سعيد بيران في تركيا ضد نظام أتاتورك عام ١٩٢٥ وتم إعدام الشيخ ومريديه، والآلاف من مؤيديه، ولكن مات أتاتورك دكتاتورًا وخلّد التاريخ بطولة الشيخ سعيد بيران.

وفي كردستان إيـران، أعلن القاضي محمد عام ١٩٤٦ جمهورية كردستان في مهاباد، وقاوم الإيرانيين، وتخلى عنه الروس السوفيت، وتآمر

عليه الإنجليز، وأعدم القاضي محمد عام ١٩٤٧، مع باقي وزرائه قربانًا للأمة الكردية، ومات الشاه رضا بهلوان وبقي اسم قاضي محمد رمزًا لكل الكرد.

وفي كردستان العراق وعلى مدار السنوات منذ ثورة محمود الحفيد، ووصولًا لثورة الملا مصطفى البرزاني عام ١٩٦١ وحتى وفاته في ١٩٧٩، لم يتوقف عن النضال في سبيل نيل حرية شعبه، زال الحكم الملكي وحكم عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف، والبعث وبقي الشعب الكردي.

التاريخ يشهد لهذا الشعب بطولاته ومرارة تضحياته وخسارته، ولكن إن ذكر الكرد، ذكر النضال والمقاومة والإباء والشموخ.

* * *

كل أبناء المدينة يجهزون أنفسهم لمعركة لايدرون كم ستطول، بعضهم يخزن المؤن، وآخرون يبحثون عن مأوى.. أما هوارو يبحث عن بقالة يشتري منها «لمبة» لأنه يخشى الظلام في المأوى، اشترى هوارو «لمبة» ووضعها في جيبه، وبدأ يسير بكرسيه «المقعد» ويجره بيديه، وأثناء الضغط لجر عجلات الكرسي، انفجرت اللمبة في جيبه، وبدأ يصرخ إنه أصيب برصاصة وينزف.. هرع إليه البعض يحاولون معرفة ما الذي أصاب هوارو..

- ورك شبك عم تصرخ مين قوّص عليك؟

هوارو وهو متأثر بالذي خُيل، ينطق بصعوبة..

- الحكومة حاولت تغتالني..ما سمعتوا صوت الرصاصة؟ أنا عم بنزف!

البعض صدق، بدأوا بالبحث عن تلك الرصاصة، حتى وجدوا في جيبه لمبة مكسورة من الضغط عليها..

- ورك لمبة.. يخرب بيتك خوفتنا عليك..

- الحكومة فجرتها بجيبتي ياو..

ساد الضحك بين الحضور وبادره أحدهم بالسؤال: ورك شو بدك باللمبة إذا ما في كهرباء!!.

امتعض هوارو وسار إلى حيث يريد الاختباء.

لأول مرة أذهب فيها إلى معركة وأنا كاشفٌ عن وجهي، أقبل يد أمي والدمع بعينيها، وأكسب رضا والدي والفخر بعينيه، عرفوا أن ابنهم من بين الثوار الأوائل، زغردت أمي.. وخرجت، هي ساعاتٌ قليلة وتبدأ المعركة حسب المهلة التي أعطاها ماهر الأسد، ولكن هيهات.. سنبدأ نحن المعركة، ولن ننتظر الموت حتى يأتي إلينا، فالدماء التي كنا نتحاشاها قد أريقت، وأصبحت دينًا في رقابنا.

وصلتُ إلى عصبتي وأعلمتهم إننا سنبدأ المعركة أولًا..كان شيخموس قد أعد مع بعض الميكانيكيين، قذائف هاون وصواريخ قصيرة المدى تم صنعها بطرق بدائية.. ولكن أعدادها ليست كثيرة..

- راح نطلق صاروخين وعشر قذائف هاون على تجمعات الجيش في الجانب الشرقي، وبتطلع مجموعة بالسيارات بعتمة الليل، بيسوق السيارة أمهر السواقين، على الجانب الغربي من قرية الجوهرية، وبيلتفوا وبيطلقوا الرصاص بشكل عشوائي عليهم، ومن الجانب الجنوبي من قرية تل حبش، أما مجموعة قرية حسين رومي بالشرق، ما راح يتحركوا هلا

بدنا نخليهم لبعدين، بس المجموعة اللي راح تطلع بالسيارة من الجنوب من قرية تل حبش لازم تلف باتجاه الشرق وتهاجم بنفس وقت إطلاق الصواريخ والقذائف لحتى يقدروا ينسحبوا.

الجيش وعلى رأسهم ماهر الأسد مفكرين أن السلاح اللي عنا بس رشاشات وقنابل يدوية وكم أربي ج.. لازم نستخدم عناصر المفاجأة في المعركة لحتى نكسب قدر الإمكان.

نادر: بشرفي كنت خايف بعد اللي صار، تكون فقدت مهاراتك وتخذلنا.. الحمد لله أنك رجعت أقوى.

- كرمال الشهيد كلشي بهون.. ولاتنسوا دم الشهداء برقابنا.

وقبل انتهاء المدة بساعتين باغت الثوار تجمعات الجيش على المحاور الثلاثة، بالهجوم المسلح والقصف بالصواريخ البدائية وقذائف الهاون، ليتفاجأ الجيش بالسلاح الذي بين أيديهم، ويتفاجأ من جديد.. وزاد يقينهم أن الخصم عنيد ولا يخشى الموت بل يسعى إليه طالبًا الشهادة أو النصر. وقبل أن تنتهي المدة وصل الجواب إلى ماهر الأسد، المواجهة والموت بدلًا من الخنوع والذل.

حدثت اشتباكات متفرقة بين العناصر المهاجمة والجيش على المحاور الثلاثة بشكل سريع، واستطاعت الدبابات قصف سيارة الثوار على الجانب الشرقي كونها أكثر الجبهات استعدادًا للمعركة، وأكثر الجبهات خمولًا هي الجبهة الغربية، كونهم استبعدوها من المعركة واكتفى دورهم بالحصار، وانتقامًا للثوار الذين قتلوا في الجانب الشرقي، توجهت عشر سيارات باتجاه الجبهة الغربية وبدأت الاشتباكات العنيفة جدًا، ولم تكن

الجبهة قد تعافت من الهجوم الأول حتى سقط منهم الكثير من القتلى، وتوجهت خمس سيارات أخرى باتجاه قرية الجوهرية وقاموا بحركة التفاف على الطريق المؤدي إلى الدرباسية-عامودا، لأخذ أكبر عدد من الأسرى، تفاجأت القيادات في الجانب الغربي بالهجوم وحاولوا الانسحاب إلى الخلف، واتخذوا موضع الدفاع والتصدي، حتى يقللوا من الخسائر، استطاع الثوار أسر سبعة من الجيش من الجرحى مع أسلحتهم.

أعطت القيادة على الفور الأوامر لسلاح الجو بقصف المدينة، كان الثوار قد فخخوا كافة المقرات الأمنية، وأمروا بسحب المدنيين القريبين من هذه الأماكن لتفجيرها ليتصاعد الدخان ليحجب الرؤية عن الطيران، وعند تحليق الطيران فوق المدينة، بدأ الثوار يفجرون المباني الحكومية والمقرات الأمنية واحدًا تلو الآخر، ليتصاعد الدخان الأسود عاليًا ويحجب عن أعين الطيران تجمعات الثوار، كانت أصوات الانفجارات مدوية وشديدة، اهتزت المدينة كلها. الذين في الملاجئ ظنوا أن الطيران بدأ يقصف، انسحب الطيران وأعاد الكرة ليتلقى الطيران الأوامر بالضرب العشوائي، بدأ الطيران يقصف بشكل عشوائي وتم استهداف منازل المدنيين، كان الثوار يركضون من مكان إلى آخر والدخان يتصاعد في سماء المدينة والغبار يتبعثر في المكان ويحجب عنهم الرؤية لدرجة أن بعضهم كان يصطدم بالآخر.

وبدأت المدفعية تدك البيوت على أطراف المدينة، أعاد الثوار تجمعاتهم وبدأوا يفجرون السيارات ليتصاعد الدخان، أجبر ذلك الطيران على الانسحاب قليلًا.

كان سعد يسعل من الغبار، ركض إليه نادر وقال له إن منزلًا في الحي الشرقي قد دُمر وقُتل من فيه، فزع سعد وهرع إلى الموقع وعندما وصل.. وقف ووقع سلاحه من يده، مذهولًا متجمدًا في أرضه، كان على وجهه الكثير من الغبار، اختلط لون الغبار مع لون شعره وبدأت الدموع تذرف..

تقدم نادر وباغته بالسؤال.. شبك؟!

- من هون ومن هذا البيت بلشت الثورة، وليكهم دفعوا الثمن بعد هي المدة كلها! كان المنزل لتلك الأم التي أراد عنصران من الجيش اغتصاب ابنتها، ما أجبر الأم وسعد على قتلهم ولتبدأ الثورة المسلحة من هنا.

قُتلت الأم وابنتها بقصف الطيران العشوائي، وكانوا أول من يرتقون في المواجهة الكبرى ولكل أجلٍ كتاب.

أرسل سعد مجموعة أخرى إلى قرية حسين رومي، الواقعة شرق عامودا ب٥٠٠ متر إلى ١ كيلو متر، وكان على رأسهم ولات وعليكو لمؤازرة رودي وفنر اللذين يقطنان مع مجموعتهما هناك للهجوم على تجمعات الجيش والتسلل وزرع الألغام تحت المدرعات والدبابات، وكان رودي وفنر وعليكو وولات هم من المجموعة التي هاجمت المدرسة.

تسللوا في عتمة الليل إلى تجمع للجيش يبعد عن مدخل المدينة بمسافة اثني كيلو متر، مستغلين الأراضي الزراعية والليل الحالك، وبدأوا بزرع الألغام تحت المدرعات والدبابات، واستخدموا «السكين» السلاح الأبيض لقتل الجنود، وفي هذه الأثناء خرجت سيارتان من المدينة باتجاه الجبهة للاشتباك مع الجيش كنوع من التغطية على زملائهم هناك، ولكن كشف أمر الثوار وبدأت الاشتباكات، وعليكو يصيح بهم بالانسحاب

حتى اخترقت رصاصة جسده وأردته قتيلاً، لم ينج من المجموعة كلها سوى شخصين فقط وقُتل الباقي ومعهم ولات وفنر ورودي إلى جانب عليكو، وصل الخبر إلى الثوار وساد الحزن عليهم ولكن مهمتهم نجحت بزرع الألغام، في اليوم الثاني عاد الطيران إلى القصف الشديد على المدينة، قام الثوار بتفجير ساحة التمثال، لتهتز المدينة ويتصاعد الدخان الكثيف حتى تصدعت كافة النوافذ الزجاجية على بعد ٥٠٠ متر من الموقع، وارتجت البيوت الطينية القريبة، وسُمع دوي الانفجار حتى القرى التركية الواقعة شمال المدينة.

* * *

كانت شفين وكولي تتسامران كعادتهما وهما تجلسان تحت شجرة التين في منزل كولي، وعندما حدث الانفجار بساحة التمثال، سمعتا الصوت الشديد المرعب، وبدأتا بالصراخ الشديد وحضنت إحداهما الأخرى وجلستا في الزاوية من شدة الخوف، وارتفع الدخان عاليًا وأُجبر الطيران على الرجوع، وأمر الثوار بتفجير الألغام التي زرعت تحت الدبابات والمدرعات كنوع من الضغط على الجيش.

صعد الثوار فوق مبنى عالٍ ليشاهدوا تجمعات الجيش في الجانب الشرقي الجبهة الأكثر اشتعالاً، وعند تفجير الألغام، كانت أشلاء الجنود تتناثر كالحجارة يمينًا ويسارًا من هول التفجيرات، جُن جنون القيادة، وباغتهم الثوار بقصف الصواريخ وقذائف الهاون، لم يستطيعوا الخروج لمجابهتهم وجهًا لوجه، حتى لا ينكشفوا للطيران الذي أعاد الكرة وبدأ يقصف بشكل عشوائي، كان القصف عنيفًا على المدينة، الدخان يتصاعد

في كل مكان، النيران تلتهم كل شيء والدمار حل بالمدينة، كان قصفًا انتقاميًا شرسًا، ووصل إلى مسامع سعد مقتل العديد من المدنيين.

ركب سيارة وتوجه معه شيخموس وعلي، وكان آراس في الجبهة الغربية، وبرزان في الجبهة الشرقية ونادر استلم الجبهة الجنوبية.

عند وصول سعد ومجموعته من شيخموس وعلي، وجد منزلًا مهدومًا مدمرًا وأثناء انتشال الركام، كان هناك جثتان ملتصقتان ببعضهما بعضًا، ظنوا إنها أمٌ وابنتها، لقد ماتا اختناقًا بعد تراكم الركام عليهم، كانتا فتاتان في مقتبل العمر قد حضنت إحداهما الأخرى ونزل عليهما المنزل الطيني وقُتلتا، كانتا شفين وكولي، تأثر سعد تأثرًا شديدًا لهما لسبب كان يجهله.

بقيت شفين وكولي طوال فترة الحصار تبحثان عن أحد الثوار وعلى رأسهم سعد، ولم يجداه، ها هو وباقي الثوار يقفان على رأسيهما، وأخرجوهما من تحت الأنقاض، أكان الأمر يستحق كل هذا حتى يقدم الثائر لرؤيتهما، دفعا روحيهما الحلوة ليأتي الثائر ويزفهما شهداء، بدلًا من زفهما إلى مخدعهما.

تلقى علي على الجهاز اللاسلكي إشارة من برزان أن عددًا من وجهاء عشيرة الشمر قد دخلوا المدينة لرؤيتهم، ذهب سعد مكشوف الوجه وعلي وشيخموس ملثمين ومعهم بعض الأغوات ووجهاء المدينة لرؤية الضيوف، جلسوا في الجامع الكبير وتم استقبالهم بشكل جيد، وأثنى أهالي عامودا على شيوخ ووجهاء عشيرة الشمر العربية على الجهود التي يبذلونها لوقف إراقة الدماء.

وبعد خوض طويل من النقاش توصل الثوار والأغوات إلى ورقة

واحدة..

وقف القصف ورفع الحصار عن المدينة، وعدم ملاحقة أي شخص، أثناء دخول الأجهزة الأمنية إلى المدينة، وانسحاب الجيش إلى ثكناته، مقابل وقف كافة الأعمال العسكرية ضد الأمن والجيش، وتسليم السلاح، كافة السلاح إلى عشيرة الشمر لضمان سير الاتفاقية، وقدم سعد خروجه من سورية، ضمانًا على وقف كافة الأعمال العسكرية، شرط عدم ملاحقة أهله، توعد وجهاء شيوخ الشمر، إذا لم يرض الجيش وماهر الأسد بهذا الأمر، سيرسلون أبناءهم وسلاحهم إلى عامودا لمواجهة الجيش والوقوف مع شبابها.

عندما خرج وجهاء عشيرة الشمر، اجتمع الثوار مع سعد لردعه والضغط عليه ليتنازل عن خروجه من سورية وإثناءه عن هذا القرار.

- يا شباب لازم نقدم ضمانات على وقف عملياتنا، وأنا انكشفت هويتي، يستحيل يخلوني أعيش براحتي، صحيح عم نخوض المعركة، هو موقف حتى ما تروح دماء الشهداء ببلاش، بس المعركة خسرت من وقت قتلوا ليلاف .. قتلوا وطني.

* * *

كان موقف عشائر الشمر العربية موقفًا رجوليًا يتسم بنخوة العرب، وكان النظام وماهر الأسد مجبرين على الرضوخ، أولاً لقد تلقوا ضربات موجعة جدًا من الثوار وطال عمر الصراع، ولن يكتفي أبناء المناطق الأخرى بالمظاهرات إذا بقي الحال هكذا، بل سيحملون السلاح إذا طفح الكيل وبلغ السيل الزبى.

ثانيًا، نزول قوات البيشمركة على أطراف نهر دجلة للضغط على الحكومة السورية، ثالثًا دخول عشائر الشمر العربية المعروفة، كجهة ضامنة، وتهديدهم بالوقوف مع الكرد إذا تعنت النظام. بعد عدة جولات وصولات، وصل الطرفان إلى اتفاقية، ودخولها حيز التنفيذ، شريطة ألا يلاحق الأمن بعد دخوله المدينة أي شخص، وألا يتعرضوا لأهل سعد، وجعل خروجه من سورية شرطًا أساسيًا للقبول، بعد كشف هويته.

وبعد سنتين من الاتفاقية يسلم عشائر الشمر السلاح إلى الجيش، ما فعله الشمر لأجل الكرد، كشف مدى خذلان الأحزاب الكردية وتآمرها.

* * *

لن أعيش في وطنٍ غاب عنه الشمس وتسلل إليه الموت والحزن والقهر، كما تسلل إلى حنايا صدري، قتلوا من كانت ثورتي ووطني، فهي يا أمي وطني والوطن بدونها منفى.

كانت عيون أمي مليئة بالدموع وهي تودعني، ماذا أفعل يا أمي، هذا هو حال الشعب الكردي منذ فجرهم الأول، يدفع عدد دمه ويضحي بروحه حتى يعيش سائر الشعب بكرامته، ويكف عنه يد الطغاة، لن يهزم شعبنا يا أمي وهناك شمس تشرق وتغيب، سينال شعبنا حريته وسيأتي ذاك اليوم المنشود. جثوت على ركبتي وقبلت قدم ويد أمي وأبي، وأشبعت عيني من منزلنا الطيني الجميل، وقطفت حبة تين وأكلتها حتى يبقى مذاقها في فمي حتى أموت، أمعنت النظر في كل شيء والدموع تترجم معاني القهر.

وعندما وصلت إلى الباب، نادت أمي الجميلة باسمي وسألتني ذاك

السؤال الذي كنتُ أتحاشاه، متى ستعود يا ولدي؟! لم أجبها فدموع عيني أبلغ من أي كلام والقهر الفاجر على ملامح وجهي خير جواب.

خرجت من المنزل إلى منزل الدكتور حيث العصبة هناك بانتظاري، قبلت سلاحي وسلّمته له، وحضنته، كان طبيبنا مضطربًا يشرب الكأس وراء الآخر، قبّلته من رأسه، ولم يحرك ساكنًا، كنت أسمع همهمات أنفاسه، وهو يحاول منع دموعه. حضنت صحبي وحضنوني، وتعاهدنا بأن يكونوا في انتظاري حين أعود.

بكى نادر صديقي القديم، صديق الطفولة، وامتنع عن وداعي وذهب، خرجت فوق شرمولا مودعًا المدينة بما فيها، ونزلت إلى المقبرة، ووقفت في رحاب قبرها، قبر ليلاف لأعزيها بالثورة التي قضت يتيمة بمقتلها ونفي أميرها إلى الأسر والغربة.

سقيت قبرها بدموعي، وكتبت على شهادة قبرها بدم يدي، قسمًا لن أنساكِ.. أحبك.. أحبكِ.. إن الحب بعدكِ حكايةٌ منسية.

وقبلتها، وكأني أقبل شفتيها الرقيقتين، شعرت بنبضات القبر وكأنها انتفضت لتودعني، وضعت بعض التراب من قبرها في جعبتي، لتكون مؤنستي في غربتي، ليبقى شذى عطرها في أنفي رحيقًا.. شعرت أني وضعت تراب الجنة في جعبتي، وعامودا دخلت الجنة عند إراقة أول قطرة دم. أقرأت السلام على رسولتي، وتوجهت إلى بركة المياه عند الحدود، وشربت من مياه البركة من كوثر عامودا حتى لا أعطش أبد الدهر، وعبرت الحدود إلى الأسر.

في عامودا.. قتل قابيل أخاه هابيل

عمان ٢٧ حزيران ٢٠١٣

منذُ أن خرجت من عامودا، وأنا أفكر كيف قطفوا ثمرة عشقي وأتلفوها، كيف كشفت هويتي! وبقي السؤال يحيرني حتى أتى ذاك اليوم..

عبرت إلى تركيا بطريقة غير شرعية، فبعد كشف هويتي لم أستطع عبور الحدود بشكل رسمي، كان لنا أقرباء هناك، بعد مضي أسبوع، ضاق صدري وكأن العالم كله يجلس فوق قلبي، كانت مدينة ماردين تطل على مدينة عامودا، لم يكن بالأمر السهل أن أقضي عمري هكذا أتحسر حتى أموت قهرًا.. وبعد تفكير عميق، طلبت من أحد أقربائي هناك أن يدبر لي جواز سفر مزور«تركي» باسم صديقي نادر لا باسمي، قال لي إنه بالمال كل شيء ممكن، ولكن أين سأذهب؟ إلى أوروبا.. رفضت، اخترت الأردن لأنها قريبة من سورية، وكان لبنان خيارًا صعبًا ففيه الكثير من الكرد، لا أريدهم أن يروني، ولا أريد المكوث في دولة فيها من الكرد، فبمجرد سماعي لاسم كردي سيطفو الحنين وأثور غضبًا من الهزيمة.

لم يمض شهر حتى كنتُ في الأردن، دخلت بجواز سفر تركي مزور باسم«نادر»، وبقيت مجهولًا للكثير والكثير.. أخفيت شخصيتي واسمي

وتاريخي.

قبل أيام سمعت عبر شاشات التلفزة عن اعتصامات في عامودا ضد حزب الاتحاد الديمقراطي الكردي، بسبب اعتقالهم لنشطاء من عامودا وقفوا مع الثورة السورية.

دخلتُ في المساء إلى غرفتي الرطبة ومعي صديقي، أشعلنا الأضواء والتلفاز، وقلبت القنوات لأعرف الأخبار، فأنا مقاطع لوسائل التواصل الاجتماعي، كنتُ أكتفي بالاتصال مع أهلي كل حين للاطمئنان عليهم، وأعرف منهم أخبار أصدقائي الذين لم أتواصل معهم أبدًا خوفًا من كشف هوياتهم، وإذا بي أجد خبرًا عن مجزرة حدثت في عامودا، هرعت ورفعت الصوت، أصوات بكاء وصراخ في كل مكان على الشاشة الصغيرة، جرحى مستلقون على الأرض ودماء في كل مكان، تذكرت تلك الأيام التي كنا نسعف جرحانا والفوضى التي كانت تملأ المركز الطبي أو المستشفى. وبعدها أذاعوا أسماء الشهداء، نادر وشيخموس وعلي وبرزان وآراس..

يا إلهي ما الذي يجر؟ لم يستطع نظام البعث في عز جبروته قتلهم، وها هم يقتلون على يد حزب كردي، يا للعار والخزي، بدأت أصرخ وأبكي، وصديقي يحاول تهدئتي.

كانت كاميرات الهواتف الحديثة تنقل الحدث لحظة بلحظة، تلك الكاميرات التي وثّقت كل أحداث الثورة السورية، كانت الكاميرا تجوب شوارع عامودا، أعرف هذه الشوارع جيدًا، ليس من السهل العودة بالذاكرة إلى الوراء ثلاثة عشر عامًا، لعنة الأشواق عادت تغرقني وتقذف بي في بحر الحنين، هذه الأشواق لا تكف عن ملاحقة فؤادي، تلك

الأزقة دغدغت مشاعري وهبت كالعاصفة، تلك الأزقة كم مشينا فيها في منتصف الليل، تلك الحبيبة ألمحها، كأنها ما زالت على الشرفة تنتظرني، لعلها حقًا تنتظرني!. وصلت الكاميرا فوق الجسر عند «الچم» أنا الذي يعرف هذا المكان، حيث كانت أول مقبرة لجنود الجيش، وكم وكم تسللنا تحت هذا الجسر لتنفيذ العمليات ضد الجيش، ولكن مهلًا.

دورية لحزب الاتحاد الديمقراطيpyd، تقف على الجسر، جميع العناصر ملثمون، باستثناء شخص واحد، أعرفه جيدًا.. كان يردد للكاميرا نحن هنا لشرب دماء أهالي عامودا.

كيف هذا.. كيف لثائر أن يتحول إلى قاتل؟ كيف لشخص حمل السلاح دفاعًا عن أهله قبل ثلاثة عشر عامًا، والآن يردد بشرب دمائهم!، إنه لم يكن بالثائر.. لقد كان جاسوسًا.

إنه هو.. نعم هو، هو الوحيد الذي كان شاهدًا على إعطائي الرسالة لليلاف، في ذاك اليوم، لقد كان السائق المرافق لي في كل جولاتي في المدينة، لقد كان جاسوسًا! الموت بحد ذاته لا يؤلم، لكن الغدر يؤلم حقًا، إني أشعر بتلك المرارة الآن.. ماذا أفعل بعد أن عرفت قاتل ثورتي ووطني وحبيبتي ليلاف؟ كم هو صعبٌ هذا العجز الذي أشعر به.. يا إلهي إنه سنان. منذ ثلاثة عشر عامًا، لم أشعر بمثل هذه الهزيمة.. الآن هُزمنا.. الآن هُزمنا.

- هدئ من روعك يا صاحبي من هؤلاء؟

- هؤلاء هم صحبي ورفاق دربي، تعاهدنا سويًا وقاتلنًا سويًا، وضحكنا سوياً، وانتصرنا وهزمنا سويًا، ولكنهم قُتلوا الآن وأنا غدوت يتيمًا.

- لماذا كذبت حول هويتك الحقيقية؟ لماذا أخفيتها طوال هذه السنوات الطويلة؟

- صدقني يا صاحبي.. ليس هناك شخص يريد أن يكذب، إننا ندعي الكذب ولكننا بداخلنا نتمزق، الكل يريد الإفصاح وقول الحقيقة، ولكن بماذا ستنفعنا الحقيقة حين تستيقظ المشاعر النائمة، وتتحول إلى وحشٍ ينقض على أعماق روحنا ويحولها إلى كآبة وحزنٍ ومهرجانٍ من الأشواق والحنين، نحن نتعمد تنويمها، وإذا رعد قلبي أمطرت عيناي عشقًا.

- أخبرني عنهم.

- هذه الخصلات البيض في رأسي، ابيضت حزنًا على فراقهم، هذه اللحية الكثيفة لم أحلقها حزنًا عليهم، قتلت حبيبتي وقتلوا ثورتي وبعدها وطني وهاهم يقتلون أملي.

طعنوا ثورتنا بالمخبرين، وجعلوهم قيادات، وسنان واحدٌ منهم، وهاهو اليوم يكمل مهمته بعد سنوات ليطفئ نيران الثورة من جديد.

لطالما خسر الكرد ثوراتهم بسبب الخونة على مدار الزمن، قتلوا ليلاڤ لأنهم عرفوا أنها ثورة بحد ذاتها، طعنونا من الخلف على يد إخوتنا.

يا صاحبي في أي زمن نعيش، يا لقهرنا، أصبحنا نسمع أخبار الوطن من شاشات التلفزة.

انتهت...

فترة كتابة الرواية: من ٢٠١٥/٨/١٢ إلى ٢٠١٧/١١/٣

أسماء شهداء مجزرة عامودا ٢٠١٣/٦/٢٧

١ - نادر محمود خلو ١٥ عامًا.

٢ - سعد عبدالباقي سيدا ١٥ عامًا.

٣ - شيخموس محمد علي ٣٣ عامًا.

٤ - آراس بنكو ٣٦ عامًا.

٥ - علي رنده ٦٦ عامًا.

٦ - برزان قرنو ١٨ عامًا.

أسماء شهداء انتفاضة ٢٠٠٤/٣/١٢

١ - جوان خورشيد حسن مواليد ٢٦/ ٣/ ١٩٨٧، استشهد في ٢٦/ ٣/ ٢٠٠٤ في مدينة القامشلي متأثرًا بإصابته.

٢ - محمد عبد الـرزاق إبراهيم مواليد ١٩٨٧، استشهد في ١٢/ ٣/ ٢٠٠٤، في مدينة القامشلي، إصابة مباشرة.

٣ - نوري محمود باشا مواليد ١٩٥٨، استشهد في ١٥/ ٣/ ٢٠٠٤، في مدينة سري كانيه (رأس العين)، قتل تحت التعذيب في المستشفى.

٤ - فرهاد محمد علي مواليد٤/ ٤/ ١٩٧٥، استشهد تحت التعذيب في القامشلي ٦/ ٤/ ٢٠٠٤، ذكرت قصته في الرواية.

٥ - أحمد خليل محمد مواليد ١٩٨٠، استشهد في ١٢/ ٣/ ٢٠٠٤ في القامشلي، إصابة مباشرة.

٦ - إدريس رمضان مراد مواليد١٩٨٢، استشهد في ١٢/ ٣/ ٢٠٠٤ في مدينة القامشلي، إصابة مباشرة.

٧ - حسين نعسو بن حمو مواليد ١٩٨٨، استشهد تحت التعذيب ٢٠٠٤، من عفرين، ملاحظة: تُوفي والده بعده بستة أشهر أثر نوبة قلبية

حزنًا على ولده.

٨ - ضياء الدين نوري نصر الدين، استشهد في ١٣/ ٥/ ٢٠٠٤، برصاصة مباشرة من ضابطه لأنه كان عسكريًا، وقتل لأنه كردي، من تربي سبي (القحطانية).

٩ - محمد زياد إبراهيم يوسف مواليد ١٩٧٨، استشهد في ١٣/ ٣/ ٢٠٠٤، قُتل أثناء تشييع الشهداء في مدينة القامشلي.

١٠ - فريدة أحمد رشيد مواليد ١٩٦١، استشهدت في ١٦/ ٣/ ٢٠٠٤ من عفرين، استشهدت في حي الأشرفية بحلب وهي تحاول إنقاذ طفل بعد إطلاق نار على مظاهراتهم الصامتة.

١١ - جلال كمال إبراهيم مواليد ١٩٨٩، استشهد في ١٦/ ٣/ ٢٠٠٤ من عفرين، بإطلاق رصاص على مظاهرة في المدينة.

١٢ - غيفارا حسن، استشهد في ١٦/ ٣/ ٢٠٠٤ من عفرين، بإطلاق رصاص على مظاهرة في المدينة.

١٣ - أحمد مرعي محمد مواليد ١٩٨١، استشهد في ١٣/ ٣/ ٢٠٠٤، قُتل في مدينة القامشلي بإطلاق الرصاص على مظاهرة.

١٤ - خليل عثمان حسين مواليد ١٩٣٥، استشهد في ١٧/ ٣/ ٢٠٠٤، بعد اعتقال ثلاثة من أبنائه أمام عينه تسبب له بصدمة وأدت إلى وفاته في مدينة القامشلي.

١٥ - غيفارا بدران خلف مواليد ١٩٨٥، استشهد في ١٢/ ٣/ ٢٠٠٤، في مدينة القامشلي، إصابة مباشرة.

١٦ - محمد أمين يوسف محمد مواليد ١٩٧٩، استشهد في

١٢/ ٣/ ٢٠٠٤، في مدينة القامشلي، إصابة مباشرة.

١٧ - أحمد معو كنجو مواليد ١٩٦٧، استشهد في ٣/ ٨/ ٢٠٠٤، قتل بسبب نزيف دماغي بطئ أثر تعذيب في المعتقل في مدينة سري كانيه (رأس العين).

١٨ - سيوان أنـور كوي مواليد ١٤/ ٤/ ١٩٨٦، استشهد في ٢٦/ ٣/ ٢٠٠٤، في القامشلي، متأثرًا بجراحه.

١٩ - حسين خليل حسن مواليد ١٩٨٤، استشهد في ٨/ ٥/ ٢٠٠٤، عسكري من عامودا، قتل في قطعته العسكرية لأنه كردي.

٢٠ - خيري برجس جندو مواليد ٢/ ٢/ ١٩٨٣، استشهد في بداية شهر مارس ٢٠٠٤ ، من قرية قزلا جوخ من عامودا، عسكري عُذب حتى الموت لأنه كردي.

٢١ - بديع جلو دلف مواليد ١٩٨٣، استشهد في ١١/ ٨/ ٢٠٠٤، من قرية قزلا جوخ من عامودا، عسكري قُتل رميًا بالرصاص لأنه كردي.

٢٢ - حسين نوري محمد مواليد ١٨/ ٣/ ١٩٨٦، استشهد في ١٤/ ٣/ ٢٠٠٤ من مدينة ديريك (المالكية)، طالب أول ثانوي قُتل أثناء المظاهرة في المدينة.

٢٣ - وليد بدري شاهين مواليد ١٩٨٧، استشهد في ١٣/ ٣/ ٢٠٠٤ من مدينة ديريك(المالكية)، قُتل أثناء إطلاق الرصاص على مظاهرة في المدينة.

٢٤ - غسان عبد القادر قنجار مواليد ٥/ ٩/ ١٩٨١، استشهد في ١٣/ ٣/ ٢٠٠٤، من مدينة الحسكة، قُتل أثناء إطلاق الرصاص على

مظاهرة في المدينة، طالب جامعي.

٢٥ - عماد يوسف علي مواليد ٣/ ٣/ ٩٨٥، استشهد في ١٤/ ٣/ ٢٠٠٤، من مدينة الحسكة، قُتل متأثرًا بجراحه.

٢٦ - آري فوزي دلو مواليد ١٩٨٩، استشهد في ١٦/ ٣/ ٢٠٠٤، في حي الأشرفية بحلب، قُتل أثناء إطلاق الرصاص على مظاهرة.

٢٧ - قاسم محمد حامد مواليد ١٩٨٣، استشهد في ٢٠٠٤، رقيب في الجيش، قُتل لأنه كردي، من مدينة ديريك (المالكية).

٢٨ - حنان بكر ديكو، ٥٣ عاماً، استشهد في ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٤، قُتل تحت التعذيب من مدينة عفرين.

٢٩ - حمادة عبد الحنان حمادة مواليد ١٩٧٤، استشهد في ٢٤/ ٦/ ٢٠٠٤، تحت التعذيب من عفرين.

٣٠ - إبراهيم محمد صبري مواليد ١٩٨٠، استشهد في ١٦/ ٣/ ٢٠٠٤، في حي الاشرفية بحلب، أثناء إطلاق الرصاص على المظاهرة.

عماد: نحن قوم نسلم قلوبنا للجنية إذا أقبلت عاشقة تريدنا. ولا نقول لا. نسلم أنفسنا للعشق دون أن ننظر إلى الهوية أو الدين. في العشق نحن أطفال نحمل سماتهم وبراءتهم فالأطفال لا يميزون الأعراق يحلمون بعيدا عن همومهم وسعاداتهم، وهكذا نحن يا عماد.

أما قلبي، فآه وألف آه من قلبي المستعصي. مساحته صغيرة لا يتسع لامرأتين معا. لامرأة واحدة فقط أحدث حق الملكية وسجلتها في سجل العشق، عشق كاثوليكي. لم يعد هذا القلب ملكي، لم يعد من حقي التصرف به، هو الله وحده سيأخذ القلب عنده يوما استأذن عماد - مأخوذ من شرق القلب صفحة ٢٤٠ من الرواية.

